قبيلة آمنة

رواية

روافد
للنشر والتوزيع

أشرف العبد

قبيلة آمنة

العبد، أشرف
قبيلة آمنة/ أشرف العبد
روافد للنشر والتوزيع. 2015 ط أولى، القاهرة
396 ص ؛ 21 سم
1-رواية
2-العنوان
أ – المؤلف

رقم التصنيف: 813.008
رقم الإيداع: 14779 /2015
الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -142- 1



روافد للنشر والتوزيع
القاهرة – ج م ع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

قبيلة آمنة

شذرات من دفتر الهجرات

رواية

أشرف العبد

لم يكن أحد هناك
لكننى كلمتهم
كانوا مثل خيل تتراكض عبر وقتى
كشعاع يتصاعد نحو أزمنة حميمة
لهم وجوه مثل شقشقة الصباح
وعيون رائقة كحزنى

إهداء:

إلى أرواحهم .. تلك الجياد التى تتراكض عبر وقتى

مبتدأ:

جاءنى صوت أخى الأصغر عبر الهاتف ملهوفا يخبرنى أن الممرضة المرافقة لأمنا قد اتصلت به وأبلغته خبر موتها، ظن أخى أنها لم تمت وأنها تعرضت فقط لغيبوبة الكبد التى ضربتها عدة مرات فى الأشهر الأخيرة، تمنيت أن يصدق ظنه. كانت الممرضة المرافقة قد أبلغت أختى الكبرى التى كانت أمى تقيم معها فى الأشهر الأخيرة فجاءنى صوتها عبر الهاتف وقد تداخلت كلماتها بين النهنهات، حاولت تهدئتها بقولى أنها ربما تكون إحدى نوبات الغيبوبة لكنها ظلت تنتحب حتى أنهينا المكالمة. توالت مكالمات إخوتى الملتاعة وأنا أحاول السيطرة على مشاعرى وعلى مقود السيارة وأكاد لا أرى الطريق من خلف دموعى.

وصلنا فى توقيت متقارب لبيت أختى، كان أخى قد حمل أمه ووضعها فى سيارته، فى موكب من ثلاثة سيارات تتقدمه السيارة التى تحمل أمى بدأنا رحلة البحث عن مكان شاغر فى العناية المركزة بالمستشفيات القريبة بمصر الجديدة وما حولها حتى استقرت فى إحداها ووضعت تحت أجهزة التنفس الصناعى، بتنا ليلتنا فى طرقات المستشفى نتلمس أخبار حالتها كلما لمحنا طبيبا أو ممرضة دون فائدة. ظهر اليوم التالى، بينما كنا -أبناؤها وبناتها- واقفين بساحة المستشفى نتباحث فيما ينبغى علينا أن نفعله ونهاتف من نعرف من الأطباء ليشاركونا التفكير، جاءتنا إحدى الممرضات

لتبلغنا أن الحاجة "فاطمة" فارقت الحياة، شعرنا كأنها كعادتها وفرت علينا عناء الحيرة فآثرت الرحيل دون أن تتعبنا.

بعد أن أنهينا الإجراءات اللازمة للدفن، وضعنا جثمان أمى فى سيارة إسعاف وإنطلقنا خلفه على طريق السويس. وصلنا السويس قبل دقائق من آذان المغرب. صلينا عليها صلاة الجنازة بعد المغرب ثم دفناها بجبانة العائلة فى صحراء السويس المشرفة على الطريق بينها وبين القاهرة.

زرنا الجبانة فى اليوم الرابع للوفاة بعد أن أنهينا أيام العزاء الثلاثة، الرجال فى جمعية "الأشراف" والنساء فى بيتنا، بيت أمى وأبى بشارع الكورنيش القديم.

كانت قطع الرخام تحدد مواضع قبورهم المنتشرة فى مواقع مختلفة من الجبانة. أسماؤهم وتواريخ موتهم محفورة على قطع الرخام التى يبدو بعضها جديدا واضح الكتابة ويبدو بعضها حائل اللون باهتا بفعل الزمن والتراب ولكنه مقروء.

هؤلاء الذين حولهم الموت إلى مجرد لافتات باردة من الرخام، رجال عائلتى ونساؤها، الذين كانوا جميعا آبائى وأمهاتى وفى القلب منهم أبى وأمى، الذين عاشوا فى مدى زمنهم المقدور، أحلامهم وآلامهم، رغباتهم ومخاوفهم، خيرهم الوارف وشرورهم الصغيرة، والذين مشوا فى مناكب الأرض فكابدوا غربة هجراتهم وأشقاهم غرس شتلات حيواتهم كل مرة فى تربة جديدة، والذين

ظللت صلابتهم عمر طفولتنا وصبانا اللاهين كخيمة مستعصية على أنواء الزمن فحيينا فى جنة حنانهم الطرى تجليات أسطورتنا.

لم يكن الصمت الفادح الذى يلف شواهد قبورهم يليق بصخب حيواتهم وانطلاقهم الجامح خلف مخايلات الحياة وبين غبار دروبها كى يشقوا لأنفسهم ولمن يجئ بعدهم طريقا إليها.

المخادمة – قنا (أربعينيات القرن العشرين)

1

إستيقظت "آمنة" على صرخات زوجها التى شقت جوف الليل.

كان "هاشم" محموما وقد جاهدت فى تخفيف الحرارة التى تنبعث من جسده بكل الطرق التى تعرفها دون جدوى. جاءته الحمى منذ ليال بعد عودته متأخرا من "الشويخات" فى الليلة التى نزل فيها المطر الغزير على غير المعتاد فى هذا الوقت من العام.

كانت رحلته إلى الشويخات كل ثلاثاء جزءا من نظام حياته لم ينقطع عنه منذ أن عرفته، فى الصيف كان يتناول غداءه وينام قليلا ويصحو ليصلى العصر ويشرب كوب شاى ريثما تهدأ حرارة الشمس ثم يخرج حماره من الحوش ويودعها هى وأولادهما سالكا الطريق المتعرج الذى يوصله لخارج البلد متجها شمالا إلى وجهته، وفى الشتاء كان يستغنى عن نوم القيلولة حتى لاتغرب الشمس قبل أن يصل، لم يكن الطريق يستغرق وقتا طويلا إذ كان يصل قبل مغيب الشمس بوقت يكفى لكى يعاين الغنم فى حوش التاجر الذى يكون جالسا على الأرض مستندا على جدار الحوش فى إنتظاره.

بعد المعاينة، كان هاشم ينتقى فى العادة ذكرا من الخراف وذكرا من الماعز حريصا على أن يكون سنهما صغيرا، وبعدها كان يجلس بجوار التاجر يشربان الشاى ويتبادلان الحديث ويصفيان حسابهما عن المرة السابقة.

فى أيام المواسم والأعياد كان هاشم يضاعف عدد الغنم التى يختارها لأن عدد زبائنه يزداد فى تلك الأوقات، فتناول اللحم هو المظهر الأهم لإحتفال الناس بأيامهم المقدسة كيوم عاشوراء وذكرى الإسراء والمعراج والنصف من شعبان وغيرها. أما قبل العيد الكبير فقد كان يشترى من سوق الأحد فى "البطاطخة" عجلا وربما جملا صغيرا (قعود) أو الإثنين معا حسب توقعاته بمدى رواج بضاعته وشعوره بمزاج زبائنه وأحوالهم المالية، فالناس فى هذه النواحى تعتاد لحم الغنم طوال العام أما فى عيد اللحم فكانت تحدوها الرغبة فى التغيير.

خلال زياراته المتكررة للشويخات كان قد تعرف على بعض أهلها الذين تربطهم علاقات قرابة ونسب بعائلات "المخادمة" وإكتسب محبتهم وإحترامهم، وذات يوم أبدى لأبيه وأمه رغبته فى خطبة آمنة بنت الحاج "مصطفى البسطاوى" الذى كان يشاركه أحيانا جلسته مع تاجر المواشى ويتبادل معه حديثا يدور معظمه عن معارفه من أولاد العمومة بالمخادمة وقد عرف منه أن زوجته منها وتنتمى لربع "أولاد مالك".

لم يخبر هاشم والديه أنه لمح وجه آمنة عندما أزاح الهواء طرحتها وهى تضع صينية الشاى لهم ثم إستدارت وجلة عائدة لبيتها القريب من الحوش. لم تكن معرفة أصول العائلات وأخلاقها مهمة صعبة فالناس هناك أقارب بدرجات متفاوتة ويربطهم فى سلسال النسب جد واحد، وعندما إطمأن الوالدان على حسن إختيار ولدهما لمقر نطفته وافقا خاصة أن أم العروس من بلدياتهم، تمت الخطبة والزواج وإنتقلت آمنة للمخادمة لتصير مع مرور الأيام والسنين سيدة من سيداتها المحترمات.

كان هاشم فى أغلب الأحيان يمر سريعا ليطمئن على أهل زوجته ويبلغهم سلامها ويقدم لهم هدية مما تيسر ويدعوهم للزيارة لأن آمنة قد إشتهتهم (أوحشوها) وهى لاتقدر على المجئ إليهم لإنشغالها معه وبالعيال فكانوا يعدونه بالزيارة ولكنهم لايفعلون إلا نادرا، كانوا كغيرهم من أهل هذه النواحى يعتبرون أن البنت إذا تزوجت فإنها تصير ملكا خالصا لزوجها وعائلته وأن رؤيتهم لها ورؤيتها لهم تحددها الظروف، المهم أن تحظى إبنتهم برضا الزوج وأهله خاصة إذا أثبتت الأيام والعشرة أنها مصونة بينهم وأنهم يراعون الأصول فى التعامل معها فلا يسبونها أو يسبون أهلها ولايقتروا فى الإنفاق عليها وعلى أبنائها ويعدلون بينها وبين "سلايفها" (زوجات إخوة زوجها) فى توزيع أعباء العمل فى بيت العائلة، وإذا هى أخطأت يكون على زوجها أن يعيدها لبيت أهلها ليقوم أبوها أو ولى أمرها بتقويمها وردها صاغرة لبيت الزوج.

كان هاشم أبو زيد أشهر جزار فى المخادمة، يحرص الناس على المجئ مبكرا إلى فرشته يوم السوق ليشتروا منه اللحم الذى يصفونه دائما بأنه أطيب لحم ويصفون هاشم بأنه صاحب أطيب نفس وأحسن ميزان بين جزارى البلد، وكان بعض الزبائن يحرصون على حضور ذبح الذبيحة التى سوف يأكلون من لحمها ويستمتعون بمشاهدة تفاصيله التى كان هاشم يؤديها بمهارة مدهشة بمساعدة ولديه "محمد" و"محمود".

لكل قرية من القرى يوم محدد للسوق يأتى فيه البائعون والفلاحون من القرى المجاورة أو من المدينة المركز "قنا" على ظهور الحمير ليبيعوا بضاعتهم، بهائم وغنم، أقمشة وخردوات، طيور حية وبيض، فول نابت وبليلة حمص، عطارة، جلاب (كوز العسل) وخد الجميل وحلاوة شعر وكثير من الأشياء التى لاتبيعها الدكاكين الصغيرة.

كان سوق المخادمة يقام يوم السبت من كل أسبوع فى الساحة الرئيسية الواقعة فى الطريق الرئيسى الواصل بين شمال البلد وجنوبها والذى تتفرع منه الحوارى والدروب شرقا وغربا. كان يوم السبت هو أسعد أيام الأسبوع لأطفال البلد فقد كانت كل الأيام يشبه بعضها بعضا فالطعام فى العادة لايخرج عن الجبن والمش أو الملوخية الناشفة القارفة (التى تطبخ بالماء)، أو العدس أو البصارة، والألعاب لاتتغير، فهم يهيمون حفاة طوال النهار فى الطرق المشمسة يطاردون كلبا هنا أو "بسة" (قطة) هناك وأحيانا يلعبون "الشخة" (بكسر الشين وفتح الخاء المشددة وهى لعبة تشبه اللعبة المسماة تريك تراك فى القاهرة) أو "المقل" (بذور الدوم) و"الفصا" (بذور البلح) ويعودون مكدودين عند غروب الشمس وسرعان مايتلقفهم النوم على المصاطب المبنية بالطوب اللبن أو الأسرة المصنوعة من جريد النخل قبل أن تكمل أمهاتهم حدوتة أمنا الغولة أو الجنية المسحورة. أما يوم السوق فكان عيدا أسبوعيا لهم، يستيقظون فيه مبكرا عن موعد إستيقاظهم كل يوم، يشربون الشاى ويأكلون - على عجل - كسرات من الخبز ويلحون على أمهاتهم من أجل مصروف السوق فتستجيب الأمهات بدلال وهن يوصينهم بالحذر من ضياع المصروف أو صرفه فى أشياء

غير مجدية فيهزون رؤوسهم هزات متتالية بالموافقة حتى تحين لحظة الانعتاق من يد الأم جريا نحو المكان المتفق عليه والذى يكون عادة بجوار المربع الذى يحتله بائعو الحلوى والفول النابت والبليلة المطهيين فيشترون بملاليمهم القليلة بعضا منها ليكملوا إفطارهم ويبدأون رحلاتهم بطول البلد وعرضها ثم يعودون وسط النهار للغداء الذى يكون مختلفا عن باقى الأيام حيث يتناولون اللحم الذى اشتراه آباؤهم فى الصباح الباكر والملوخية أو "الويكة" (طبخة من البامية المطبوخين "بالسليقة" (مرقة اللحم) أو البطاطس بالكشنة (التقلية وهى صلصة الطماطم المسبكة مع البصل).

وكان يوم السوق أيضا يوم فرحة للرجال يحرصون فيه على ارتداء أفضل ملابسهم ويخصصون له قدرا معتبرا من ميزانياتهم ليشتروا به مايحتاجونه من لحم وأقمشة وسجائر أو معسل وربما يختارون شيئا من أشياء النساء هدية لزوجاتهم تصلح مقدمة لليلة وصل.

يجلس الرجال بعد فراغهم من أمور الشراء والبيع فى حلقات، يدخنون ويتبادلون الحديث مع الباعة والزبائن الذين جاءوا من البلاد المجاورة إذ يدور الحديث فى العادة عن أخبار الأقارب والأبناء الذين يقيمون لدواعى العمل أو المصاهرة خارج البلد وعن زواج البنات وعمل الأولاد والمعارك التى تنشأ بين العائلات وجلسات الصلح التى تعقد بحضور الأعيان لتصفية خلافات الثأر والخلافات حول الأراضى أو حوادث السرقة التى كان أغلبها لسرقة المواشى من أحواش البيوت إذ يستفيضون فى مناقشة تفاصيل كيف "ينقب" اللصوص جدران الأحواش (يهدمون جزءا من الجدار لعمل فتحة تكفى لخروج البهيمة)

خاصة فى الشتاء عندما يوغل الليل فيستيقظ أهل البيت على المصيبة ويوسطون الوسطاء لإعادة البهائم المسروقة بعد دفع "الحلوان" (بكسر الحاء وتسكين اللام وهى الفدية) إذا عرفت العصابة التى سرقتها أو يستعوضون الله فيها إذا أفلت السارقون بسريقتهم.

تجاوز محمد أكبر أبناء هاشم وشقيقه الأصغر محمود مرحلة الطفولة ولم تعد ألعاب الأطفال تناسب إهتماماتهما، كانا قد بدآا فى اكتشاف أسرار الرجولة وكان أحدهما يحكى للآخر عن تلك الأحلام التى تجيئه فى الليل وتبلل ملابسه فيستيقظ مبكرا قبل أن يستيقظ أبوه وأمه ليستحم فى الحوش، كما يأمر "الواعظ" فى خطبة الجمعة حتى يتطهر من النجاسة التى تجلب الشؤم والفقر ولاتصح معها صلاة. كان الولدان ينامان ليلة السوق وقد تملكهما شعور الرجال المقبلين على أداء مهمة خطيرة حيث يعرفان أن أمهما سوف توقظهما عند الفجر وتعد طعام الإفطار لهما ولأبيهما الذى يكون قد إستيقظ وصلى الفجر، ينسلان من فراشهما بهدوء كى لايوقظا إخوتهما خوفا أن يأتى أحدهم معهما فتخف فرحة انفرادهما بمشاركة الأب، أحيانا كان الصغير "عبد الله" يستيقظ ويلح عليهما أن يصحباه فيستجيبان له على مضض شرط أن يقف متفرجا وألا يشاركهما فيما يفعلان، كانا يتوضآن ويصليان ثم يسبقان أباهما إلى خارج البيت، يمضى ثلاثتهم فى الظلام الذى يبدأ فى التحول شيئا فشيئا للنور، يجر الولدان الغنم التى كانوا يشاكسونها وهى مربوطة فى حوش بيتهم منذ أن أحضرها الأب ليل الثلاثاء، بعد خطوات قليلة يصلون للركن الذى يتخذونه بجوار الحائط الجانبى لدكان عباس، ينصبون الفرشة المصنوعة

من جريد النخل ويضعون عليها الميزان والورق السميك الذى يلف فيه هاشم اللحم المباع بعد وزنه والذى كان يوصى "سليم البراهمى"سائق "الحلزونة" (الأتوبيس) لشرائه من قنا ويرسل محمد كل خميس ليتسلمه منه وهو قادم منها بعد أن يسدد له ثمنه مع الإكرامية، ثم يدقون الأوتاد التى سوف يعلقون عليها الذبائح فى الأرض وكان هاشم يضع "القرمة" التى يقطع اللحم عليها أمامه فوق الحصير النظيف الذى يفرشونه بحيث يستند الجالس فوقه إلى جدار الدكان.

بعد أن يصير المكان مهيئا للعمل، يمسك أحدهما الحيوان ويقوم الأخر بشله من أرجله حتى يرقد على الأرض متخذا وضع الذبح الذى يقوم به الأب بضربة عاجلة من سكينه الحاد بعد أن يسمى ويكبر فيتدفق الدم من رقبة الذبيحة كنافورة صغيرة بينما ينتفض جسدها وتظل أرجلها ترفص الأرض حتى تستكين. بعد أن تهدأ الذبيحة يقوم هاشم بشق فتحة صغيرة بالسكين بين الجلد واللحم فى أسفل الرجل ثم يغرس فى الشق عودا رفيعا من الخيزران بطول الرجل لفصل الجلد عن اللحم وتكوين ممر للهواء فيضع أحد الولدين فمه على فتحة الشق ويبدأ فى النفخ حتى يفصل بين اللحم والجلد بينما أخوه يضرب ضربات متوالية بعصا قصيرة ليساعد الهواء فى الإختراق فيسهل عملية السلخ التى يتممها الأب على مرحلتين بعد أن يقطع الجلد قطعا طوليا من باطن الذبيحة، الأولى باستخدام يديه فى المناطق التى إخترقها الهواء إذ يضغط باليسرى على لحم الذبيحة ويشد الجلد باليمنى والثانية باستخدام سكين صغيرة النصل للمناطق التى لم يصل إليها الهواء فظل اللحم بها عالقا بالجلد. يشق هاشم باطن الذبيحة

من أسفل الرقبة وينزع "المعاش" (الأحشاء) -بعناية حتى لايتلوث اللحم- مُلقيًا به فى طست صغير ليرسله فيما بعد للبيت مع أحد ولديه لتقوم زوجته بتنظيفه وطهيه وقد صارت آمنة نتيجة الخبرة التى اكتسبتها أمهر من يطبخه إذ كانت تعد منه وليمة متنوعة الأصناف يتفاخر بها هاشم على أصدقائه الذين يتصادف أن يدعوهم ليشاركوه فيها، عندما يتم نزع المعاش كان يعلق الحيوان بخطاف صغير فى الأوتاد المنصوبة، عند ذلك يبدأ الولدان فى غسل الحيوان إذ يقوم أحدهما بغرف الماء من الطست وصبه بالكوز بينما يدعك الآخر بيده فى موضع نزول الماء حتى تختفى آثار الدم ويتلألأ اللحم فيغطى هاشم جسم الحيوان بالشاش الأبيض حتى لايعف عليه الذباب أو يحط عليه التراب الذى تذروه الأرجل فى فضاء السوق.

بعد أن يكملا مهمتهما تكون الشمس قد أكملت إشراقها ويكون مشهد السوق قد اكتمل بحضور أبطاله، ينظر الولدان إلى أبيهما وكأنهما يستأذنانه فى الانضمام إلى أقرانهما والتمتع بجولة فى السوق كما يفعل الرجال، يشير لهما الأب بيده منتحيا بهما من الناس المتحلقين فيمنح كل منهما مصروفه الذى تتحدد قيمته كل مرة حسب درجة رضائه عن أداء كل منهما لمهمته ويأمرهما أن يعودا إليه عند الظهر ليلمّا الفرشة وينظّفا العدة ويعيداها إلى البيت.

بعد نهاية العمل، يذهب هاشم للبيت ليغير جلبابه الملوث ببقع الدم بجلباب نظيف ويلف حول رأسه العمامة ويأخذ عصاه التى يضعها دائما بجوار الباب من الداخل ثم يمضى للسوق حيث يتمشى متمهلا بين الباعة مستطلعا بضاعاتهم فيشترى شيئا لزوجته وأولاده أو سكينا أو

ساطورا يضمه لعدة العمل، ويلتقى بالرجال من أعمامه وأبناء عمومته يدخنون الجوزة ويتحدثون عن أحوالهم وأعمالهم ويستمعون للكبار عن الأحداث الكبرى فى تاريخ قبيلتهم وعن مجدها فى الزمان القديم وكيف هاجر أجدادهم "الأشراف" الأوائل من "المدينة المنورة" التى كانوا أمراءها إلى قنا فى منتصف القرن السابع من الهجرة النبوية ثم يعدد الكبار سلسال الجدود وصولا لجدهم الشريف "مخدم" الذى جاء من نسل أولاده "مالك" و"مرعى" و"شاهين" و"عيت الله" و"على" كل عائلات المخادمة وبعض عائلات "الشيخ عيسى" ويشرحون لهم علاقة القرابة التى تربطهم بأهل البلاد المجاورة لهم "أولاد سرور" والشويخات والبطاطخة و"الجزيرية" و"عزبة حامد" والذين يمثلون مع بلدهم المخادمة الجزء الشمالى من المنطقة التى تشغلها عائلات الأشراف ويطلقون عليه "الأشراف البحرية" وكذلك عن قرابتهم لأهل البلاد البعيدة عنهم على النواحى الشرقية والغربية والجنوبية لقنا إذ ينتسبون جميعا لأخوة مخدم وبنى عمومته من "الأشراف الجمامزة" نسبة لجد جدهم مخدم الشريف الأمير "جمال الدين جماز" وولده "مهنا" الذى كان آخر أمير للمدينة المنورة من هذا الفرع من نسل سيدنا "الإمام الشهيد أبو عبد الله الحسين بن على" حفيد النبى الكريم "محمد" صلى الله عليه وسلم من ابنته سيدة أهل الجنة "فاطمة الزهراء". كان هاشم وغيره يغادرون هذه الجلسات وهم يشعرون بالفخر، فإذا كان الزمان قد جار عليهم وإذا كانت حياتهم فقيرة وقاسية فيكفيهم أنهم من نسل كريم يمتد أصله للنبى محمد وحفيده الإمام الحسين إبن الصحابى الجليل ابن عم النبى الإمام "على بن أبى طالب"، وأن أجدادهم كانوا أمراء وأبناء أمراء.

2

قبل العيد الكبير بأيام، ترتسم على هاشم وآمنة وولديهما محمد ومحمود ملامح الجد والاستعداد لأيام العمل الشاق ويصير البيت كأنه خلية نحل، يشعر الصغار على نحو مبهم بأن الكبار مقبلون على شيء مثير فتسرى فيهم روح البهجة المشوبة بالانتظار والترقب لكل التفاصيل ويدرك عبد الله فى تلك الأثناء بدرجة أكبر من إخوته الأصغر أن الأمر يتعلق بالعيد وبالذبائح التى يقضى أبوه - بمساعدة أخويه – ليلة الوقفة ويومها فى ذبحها وتقطيعها وبيعها لأهل البلد.

يقضى هاشم معظم ساعات النهار خارج البيت وأحيانا خارج البلد يتنقل بين معارفه من تجار المواشى ليختار الحيوانات التى سوف يشتريها للموسم الأهم، ويمضى أوقاتا طويلة يعاين المواشى ويفاضل بينها ويحاول أن يقدر أعمارها ليختار منها الأصغر سنا والأوفر لحما والأقل سمنة، وعندما يتخذ قراره يتفق مع التاجر على الحيوان المختار ويدفع عربونه ويطلب منه أن يرسل به أحد صبيانه إلى بيته بالمخادمة حيث يكون ولداه فى الإنتظار فيتسلمان الحيوان وينفحان الصبى إكراميته ويتبادلان معه التهانى بالعيد كما يفعل أبوهما مع الرجال. يقوم أحدهما بإدخال الذبيحة لحوش البيت وربطها فى أحد الأوتاد المغروسة فى الأرض بينما يضع الآخر أمامها طستا مملوءا بخليط الفول والشعير وطستا آخر بالماء. كان هاشم دائما يختار عجل جاموس أو بقر متوسط العمر يسمونه "الشاب" وينطقونها دون مد الألف، عالى الظهر، ضامر البطن، ممتلئا باللحم، أما القعود فيختاره ابن أيام حتى يضمن نعومة لحمه وسهولة نضجه.

فى جلسة المسامرة بالسقيفة مع حلول المساء أو بالخارج أمام الباب إذا كان الجو حارا، يلقى الأب تعليماته عليهم وكأنه قائد معركة إقتربت ساعة الصفر لها، يحدد لكل منهم دوره ويحذرهم من الغفلة أو الانشغال بغير العمل حتى لا يستغل أولاد الحرام الزحام ويسرقون شيئًا ويختم حديثه بالدعاء إلى الله أن يكرمهم بالرزق الحلال وأن يجنبهم غفلات الزمان. بعد أن تنفض الجلسة، يتنحى هاشم بولديه الكبيرين كل على حده هامسا له ألا يلمس بهيمة حية أو مذبوحة أو يقدم لها طعاما إلا وهو متأكد من طهارته حتى لاتقل البركة وأن يكثر من ترديد البسملة والحوقلة والدعاء.

لم تكن آمنة بحاجة لتعليماته لكنها تجلس معهم لتشعر أولادها أنهم عائلة واحدة وأن مصيرهم واحد وأن عليهم أن يواجهوا الحياة معا فيكون هم أحدهم هو هم إخوته، كانت تريد أن تعلمهم بطريقة عملية ربما على نحو لاتدرك عمقه أمية مثلها أن العمل ينبغى أن يكون شاغلهم الأول فهو الذى يمنح المرء قيمته أمام ذاته وبين الناس.

كانت تعرف دورها وتؤديه بانضباط صارم.

قبل حلول يوم العيد الكبير بأيام تكنس أرضية البيت الطينية وتزعف أسقفه لتزيل بقايا بيوت العنكبوت العالقة بها وتحرك قطع الأثاث القليلة لتنظف الأركان من الوسخ المختبئ خلفها ثم ترش البيت بالماء للتخلص من الهواء المترب الناتج عن الكنس وتخرج من الحوش كل الطسوت والحلل الكبيرة التى تستخدمها فى هذه المناسبة من كل عام وتغسلها جيدا بالماء والصابون، ومن غرفة الحاصل تخرج كل العلاوى

(جمع علاوة وهى الجرة أو الزلعة بلهجة أهل بحرى) وتشطفها بالماء من الداخل والخارج ليبدأ "الجعيدى" السقا رحلاته المكوكية بين البيت والمشروع (الترعة) لملء القربة وتفريغها فى الزير والعلاوى المرصوصة بجواره فى السقيفة (باحة البيت) فتغطيها آمنة بقطع من القماش أو الليف حتى لايتعكر الماء. كانت تحرص على نظافة كل ما بالبيت كما تحرص على نظافة أولادها وملابسهم، ولأن زوجها يعود فى نصف النهار أو فى المساء مبللا بالعرق من الجهد الذى يبذله تحت الشمس ومتربا من الطرق التى يقطعها فى تجواله فقد كانت تحرص أن تغسل كل ملابسه ليكون لديه عدد من الجلابيب والغيارات الداخلية النظيفة يكفى ليغير ملابسه كلما أراد أن يستحم. كانت تدرك أنه فى مثل هذه المناسبات يكون هو وأولاده محط أنظار الجميع.

عصراليوم السابق لوقفة عرفات، كانت القرية الهادئة ترتج بالزفة.

كانت الزفة طقسا أساسيا فى العيد الكبير. تكون آمنة قد أعدت عددا من الشرائط والقصاقيص من بواقى الأقمشة الملونة وقطعة كبيرة من قماش الساتان زاهية اللون. يبدأ الصغار فى تزيين العجل العريس فيربطون بعض الشرائط الملونة حول الرقبة والرجلين الأماميتين والذيل ثم يعقدون فيها باقى الشرائط بشكل طولى حتى تصل لقرب الأرض ويعلقون بعض الشخاليل حتى تصدر أصواتها على وقع خطوات العجل بينما تلف أمهم الحردة (إيشارب ملون) حول رأس الحيوان والصرافية (قطعة من قماش الساتان اللامع مطرزة بالترتر) حول الظهر والبطن ثم تخيط نهايتى القماش بإحكام، ينتبهون من انشغالهم على زغرودة طويلة "ليليليليلى" تنطلق من فم إحدى بنات الجيران تكون

قد تسللت إلى الحوش بعد أن نبهتها الجلبة المرحة التى يصدرها الأطفال أنهم يزينون العجل الآن، تتميز البنت التى تفعل ذلك عادة بالجرأة اللازمة لتدخل دون استئذان بيتا غير بيتها وتقف بين أهله وبينهم شباب على أعتاب الرجولة. لم يكن الكبار يعجبهم هذا النوع من البنات وكانوا يصفون صاحبته بأن وشها مكشوف ولكنهم - والدنيا عيد كما يقولون- يتسامحون مع تصرفها بل ويتضاحكون على زغرودتها ويمنحها هاشم بعض الفكة لتشترى لبانًا أو حلوى فتمضى بعد أن تهنأهم بالعيد:

- كل سنة وإنت طيب ياعم هاشم، كل سنة وإنتى طيبة ياخالتى يامنة (آمنة).

- وإنت طيبة يا بنيتى.

عندما تكتمل الزينة يصعد هاشم إلى غرفته لينال قسطا من النوم إستعدادا للسهر الطويل، ويسحب أحد الأولاد العجل إلى خارج البيت وفى دقائق معدودة يكون قد تجمع حوله ووراءه عدد كبير من الأطفال يزفونه بالأغانى فى دروب القرية بينما يتطلع الكبار على المشهد من بعيد والابتسامات تكسو وجوههم:

يا رمان أحمر وجديد
بكرة الوقفة وبعده العيد
من ده بكرة بقرشين
لحم الحلال بكرة بقرشين
بكرة العيد ونعيد
وندبحك يا شيخ سيد

ونحطك فى القروانة
ونذب عليك بالخرزانة

بعد انتهاء الزفة يبدأ الجد.

يتطوع بعض الشباب ومعظمهم من أقارب هاشم من ربع أولاد مرعى لمساعدته إحتراما ومحبة له أو طمعا فى أن يهديهم بعض اللحم بعد انتهاء البيع أو مجاملة لصديقيهما محمد ومحمود أو ربما رغبة فى تعلم بعض أسرار الصنعة على يد أفضل جزار فى البلد، يوافق أن ينضم إليه من يثق فى تربيته وأخلاقه أما المتسكعون أو الذين عرفوا بسوء الأدب أو الحسد فيشكرهم بوجه صارم حتى يفهموا رسالته المبطنة بأن وجودهم غير مرغوب فيه فيرفع الواحد منهم طرف جلبابه ويمضى متمهلا يدارى خزيه.

يعد هاشم وأبناؤه ومساعدوه موقع العمل الذى يتخذونه فى الوسعاية أمام دكان "عمير" المطل على ساحة السوق والذى تظلله الشجرة الكبيرة ذات الزهور الصفراء التى تشبه زغب الكتاكيت، يكنسون مساحة كبيرة من الأرض ويرشونها بالماء ثم يفرشون الحصر بجوار حائط الدكان ويضعون فوقها الفرشة والقرمة والميزان الكبير ويعلقون الكلوبات ذات الرتينة على أفرع الشجرة وفى عروق الخشب البارزة من سقف الدكان بعد أن يربطوها بإحكام بحبال الليف ويدقون الأوتاد الكبيرة فى الحفر العميقة التى حفرها الشباب بالأرض حتى تتحمل الأوتاد ثقل الحيوانات التى ستعلق عليها.

فى أول الليل، يبدأ هاشم بذبح القعود (الجمل الصغير) الذى يحتاج لمجهود أكبر من غيره فتجهيزه للذبح يتطلب صبرا وأناة ومسايسة

حتى لايهيج الجمل وينفلت جاريا محطما كل مايقابله، لذا كان يفضل البدء به وهو مازال بكامل طاقته ونشاطه ثم يليه العجل الذى كان عريسا منذ سويعات قليلة وأحيانا كان هاشم يذبح جديا أو خروفا للزبائن الذين لايحبون لحم الجاموس والجمال، حتى إذا شقشق نور الفجر ليوم عرفة، تكون الذبائح معلقة نظيفة وجاهزة للتقسيم والتقطيع والبيع الذى يستمر طوال النهار.

فى أواخر الليل يرسل هاشم مساعديه بالطسوت التى وضع فيها المعاش والرؤوس إلى البيت حيث ترصها آمنة فى منتصف الحوش بجوار الكانون المشتعل لتسخين المياه اللازمة للتنظيف لتبدأ فى تنظيفها واحدًا تلو الآخر على ضوء الكلوبات بمساعدة بعض النساء الصغيرات من أقارب زوجها اللاتى كن يحببنها ويعتبرنها أختا كبرى يتعلمن منها أصول الصنعة وواجبات المرأة فى مساعدة رجلها.

تحتفظ آمنة بلحم الرأس واللسان والمخ والطحال والكبد لتطبخها لزوجها وأصدقائه المقربين لفطور يوم العيد، أما المعاش فقد كانت ترسل بعضه مع قليل من اللحم هدية لأهلها فى الشويخات بعد استئذان زوجها وكانت تبيع بقيته لزبائنها الذين تشجعهم مهارتها فى تنظيفه على شرائه، وكان زوجها يترك لها ثمنه القليل كى تشترى الأشياء البسيطة التى ترغب فيها مما تحتاجه النساء فى العيد.

عندما ينتهى هاشم من مهمته، يأمر أبناءه بتنظيف المكان وغسل القرمة والسكاكين والسواطير ولم الفرشة والأوتاد وإعادتها للبيت حيث توضع فى ركنها المعتاد بالحوش ويعود هو للبيت حيث

تكون آمنة قد انتهت من عملها وسخنت الماء وجهزت له ولولديها ملابس نظيفة ليستحموا. بعد الحمام يجلس هاشم فى السقيفة وحوله أبناؤه ليتناولوا فطورا خفيفا ويوزع عليهم العيدية ثم يصعد إلى غرفته لينام حتى قبيل آذان الظهر وعندما ينتهى من صلاة الظهر تكون آمنة قد وضعت الفطور على الطبلية فيرسل ولده عبد الله أو أبو بكر أو كليهما لبيت عمهما "أحمد" إذا كان بالبلد وبيوت أبناء عمومته القريبين ليبلغاهم أنه بانتظارهم على الفطور.

- كل سنة وإنت طيب يا عمى، أبويا مستنيك تفطر معاه.

يلقى الولد جملته عند الباب ويجرى للبيت التالى لينتهى من المهمة الثقيلة ويعود لأصحابه ليكمل معهم الإحتفال بالعيد.

إعتاد هاشم فى السنوات السابقة قبل كثرة العيال أن يستيقظ مبكرا فى اليوم التالى ليوم العيد ويوقظ ولده محمد فينسلان بهدوء إلى الحوش ليذبحا الخروف الذى يكون قد أبقياه للأضحية. كان يحرص على إتباع تلك السنة شكرا لله على الرزق الوفير الذى يكسبه فى الموسم ولكى يدخل الفرحة على البيوت الفقيرة من أولاد مرعى التى تمر عليها الأيام والأسابيع دون أن توقد كانونا للطبخ. كان أصحاب تلك البيوت أقاربه من بعيد، رجال عجائز يتغرب أولادهم فى البلاد بحثا عن الرزق، ونساء عجائز يقمن بمفردهن بعد رحيل الرجال وسفر الأولاد والبنات للعمل والزواج، وأرامل مات أزواجهن وتركوا لهن أطفالا صغارا يكابدون مشقة الحياة وضنك العيش، كان هاشم يخص صديقة امرأته بلفة كبيرة من اللحم وتكون آمنة قد خصصت لها

جزءا من المعاش بعد أن نظفته وجعلته جاهزا للطهى، كان هاشم يجهز لفائف اللحم بعدد البيوت ويكلف أولاده بتوزيعها عليها موصيا إياهم أن يبلغوا أصحابها السلام والتهنئة بالعيد ثم يعود لغرفته ليريح بدنه المجهد، بعد أن يصعد هاشم لغرفته تنطلق آمنة بهديتها إلى بيت صديقتها "مريدة" بأولاد مالك والتى كانت تعيش وحدها بعد أن مات الزوج وتوزع الأولاد والبنات فى البلاد ولم تعد تملك من الدنيا سوى جاموسة تصنع من لبنها جبنا تحيا بالملاليم التى تبيعه بها لأهل البلد وكانت تجامل آمنة كل فترة بإرسال "ختى" الجاموسة (الجلة) الذى تستخدمه فى وقيد الفرن وتصنع منه "الدوار" (الأقراص التى تقرص عليها العجين). فى السنوات الأخيرة أجبرته أعباؤه وزيادة مصاريف البيت وتربية الأولاد أن يتوقف عن تلك العادة فإذا خطرت على باله كان يتمتم فى نفسه "لايكلف الله نفسا إلا وسعها".

3

كان هاشم رجلا طيبا وعطوفا، جادا وصارما. تعرف آمنة أنه رغم الصرامة التى تكسو ملامحه فإنه يملك قلبا رقيقا يسع الناس جميعا وأنه يحب أولاده ويتمنى أن يضع الدنيا بين أيديهم لو يستطيع ورغم ذلك لم يستجب لإلحاح أخيه أحمد أن يترك الجزارة ويلحق به فى العمل بشركة حفر البترول التى تمنحه راتبا يفوق مكسب الجزارة والدكان وتضمن له وضعا مميزا بين ناس المخادمة. سمعت آمنة ذات

مرة حديث الأخوين وهما جالسان فى السقيفة يدخنان الجوزة فى إنتظار الشاى الذى تعده آمنة لهما على الكانون فى الحوش:

- يا هاشم .. أنا كلمت الريس بتاعى عليك ووافق أنك تاجى معاى المرة الجاية.
- يابوى وليه تحمل نفسك جمايل .. ما أنا قولت لك قبل سابق أنا ماعايزش أشتغل الشغلانة دى .. أنا جزار يا أحمد هاعيش وأموت جزار وبعدين ما أنا فتحت الدكان وأهو بيسند برضه.
- ياخوى أنا عايز لك المصلحة، إنت عندك ولاد أكتر منى محتاجين فلوس كتير عشان يتربوا ويتجوزوا وعشان تشبطهم فى شغل البترول والا يعنى كلهم هايطلعوا جزارين وبقالين.
- يا أحمد، الغيب ده بتاع ربنا واللى رايده ربنا هيكون، بكرة ولادى يكونوا أسياد الناس.
- خلاص يا هاشم، ماتزعلش نفسك.

بعد هنيهة صمت، قال أحمد:

- إعمل حسابى فى جدى الدبحة الجاية.
- ليه أمال عندك فرح؟
- لاه، بس عازم ناس من زمايلى اللى نزلوا معايا أجازة ولازم نكرمهم.
- طبعا يا خوى والجدى هدية منى ليك.
- ربنا يخليك يا هاشم بس ماتكلفش نفسك.

كانت آمنة تعرف أنه يعانى من ظروفهم الصعبة ويكافح كى يوفر لأبنائه الحياة التى تجعل رؤوسهم مرفوعة، ولذلك تعجبت من إصراره على رفض فكرة السفر للعمل فى الصحراء. بعد ذهاب أخيه، سألته:

- ليه خزيت (أحرجت) أخوك يا هاشم .. الراجل تمران فيه المعروف وعايز لك الخير.
- عارف يا بوى .. وإنت هتعرفينى أخوى؟
- أمال مالك؟
- يا يامنة أنا كبرت .. لسع (لسه - وأصلها للساعة) هاتعلم صنعة جديدة؟

كان يشعر أن سنه لم يعد مناسبا لبداية جديدة فى صنعة جديدة تحتاج لوقت طويل كى يتعلم أسرارها وربما لا يكون مؤهلا لها من الأساس وهو ليس صغيرا كأخيه حتى يتقبل أن يوجهه أحد أو يأمره وربما يوبخه، فماذا لو لم يوفق، سيكون قد ترك مهنته ونسيه زبائنه وتعودوا على جزارين آخرين، ساعتها سيكون لا طال بلح الشام ولا عنب اليمن. كان معتزا بمهارته فى الجزارة وفهمه فى المواشى على إختلاف أنواعها، يعرف بمجرد أن تقع عينه على البهيمة عمرها ونوع العلف التى تتغذى عليه أو الأرض التى ترعى فيها وتوزيع اللحم والشحم فى بدنها ويحلم أن يدخر مبلغا يكفى لشراء قطعة أرض يقيم فيها حوشا لتربية البهائم وبيعها فى سوق قنا أو دشنا أو البطاطخة أو يأتى الجزارون إلى حوشه للمعاينة والشراء، من تجواله بالأسواق كان يعرف كثيرا من جزارى المنطقة وفيهم من هم أكبر منه سنا وأسبق منه فى الكار، أثناء حديثه معهم يلمح فى عيونهم علامات الإعجاب

بدرايته وتمكنه من الصنعة، كان واثقا أنهم سيكونون زبائنه وأن تجارته ستتسع وربما ينتقل حينئذ إلى قنا ويصير واحدا من أعيانها.

عندما أسر لزوجته بتفاصيل حلمه أكبرته وأدركت أن زوجها يزن الأمور بميزان الذهب وكان أن صار حلمه حلمها فأخذت تدعو الله كل صلاة أن يحقق له مبتغاه من أجل أن يكون سعيدا وحتى ترى أولادها وأحفادها ينعمون فى خيره، غير أنها لم تسترح لمسألة الإنتقال إلى قنا فتحدث نفسها وعلى وجهها إبتسامة حالمة:

- وهى المخادمة عِفشة؟، أهى بلدنا وناسنا واحنا أولى بيها.

كان أحمد يحب أخاه ويعتبره فى مقام والده الراحل رغم أن فارق السن بينهما لم يكن كبيرا. كان أخاه وسنده الوحيد بعد رحيل الوالدين وكان يطمئن بوجوده فى البلد على بيته وأولاده أثناء سفره للعمل فى الصحراء وكان أولاده يحبون عمهم ويذكرونه فى أحاديثهم بإكبار وإحترام وينادونه "أبويا هاشم" كعادة أهل البلد، فالعم والد وأبناء العم أخوة، وبنات العم أخوات إلا من يكون نصيبها الزواج من أحد أبناء أعمامها.

كان أحمد قبل العمل فى البترول يساعد أخاه فى الجزارة لكنه لم يجد نفسه فيها ولم يرغب أن تكون مهنته فأخذ يبحث عن عمل آخر حتى طلب يوما من أخيه أن يعطيه مبلغا ليسافر للقاهرة بحثا عن الرزق، وعندما عاد بعد أسبوعين أبلغه أنه إتفق مع مقاول كان يقيم معه فى اللاكاندة (اللوكاندة) أن يلحقه بالعمل لدى شركة تنقب عن البترول فى صحراء سيناء والبحر الأحمر والصحراء الغربية يقوم المقاول

بتوريد الأنفار لها للقيام بأعمال الحفر والتشوينات وغيرها من أعمال الخدمة وأنه عاد ليجهز نفسه للسفر وسوف يركب من القاهرة أتوبيس الشركة المسافر للصحراء حيث سيبقى هناك ستة أشهر حسب النظام المعمول به.

- على بركة الله ياخوى، ربنا معاك، أنا خابرك (عارفك) راجل.

لم يكن أحد يعرف ماذا يفعل "أحمد أبو زيد" فى الصحراء ولكنه كان يحكى للرجال فى أجازاته التى يقضيها بالبلد أنه يعمل فى البريمة (الحفار) وهى آلة ضخمة جدا لها فتحة فى منتصفها عليها كلابات يلقمونها بالمواسير واحدة وراء الأخرى حيث تتصل الكلابات بماكينة تقوم بتدوير المواسير ودقها بعد أن يركب على أول ماسورة من أسفل دقاق من الحديد ينتهى بشفرات حادة وصلبة تدقه البريمة حتى تفتح فتحة فى سطح الأرض ثم تحفرها حتى تصل للزيت الخام فى باطنها فيندفع الزيت فى مواسير الحفر ومنها لمواسير أخرى تنقله للخزانات حتى تأتى السيارات ذات الفناطيس لنقله للمدينة.

بدأ أحمد العمل ضمن عمال المقاول، كانوا يحفرون الأرض وينقلون المعدات وينظفونها ويشحمونها ويساعدون عمال الشركة فى أداء مهماتهم ويعودون فى نهاية الوردية مهدودين، ومع الوقت لاحظ عمال الشركة تميزه عن أقرانه وسرعة فهمه لتفاصيل العمل وكذلك أعجبتهم أخلاقه والتزامه وأمانته وتعففه فسعوا عند رؤسائهم لتعيينه فى الشركة.

بعد عدة أشهر، عين أحمد فى الشركة وصارت له ماهية شهرية (راتب) وصار ينزل أجازة كل ثلاثة أشهر فتحسنت أحواله واستقرت نفسه فقرر أن يبنى بيتا ليكمل نصف دينه ويترك بيت الوالد الذى كان يقيم فيه مع أخيه وينعم فيه برعاية آمنة التى كانت بمثابة أخته التى لم تنجبها أمه. تزوج أحمد ومع مرور الأيام وتوالى الأجازات صار الناس ينادونه "الريس أحمد" ورزقه الله بأولاده "حميدة" و"أبو زيد" و"زينب" الذين كانوا يأتون لبيت عمهم ليلعبوا مع أولاده أو يشاكسوا البهائم المربوطة فى الحوش.

لم يمنع الزواج والأولاد أحمد من التفكير فى أحوال شقيقه وأولاده. كان يعرف أن أخاه يعانى فى تصريف أمور حياته. يمضى عند ذهابه للصحراء وعودته منها أياما أو ساعات فى "السويس" أو"أسيوط" أو"القاهرة" حسب موقع الصحراء التى تعمل فيها البريمة ويعرف بندر قنا المدينة التى تتبعها بلده فى زياراته لزملائه المقيمين بها والذين دخل بيوتهم وتعرف على أهلها من الرجال وأكل معهم على موائدهم ما جعله يدرك الفرق بين حياتهم الجافة وحياة الناس هناك. كانت الأماكن التى يرتادها وأمثاله فى تلك المدن فقيرة أيضا وليست كتلك الأماكن الراقية الغنية التى يمر عليها مرورا عابرا بدافع الفضول، لكن فقر بلده وأشباهها من القرى كان فقرا مؤلما يتخلل كل تفاصيل حياتهم كما يتخلل برد طوبة تلافيف العظام.

فى إحدى أجازاته، أرسل أحمد ولده أبو زيد إلى بيت عمه ليخبر "محمد هاشم" أن أباه أحمد يريده:

- يا محمد، إنت دلوقيتى بقيت راجل وآن الأوان تشتغل وتساعد أبوك.
- ما أنا بساعده يابا أحمد فى الدبح وفى الدكان.
- أنا عارف يا وليدى، بس أبوك حاله ضاق ومحتاج مساعدة أكبر.
- اللى تشوفه ياعمى .. بس هاشتغل إيه؟ .. ومين اللى هيقف جنبه فى شغله.
- أخوك محمود يقدر يحل بكانك (مكانك) وأخوك عبد الله يحل بكانه وإنت هتكون معاهم فى الأجازات.
- بس عبد الله لسع صغير.
- صغير بس ماشاء الله طالع من يومه نبيه وجزار عقر، حضر حالك وقول لأمك تجهز لك زوادة تاخدها معاك وأنا هاكلم أبوك إنك تاجى معاى وماظنيش يمانع.
- وهاتسافر ميتى ياعمى؟
- زى النهارده بعد سبوع.

لم تنقطع دموع آمنة طوال الأسبوع الذى سبق سفر ولدها محمد الذى سيترك حضنها لأول مرة فى حياته. كان محمد "بكريها" وأول فرحتها. عندما شعرت به داخل حشاها أدركت لأول مرة معنى أن تكون إمرأة هى التى تزوجت ولما تزل طفلة تلهو، وأنها عما قريب ستدق أول الأوتاد التى سوف تثبتها فى الأرض، كانت تدرك على نحو غامض أن ما بداخلها ذكر وأن الله سيستجيب لها ويجعل كل خلفتها من الذكور، كانت تحلم أن تنجب أولادا كثيرين ليكونوا عزوة

لهاشم الذى لم يرزقه الله سوى بأخ واحد، وحتى يتشرف بهم وسط الناس ويقوى بهم على ملمات الزمان.

لكن طاقة نور أشرقت داخل كهف حزنها على فراقه، فكرت أن العمل فى الشركة سوف يجعل منه رجلا محترما بين الناس الذين كانت تسمعهم وهم يتحدثون عن شقيق زوجها بإكبار واحترام ويلمحون إلى قدرته المالية والأشياء التى يجلبها لزوجته وأولاده من "مصر" (القاهرة) والسويس وأن ولدها البكرى سيكون سندا لأبيه فى تربية إخوته وسد إحتياجاتهم حتى لا ينظروا إلى ما بيد الناس. تسللت إليها الفرحة بين دموعها فأخذت تجهز له الزوادة وتدعو له فى سرها وهى توقن أن الله لن يسيئها فى ولدها الطيب الحنون الذى لم يترك فريضة ولم يقترف حراما.

نامت ليلتها وقد جهزت طحين القيضى (الذرة العويجة)، فى الصباح أوقدت الفرن وخبزت له أرغفة البتاو ليتقوت بها فى غيابه الطويل وأعدت له شوال عدس وشوال فول وعلاوة مش أخرجتها من ظلام الحاصل وبعض فحول البصل وصرت له الملوخية الناشفة فى قطعة قماش. يوم السفر إستيقظ الجميع قبيل الفجر وحمل إخوة المسافر الزوادة إلى طريق الحلزونة. حضنت آمنة وليدها وهى تمسح دموعها التى سالت بطرف طرحتها:

- مع السلامة يا وليدى، خللى بالك من نفسك .. ربنا يكفيك شر ولاد الحرام.

كان محمد يعرف ماذا تقصد، فقد ظلت توصيه الأيام الماضية ألا يقرب حراما وأن يحافظ على صلاته وألا يدخن سيجارة أو كرسى معسل وكان يرد عليها:

- إطمنى يامه .. أنا راجل وعارف مصلحتى.

كان رجلها الصغير ابن ستة عشر حولا ولم يكن شاربه قد خط فى وجهه بعد لكن نظرة التصميم فى عينيه كانت نظرة رجل قرر أن يواجه الحياة دون هزل.

استقل محمد مع عمه الحلزونة بعد أن نفحه أبوه بعض القروش حتى يتدبر حاله، وودعه:

- ربنا يجيبك بالسلامة يا ولدى .. خللى بالك من نفسك واسمع كلام عمك .. مش هتسلم على إخواتك؟.

سلم على إخوته محمود وعبد الله وأبو بكر وقال موجها نظرته إلى محمود:

- خللى بالك من إخواتك.

فى طريق العودة، كان هاشم شاردا وفى قلبه خفقة أخذ يتشاغل عنها بضرب عصاه فى الأرض على وقع خطواته مثيرا فى كل ضربة زوبعة صغيرة من التراب بينما ينظر خلفه كل فترة زاعقا:

- حد (مد) يا واد منك ليه الدنيا بقت ضهر.

4

ليلة عاد من الشويخات مبللا بالمطر، أيقظها برفق وطلب منها أن توقد الكانون لتعد له كوب شاى بالليمون لشعوره بأعراض نزلة برد بسبب الهواء البارد الذى ظل يضرب ثيابه المبتلة طوال الطريق. عندما غادرت فراشها تمدد مكانها ليتدفأ من الحرارة التى بعثها جسمها فى الفراش، أحضرت له من صندوق الملابس جلبابا ثقيلا وغيارا داخليا نظيفا وأخرجت من تحت السرير بطانية لم يكن أوانها قد حان بعد، خلعت عنه ملابسه المبتلة والمتسخة من وحل الطريق وألبسته الملابس النظيفة ثم غطته وأخذت تتمتم بآيات القرآن التى أسعفتها بها الذاكرة.

غرفة نومهما فى الطابق الثانى للمنزل الذى يحوى غرفتين أخريين، ينام الكبار محمد ومحمود وعبد الله فى واحدة وفى الأخرى ينام الصغار أبو بكر وحسين وخديجة وعبد الرحيم. الطابق الأرضى يحتوى على السقيفة (صالة البيت) والحاصل (غرفة تخزين الطعام) والحوش الذى يقع فى ركن منه محل الأدب (الحمام) ويقبع الكانون والفرن فى الركن المقابل وتشغل بقية مساحته الغرفة التى كانوا يستخدمونها فى السابق مخزنا لعدة الجزارة ثم تحولت بعد ذلك إلى دكان، ويصل ما بين الطابقين سلم مبنى من عروق الخشب المكسو بالطين المخلوط بالتبن.

بعد أن مَنَّ الله على هاشم وآمنة بالولدين الأولين، أدركت آمنة بحدسها أن الله قد استجاب لدعائها وأنها ستنجب لزوجها ذرية من الذكور كما حلمت فشكرت ربها على نعمته وأحست بالرضا عن حياتها، غير أن قلة الرزق كانت تذهب بظنونها السيئة بعيدا، فماذا

لو رزقها الله بالأولاد والحال كما هى إذ يعمل زوجها يوما يتوزع مكسبه على أيام الأسبوع ما يكفى بالكاد لسد احتياجات حياتهم الضرورية وهم أربعة، فماذا ستفعل إذا صاروا سبعة أو عشرة وماذا ستفعل إذا رزقها الله بالبنات .. هل تملك أن ترد مشيئته؟ ألن تحتاج البنات إلى مال كثير عندما يحين أوان تجهيزهن للزواج، والأولاد .. ألن يحتاجوا لمصاريف حتى يسافروا هنا وهناك للبحث عن الرزق حتى يجدوه .. هل تحبل وتلد المرة تلو المرة ذرية هاشم حتى يرفع رأسه بين الناس أم لتجلب له العار وكسرة النفس إذا وجد نفسه لا يقدر أن يصون كرامة أبنائه؟. عندما كان يرميها تفكيرها على هذه الضفاف البعيدة كانت تشهق وتستعيذ بالله من شيطانها وتقول لنفسها أن الله ينزل الحى ورزقه معه ثم تراجع نفسها بأن الله يقول "إسعى يا عبد وأنا أسعى معاك".

فاجأت آمنة زوجها ذات يوم بقولها:

- إيه رأيك يا ود عمى نحط عدة الجزارة فى الحوش ونفضى الأوضة.
- وعايزة تفضيها ليه؟
- إيه قولك نعملها دكان؟

فهم هاشم مقصدها وأعجبته فكرتها، كانت الجزارة لا تستغرق من وقته سوى يومين فى الأسبوع، يوم لشراء البهيمة ويوم للذبح وبقية الأسبوع يقضيه فى الجلوس مع الرجال والكلام المكرر ولعب السيجة. كان ضيق الحال قد أهمه وجعله يقلب فكره فى الحلول التى قد

تساعده فى زيادة دخله وراودته أحيانا الاستجابة لفكرة أخيه فى السفر للعمل فى الصحراء والتخلى عن حلمه فى تربية المواشى والتجارة فيها ولكن فكرة فتح دكان لم تأت على باله من قبل.

بعد فترة صمت، أجابها:

- فكرة زينة والله، خلاص بعد الدبحة الجاية هاجيب البنا والنجار.

جاء البنا مبكرا فنظف الأرض أمام باب البيت وجاء بالطين والتبن فخلطهما بالماء ووزع الخليط على القوالب الخشبية المفرغة وتركها فى الشمس لتجف فتصير طوبا. فى الصباح التالى، إطمئن البنا على جفاف الطوب فنزع القوالب الخشبية ونقل الطوب إلى داخل البيت وقام بسد باب الغرفة به ثم فتح فتحة فى جدار الغرفة المطل على الشارع وسوى جوانبها ليبدأ النجار فى عمله.

جاء النجار بالباب الخشبى ذى الضلفتين وقام بتركيبه على الفتحة فاستقلت الغرفة عن البيت وصارت دكانا. جهز النجار الأرفف الخشبية وثبتها فى الجدران وصنع البنك من قطعة مستطيلة من الخشب ثبتها فى الجدار فى مدخل الدكان بالمفصلات حتى تسمح بالدخول للدكان والخروج منه.

فى اليوم التالى سافر هاشم إلى قنا بالحلزونة وعاد آخر النهار بكراتين البضاعة حيث أنزلها على جانب الطريق. كان أولاده الثلاثة الكبار فى إنتظاره فحمل كل منهم ما استطاع أن يحمله وانتظر أبوهم بجوار باقى البضاعة حتى عادوا وأخذوه. فى الصباح التالى رص هاشم

بضاعته بمساعدة أولاده وعرف الناس منذ ذلك الوقت دكان هاشم أبو زيد.

سارت أحوال الدكان سيرًا حسنًا وتحسنت أحوال الأسرة قليلا وشعرت آمنة ببعض الأمان فأخذت ترسل أبناءها كلما بلغ أحدهم السن المناسبة إلى الكتاب ليتعلموا القراءة والكتابة ويحفظوا ما تيسر من القرآن حتى إذا كبر أحدهم أخرجته من الكتاب ليحل من يليه بدلا منه.



هبطت آمنة درجات السلم والقلق يعتصر قلبها بينما تتشكل فى عينيها بوادر دموع جاهدتها كى لاتفيض.

كانت على يقين أن مايعانيه زوجها أخطر من مجرد نزلة برد، ربما يكون التغير المفاجئ فى الجو الذى بدأ مع مغيب الشمس وكان الوقت فى شهر سبتمبر، والجلباب الخفيف الذى كان يرتديه فى مشواره قد ساعدا فى تعرضه للإصابة ولكنها كانت تدرك أن زوجها فى الآونة الأخيرة كان يزوى، كان هاشم نحيلا بطبيعته لكنه ازداد نحولا فى الأشهر الأخيرة وازدادت بشرته سمرة وكان دائم السعال خاصة وقت استيقاظه من النوم ما جعلها تلح عليه أن يتوقف عن الجوزة التى يدخنها مع أصدقائه تحت اللبخة فى ليالى الصيف أو فى الديوان فى الشتاء. كان يهون عليها الأمر ويطلب منها أن تغلى له "اليسون" (الينسون) حتى يرتاح صدره من الحشرجة والسعال.

فى هذا الزمن المبكر، لم يكن فى المخادمة أو فى القرى القريبة منها طبيب أو وحدة صحية حتى تعرف علته ويعالجه الأطباء أو يطمأنوها أن صحته بخير وأن الأمر لا يعدو التعب من المشاوير واستنشاق التراب فى الطرق كما يردد على مسامعها كلما طلبت منه الذهاب إلى قنا كى يكشف عليه الطبيب.

زمنها، لم يكن الطريق إلى المدينة ممهدا للسيارات ولم يكن أحد من أهل البلد يسافر إليها إلا لأمر جلل وغالبا على ظهر حمار عفى مجهز ببردعة محشوة بالقش حتى لا يصاب المسافر بغضروف الظهر بفعل الطريق الطويل الوعر الذى يبلغ بضعة كيلو مترات. كانوا إذا اقتضت الضرورة يستخدمون الحلزونة التى تأتى من قنا مرتين فى الأسبوع وتمر على الطريق خارج البلد حيث تتوقف فى الذهاب والعودة فى مواعيد غير منتظمة أمام كل قرية من القرى الواقعة على جانبى الطريق ولم يكن القطار -الذى يمر على السكة الحديد الموازية للطريق والقادم من القاهرة أو الذاهب إليها- يتوقف أمام قراهم التى تبدو فى رحلته الطويلة كنقاط صغيرة لا تستحق اهتمامه.

ألحت عليه كثيرا أن تصحبه فى السفر بالحلزونة إلى قنا لكنه كان يطمأنها أن الأمر لا يستحق وعندما كانت تزيد من إلحاحها عليه ويختنق صوتها بالرجاء كان يشيح بيده قائلا:

- خلاص يا يامنة المرة الجاية نروح.

لكن المرة الجاية لم تجئ، بل جاء نذير الشؤم الذى جعل عينها ترف فتردد:

- اللهم اجعله خير، يارب اكفينا الشر وابعد عنينا (عنا) غفلات الزمان.

على الضوء الخافت الذى تبعثه اللمبة نمرة خمسة أوقدت الكانون ووضعت عليه غلاى الشاى وجلست تنتظر غليانه بينما تتناوشها الهواجس والظنون فتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم الذى لم تتركها وساوسه منذ خرج زوجها هذا النهار متجها للشويخات. صبت كوب الشاى وعصرت عليه ليمونتين كبيرتين وصعدت إليه، كان يرتجف وكانت عيناه مغلقتين والعرق يبلل جبهته ووجهه وعنقه، أحضرت قماشة نظيفة وأخذت تجففه وهى تقرأ المعوذتين وعندما فتح عينيه ابتسمت له ابتسامة إغتصبتها من بين هواجسها وأسندت رأسه ليتمكن من رشف الشاى. أخذه النوم وهو لم يكمل كوب الشاى بعد فحمدت الله وجلست بجواره على السرير تتلمس جبهته كل حين وقد هيأ لها وسن النوم الذى أخذ يخايلها أن حرارة جسده قد همدت فأسلمت نفسها لسلطانه على جسدها المكدود.

5

أنا باوحد اللى خلق الناس

خلق مسلمين ونصارى

ناس نايمة على فرش (منعمون) وناس

ناس على المعايش حيارى

خشب المراكب من السنط

في البحر ياخد مهاجه (طريقه)
واجب ع الحر يلزم الصمت
لما الندل ياخد مهاجه

ما تقولش للندل يا عم
ولو كان ع السرج راكب
ولا حد خالى من الهم
حتى قلوع المراكب

لو شفتوا اللى جرى ف زمانا
عملوها ولد الفواتى (الغوانى)
كلام العوازل زاملنا (صاحبنا أو انتشر بيننا)
واهو سبع الرجال جر واطى (لان وتنازل، على غرار التعبير العامى "جر ناعم")

زمانك زمان الكلوبات
والقطر ع السكة ماشى
أنا شفت ولاد العزبات (اللاتى بلا أزواج)
فى الضلة فاردة الشماشى (الشماسى)

زمانك زمان الكلوبات
لمض الصفيح بطلوها
أنا شفت الفرخ اللى بلا أبات (أبناء الزنى لا يعرف لهم آباء)
اليوم بتحلف بأبوها

جلس الرجال من أولاد مرعى على الدكك الخشبية فى ساحة ديوانهم يستمعون إلى مواويل شاعر الربابة وقد تملكهم الوجد. كانت كلمات الشاعر وصوته الأجش الذى تصاحبه الموسيقى البدائية لربابته تعود بهم إلى زمن مجد الأجداد وتجعلهم يمصمصون شفاههم أو يهتفون "اللااااه .. يابووووى" عندما تمس الكلمات جرحهم الدفين فتأتى على سيرة غدر الزمان ومناكدة الدنيا للحر ابن الأصول وذل الأيام للسادة وصعود نجم (ولد الفواتى) الذين لا أصل لهم ولا نسب.

جلس هاشم فى الدكة الأخيرة الأقرب لمدخل الديوان، مضطجعا بسبب المرض الذى ألم به، ملتحفا عباءته الصوف ومعتمرا عمته البيضاء وجلس تحته على الأرض ولداه محمود وعبد الله مستندين على دكته وقد بهرتهما أجواء الحياة التى سرت فى الديوان وقد كانوا منذ رمضان الماضى يجدونه فى غدوهم ورواحهم صامتا مهجورا، وحتى فى رمضان لم يكن الديوان يشهد مثل هذه الحركة وهذا الإنتشاء الذى يغمر أعمامهم الذين إرتدى كل منهم الجلباب الصوف والعباءة المخصصين للسفر أو حضور الأفراح وليالى العزاء أو مقابلة الأعيان فى زياراتهم النادرة للبلد. كان بعض أولاد عمومة هاشم أثناء زيارتهم له للإطمئنان عليه، قد شجعوه على حضور "الليلة" حتى يتسرى معهم من الهم والمرض وقد كانوا يعرفون عنه حبه للمواويل وولعه بالسيرة الهلالية وشعرائها.

الديوان هو بيتهم الكبير، يستقبلون فيه ضيوفهم من أبناء العائلات والبلاد الأخرى ويقيمون فيه ليالى العزاء لمن مات منهم ويحيون فيه ليالى رمضان باستقدام "المقرئ" من قنا ليقرأ ما تيسر من أرباع القرآن،

ويجتمعون فيه ليتدارسوا خطبا أو أمرا جللا يتعلق بالعائلة الكبيرة ألمَّ بها، وكانوا يقيمون فيه ليالى الشاعر من وقت لآخر بعد أن يلقى أحدهم بالفكرة عرضا على أسماع الرجال فى حلقات المسامرة أمام دكان عمير أو فى وسعاية السوق، فيتحمس لها بعضهم ويقنعون رجال الربع ثم يرتبون للتنفيذ، يذهب منهم اثنان أو ثلاثة ممن لهم دراية بقنا ومعرفة بأساليب الإتفاق والفصال ليلتقوا الشعراء فى مقهاهم بقنا ليتفقوا مع أحدهم بعد أن ينفحوه عربون الليلة ويحددون له اليوم.

كان لكل ربع من أرباع المخادمة ديوانه الذى يقع بين بيوت عائلاته، فقد كان لجدهم الذى ينتسبون إليه الشريف "مخدم بن بوير بن هاشم بن مهنا بن جمال الدين جماز" خمسة أبناء تقيم ذرية أربعة منهم فى المخادمة وتقيم ذرية الإبن الخامس فى قرية الشيخ عيسى المتاخمة للمخادمة من ناحية الجنوب. كانت الأرباع تتراص طوليا على الطريق الرئيسى الذى يربط البلد من شمالها لجنوبها، أولاد مالك من الشمال ثم أولاد مرعى فأولاد شاهين وأخيرا أولاد غيث الله الذى يسمى موقع ربعهم عزبة قديس وتقع على بعد خطوات من الشيخ عيسى حيث يقيم أولاد "على"، وتتفرع من تلك الأرباع البيوت التى تمثل العائلات المنتمية لكل ربع، وكان لكل ربع جامع يؤم الناس فيه إمام من أهل الربع إذا كان بينهم من تتوافر فيه شروط الإمامة وأولها حفظ قدر معتبر من القرآن والبخارى فضلا عن حسن الخلق والحكمة والميل إلى المسالمة، فإن لم يتوفر يستطيع العمدة أن يتقدم – إذا طلب منه كبار الربع– بطلب رسمى لإدارة الدعوة بمديرية الأوقاف بقنا لتعيين واعظ مقيم.

كان لهم نظام صارم يسمونه "الطبلية" يحدد دور كل بيت من بيوت الربع فى إعداد الطعام اللازم لعشاء الرجال المحتشدين بالديوان فى المناسبات المختلفة، يمضى شباب البيت الذى حل دوره ورجاله الذين مازالوا يدورون فى فلك الشباب فى فوج واحد حاملين الصوانى الكبيرة وقد رصت فوقها أطباق الطعام الذى أعدته أمهاتهم وزوجاتهم فى بيوتهن فيضعونها فوق الطبالى المرصوصة فى ساحة الديوان وكانت كميات الطعام وخاصة اللحم هى مناط التنافس والتفاخر بينهم والذى يبلغ مداه لدى البيت الذى تحوى طبليته صنفا جديدا أو نوعا من الطعام مطبوخا بطريقة تختلف عما ألفوه عبر السنين دليلا على أن ذلك البيت يضم واحدة من بنات الأشراف المقيمين فى المدينة إرتضت -وهى بنت المدينة- الزواج من أحد أبنائه، غير أن الصنف الشائع فى تلك الموائد كان "الدشيشة" والذى كان عبارة عن القمح المدشوش مطهيا فى السليقة (شوربة اللحم).

بعد أن فرغوا من العشاء استأنف الشاعر غناءه الحزين:

دنيا ردية ورابضة للأصيل على طول
ومقدمة الندل ماشية مع الردى على طول
وإن صفيت للخصم ساعة لكن الحبيب على طول

كداب ياللى تقول الدنيا دايمالى
أنا أبكى على الحى ولا أبكى على اللى مات
أنا بابكى على راجل كان سجرة (شجرة) على اللمات
الندل عايش على الدنيا كد (قد) ماعاش كأنه مات
السبع لو مات هتفضل ذكرته على طول

زلزلته الكلمات والنغم الموجع للربابة، أغمض عينيه وأمال رأسه للخلف ولم يعد يشعر بما حوله ومن حوله، مرت حياته فى مشاهد سريعة على صفحة ذاكرته فتهادت دموعه ساخنة على وجنتيه، أحس أن دموعه تصالحه على نفسه وتبث فيها الطمأنينة والرضى بمصيره، ولم تعد تلك الدنيا التى يحكى عنها الشاعر تلزمه فى شيء، غير أنه تذكر امرأته وعياله ففاق من سرحته وأخذ يتحسس رأسى ولديه المستندتين إلى دكته ويستمد من دفئهما الأمل أن ستكون له معها تلك الغانية التى "تمشى مع الردى على طول" جولات أخرى وأنه غالبها.

عاود الشاعر نكأ الجراح:

إذا هفك الشوق روح ع القبر واطلّع (أنظر)

وإذا ضاق بك الحال شوف الناس واطلّع (تأمل)

تلقى الأسودة (الأسود) رمم والعضم مطلّع (ناظر)

أمانة ياقبر أوعى يكون فيك حصى ولا طوب

جاييلك ولد زين من ميلة الزمان معطوب

وفضلت معطوب عليا الخصم يطلّع (ينظر)

انهمرت دموع هاشم وانمحت لمحة الأمل التى داعبت خياله للحظات إذ أدرك على نحو غامض أن هذه الكلمات هى إشارة موته أنطق الله بها فم الشاعر وأنه لن يكتب له قضاء مثل هذه الليلة مرة أخرى وأن جولاته مع الدنيا قد انتهت ولم يعد ثمة مزيد، سرح هاشم فى مصير زوجته وأولاده من بعده وأحس أن قلبه يعتصر حزنا على نفسه وألما على مصير صغاره مع تقلب الأيام فزفر زفرة حارة لفتت إنتباه من حوله فانطلقت أصواتهم:

- صلى على النبى ياود عمى.
- فرجه قريب يا باخوه (يا أخى).

عندما عاد من الليلة، تملكته رجفة شديدة كانت قد خفت حدتها فى الأيام الماضية، فبعد تلك الليلة التى بدأ فيها مرضه كانت حرارة جسده ترتفع وتنخفض وكان جسده آخذا فى الهزال.

استدعت آمنة كل خبراتها فى التداوى التى تعلمتها من جدتها وأمها أو تلك التى اكتسبتها بالممارسة وكان الناس يعرفونها فيها فيلجأون إليها عندما يشتكون من أعراض المرض أو الكسور وآلام الرقبة ويشعرون بالتحسن بعد أن تصف لهم وصفات العلاج أو تصنع لهم جبيرة من جريد النخل أو تمرسهم (تمرر أصابعها فى مواضع معينة من عظم الرقبة)، لكن كل حيلها لم تجد مع زوجها الذى ركب رأسه ورفض الذهاب إلى الطبيب فى قنا.

إعتادت يوم الجمعة أن "تُسبِّح" (تحمم) أطفالها الصغار، فالكبار يحممون أنفسهم فى الحوش، ويلبس الجميع الجلابيب النظيفة استعدادا للصلاة فى جامع أولاد مرعى. كانت قبل ذهابهم توقد الفحم فى المنقد وتضع فوقه البخور الذى تشتريه من السوق وتحرص أن يحتوى على "عين العفريت" (كرات صغيرة جدا حمراء اللون منقطة بالسواد) ومع البخور كانت تضع قطعة صغيرة من شحم الماعز، يقفون فى طابور ويعرض من يحين دوره نفسه لدخان البخور فتأمره أن يُخطِّى على المنقد المتقد حتى يتخلل الدخان بين ساقيه وكأنها ترقى مواضع الذكورة فيهم من الحسد بعد أن رقت الجسد كله وهى تمتمتم بآيات القرآن والدعاء،

بعدها كانت تحمل المنقد إلى حيث زوجها فتدور به حوله بينما شفتاها لا تكفان عن التمتمة.

عندما رقد زوجها رقدة المرض، كانت تبخرهم فى الحوش حتى لا يضر الدخان صدر المريض وبعد أن تنتهى كانت تضع يديها فى الدخان وكأنها تقبض بعضا منه ثم تذهب لتملس على جسد هاشم وتمسد شعره.

فرشت له الدكة التى بالسقيفة بالكليم الصوف كى يضطجع عليها ويستقبل الناس الذين توافدوا ليطمئنوا عليه وكان بعض أولاد عمه من أولاد مرعى يطيلون المكوث لديه يتبادلون معه الأحاديث المعتادة ويوصونه بالصبر على إبتلاء الله مذكرينه بصبر أيوب الذى عرفوا تفاصيل قصته من شعراء الربابة، بينما هى ترعى شيءون بيتها وأطفالها وتصيخ بسمعها تجاهه لتلبى نداءه إذا إحتاجها، كانت تتمنى أن يكون ولدها محمد معها لتتسند عليه فى محنتها لكنه كان بعيدا هناك فى الجبل (يقصد به الصحراء).

حدثها قلبها أن زوجها لن يتعافى وأن هذه هى النهاية، كانت تعرف الموت إذا حام حولها وتأتيها إشاراته وتشم رائحته.

تنداح عليها ذكرياتها معه وهى تجلس بجواره على أرض السقيفة بعد أن يكون الأولاد قد أغلقوا الدكان وسلموها الإيراد وناموا، ويكون هو متأرجحا بين الغفلة والصحو، تتذكر -ودموعها لا تكف- أيام أن جاء هو وأهله ليخطبوها وأيام زواجهما الأولى وصبره على خجلها من عريهما فى غرفة نومهما وأيام ولادتها لأبنائها واحدا

تلو الآخر، لكن ذكرى وحيدة كانت تجاهد دون جدوى- رغم مرور السنين- ألا تمر على صفحة ذاكرتها.

كانت يومها فى "الواجب"، تجلس فى بيت من بيوت أقارب زوجها تعزى فى وفاة صاحبه والنسوة حولها وبجوارها متشحات بالسواد وقد قسمن أنفسهن إلى حلقات. كن يثرثرن عن الأولاد والبنات وأحوال المعايش عندما نظرت إحداهن إليها وفاجئتها:

- شو حوالك (كيف أحوالك) يا يامنة.
- بخير يا خيتى (أختى)، وإنت عاملة كيا (كيف أنت).
- وشو حوال أبو محمد، هو فى السهرة فى الديوان ولا فى بيته التانى؟

إستجمعت آمنة شتات نفسها وأدركت الفخ:

- أبو محمد ود أصول وأكيد ما يسهاش عن الواجب.

عندما عادت إلى بيتها، ظلت كما هى بجلباب الخروج وألقت "الحبرة" (ملاءة تلبس فوق جلباب الخروج) على دكة السقيفة وجلست تنتظره ورأسها يغلى، عندما سمعت طرقه على الباب فتحت له وقبل أن ينطق بالسلام بادرته:

- إتجوزت عليَّ يا هاشم .. ومن وراي، هى دى عمايل ولاد الأصول؟
- مين اللى قالك؟
- ميهمش مين قاللى، ليه يا هاشم .. مش قادر تصبر عليَّ شهرين تلاتة؟

- أهو اللى حصل يا بت عمى .. وبعدين ده شرع ربنا، إنت خابرانى زين جنى وزاويلى (أخاف) الحرام.
- شرع ربنا ولا هتايك نسوان؟
- عيب يا يامنة اللى بتقوليه ده .. دى مرتى برضه.

لم ترد، صعدت إلى غرفتها بينما نام هو فى السقيفة.

كان ولداها اللذان رزقهما بهما الله قد ورثا بشرة أبيهما السمراء الداكنة، وعندما جاء الثالث أبيض البشرة أخذ عقلها حتى انشغلت به عن سواه، كان البياض فيهم نادرا ندرة الذهب فى عروق الصخر. أسمت الوليد "أحمد" تبركا بإسم النبى جدهم الأعظم، كان الوليد ممتلأ الجسم تنتشر الثنيات فى لحمه الغض، كان شيئا جديدا عليها ونادرا فيما حولها فشعرت بالإمتنان لذلك الجد البعيد الذى لا تعرفه والذى ورث ولدها ذلك البياض الوردى الجميل، فالعرق يمد لسابع جد كما يقولون فى الأمثال. شعرت أن روحا جديدة قد سكنت جسدها وبعد أن تمالكت عافيتها من أثر الولادة وعادت لمهام بيتها المعتادة، فوجئت أن أعمال البيت صارت لا تتعبها هى التى كانت تهد جسدها طوال النهار وتلقيها على الفراش كالغمرانة (المغشى عليها) بعد أن تقاوم شيطانها الذى يوسوس لها أن تنام دون أن تصلى العشاء وكانت تغلبه أحيانا ويغلبها أحيانا أخرى، كان الأمر الوحيد الذى يشعرها بغصة سرعان ما تختفى، هو شعورها بالذنب لأنها لم تحب أحدا من أولادها كما أحبت الوليد الجديد.

عندما مات قبل مرور شهرين على مولده، كان حزنها عليه عظيما قدر فرحتها به. أحست أن الله يعاقبها على مبالغتها فى التعلق به وتفضيلها له على إخوته ولو فى سريرتها. صار لحزنها منبعان، فراقه وغضب الله عليها.

أخذها جب الحزن فى غياباته حتى أهملت نفسها وزوجها وطفليها. كانت تراهم من خلف دموعها أشباحا تتحرك فى الفضاء حولها. جاء هاشم لها بالواعظ الحافظ للقرآن وجاءتها نساء البلد الكبيرات اللاتى يفهمن فى أمور الرقية وصد الحسد واللبس. باءت كل المحاولات معها بالفشل فأخذ الناس يشيعون أنها ممسوسة (مسها الجن). كان هاشم يتألم عندما تصله همهمات الناس وتلميحاتهم عليها. عاد ذات يوم للبيت فى آخر المساء فأمسك يدها وجرها للغرفة وحاول أن يداعبها حتى ترضخ قليلا فلم يجد لديها خلجة تتحرك، كان يظن أن إتصاله الحميم بها ربما يخرجها مما هى فيه، لكنها كانت كصخرة. بعد أن قضى منها وطره غادرت الغرفة وظلت صامتة طوال الأيام التالية حتى أصابه اليأس ما جعله يستجيب لإلحاح بعض ممن حوله أن يتزوج فهو شرع الله خاصة وأنه صبر عليها وأنه رجل لا يقبل الحرام.

فى الصباح التالى لليلة المواجهة، إنتظرت حتى سمعت صرير الباب خلفه فأرسلت محمود إلى نجار البلد بعد أن أوصته ألا يخبر أحدا بوجهته. جاء النجار فصنع لها مزلاجا جديدا للحاصل وصنع له قفلا ومفتاحا.

خرجت من الباب إلى الدكان التى كان زوجها قد ملأها بالبضاعة منذ يومين فأخذت تحمل البضاعة للبيت وترصها فى الحاصل، كانت

البضاعة كثيرة ومتنوعة إذ إجتهد زوجها أن يكون بدكانه ما لا تبيعه الدكاكين الأخرى بالبلد، فغير السلع التى كان الناس يعرفونها كالزيت والشاى والسكر والصابون والجاز جاء هاشم من قنا بقوالب الحلاوة الطحينية وصفائح الجبن الأبيض الاسطنبولى والكلوبات الصغيرة ذات الرتينة والسجائر المكنة وغير ذلك مما يعرفه أهل البنادر. عندما عاد ومر على الدكان لاحظ المزلاج والقفل الجديدين على باب الحاصل فخرج من فوره.

سمعت طرق الباب، فتحت فوجدت أمامها الغفير يطلب منها الذهاب للقاء العمدة.

كان العمدة جالسا على دكة فى باحة بيته وبجواره جلس شيخ البلد، قام الرجلان عندما أقبلت آمنة عليهما وبادرها العمدة:

- مرحب يا بت عمى .. إتفضلى

جلسا وجلست آمنة على الدكة المقابلة لهما، ردت التحية:

- مرحب بيك يا عمدة، خير يا ود عمى.
- خير يا شريفة، أبو محمد إشتكى لى إنك خدتى بضاعة الدكان.
- وفيها إيه يا عمدة، هو بيسّرقنى؟ (هل يتهمنى بالسرقة؟)
- معاذ الله .. دى أنت بت أصول ومن نسل خير الأنام، هو عايز يتفاهم.
- شوف يا عمدة .. البضاعة دى مال عيالى وأنا ماعنديش تفاهم إلا لما ترجع الأمور لأصلها.

- يعنى إيه .. عايزاه يطلقها؟
- ده آخر حديتى يا عمدة، فيه حاجة تانى.
- لا يا يامنة، إتفضلى روحى بيتك، مع السلامة.

بعد أيام عاد إليها:

- أنا طلقتها يا يامنة.
- خير ما عملت .. أحط الطبلية؟

تبدلت آمنة وغلبت حزنها فقد أدركت أن نهر الحياة الهادر لا يوقفه شيء حتى لو كان جبارا كحزنها وأن ماحدث كان إنذارا من ربها ألا تقف فى وجه مشيئته. قررت بعد أن إستوعبت الدرس، أن تمحى تفاصيل تلك الأيام من ذاكرتها -دون أن تنسى إشاراتها- وكأنها لم تعشها وألا تأتى على ذكرها ولو تلميحا أو على سبيل الفكاهة، أقبلت على زوجها كما لم تقبل عليه منذ زواجهما وعندما إستدعت الداية لتؤكد لها ما أحسته بين أحشائها ففعلت، صلت ركعتى شكر لله وتمنت عليه -وهى ترجوه ألا يغضب- أن يرزقها بولد أبيض كالذى راح.

عندما ولدت، حملت الوليد بين يديها والنسوة حولها يهنأنها بالسلامة بعد أن ساعدن الداية فى توليدها، تفرسته قليلا ثم أرقدته بجوارها وبانت على وجهها قسمات الحزن التى أخفتها سريعا وردت على النسوة:

- كتر خيركم يا خياتى، عقبال عوضكم وعوض بناتكم.

كان الولد أسود كالعبيد.

دخل هاشم عليها بعد خروج النسوة، مسح على جبهتها وخدها:

- حمد الله على سلامتك يا بت عمى، هاسميه أحمد عوض عن اللى راح.
- لاه .. عايز تسمى العبد الأسود ده على اسم الواد الأبيض؟

إبتسم هاشم وتركها تستريح.

أعلن هاشم للناس الاسم الذى اختاره لمولوده الجديد أحمد، لكنها أصرت على ألا تناديه به فصارت تناديه عبد الله وأمرت إخوته أن ينادوه مثلها حتى نسى الناس مع الوقت إسمه الحقيقى وصار بينهم "عبد الله هاشم أبو زيد".

كبر عبد الله فعلمها الله على يديه -هو الصبى الذى لايدرك من أمورها مع الله شيئا- درسها الكبير الثانى، فقد كان ولدها الذى لم تفرح بمولده كما ينبغى هو أذكى إخوته وأحماهم دما وأكثرهم غيرة على بيته وعائلته وخاصة عليها وكان كذلك أمهرهم فى أمور الجزارة وأعرفهم بأسرار المواشى والغنم، كان هاشم يقول لها:

- الواد ده هايطلع جزار أحسن منى.
- وليه جزار يا خيي، ما يمكن يكون نصيبه فى الدنيا أحسن من نصيبك.
- يارب يا يامنة، هو وكل إخواته.

سرح هاشم قليلا ثم عاد من سرحته قائلا:

- عارفة يا يامنة، مش باقوللك الواد ده طالع جزار عقر، بس أنا مستخسره فى الجزارة.
- ربنا يسهل وأخوه والا عمه يعرفوا يشغلوه معاهم فى البترول.
- على الله.

تذكرت خناقاتها مع هاشم التى كانت سرعان ما تشتعل ثم تنطفئ ولم تكن أسبابها تخرج عن تأخرها فى تلبية طلب له، لضيق الوقت وهدة الحيل مع العيال، وعندما جاءت سيرة عبد الله فى ذكرياتها تذكرت المرة التى أغضبها هاشم حتى قررت أن تترك له البيت وتذهب لأهلها فى الشويخات، أخذت معها الصغار أبو بكر وحسين وخديجة الرضيعة على كتفها ولم تكن قد ولدت عبد الرحيم بعد، وتركت الكبار مع أبيهم فى البيت. عندما عادت مع زوجها بعد أن صالحها عند أهلها لم تجد عبد الله وعلمت أنه منذ أن تركت البيت رفض أن يبقى فيه وأقام فى بيت عمه أحمد وكان إذا رأى أباه مصادفة فى دروب البلد تجاهله وتظاهر بانشغاله فى اللعب أو الجرى خلف أحد أقرانه. أرسلت أخاه محمود ليخبره أنها عادت وبعد قليل وجدته أمامها ينهج ويغمره العرق إذ جاء من بيت عمه جريا لفرحته بعودتها، شعرت نحوه بحنان بالغ وجرت دمعة فى عينيها خبأتها عندما أخذته فى حضنها طويلا وعاد لها شعورها بالذنب بسبب نفورها عند مولده من بشرته الداكنة.

تذكرت ضمن ما تذكرت يوم ولدت ابنتها "خبيجة" (خديجة)، لم تكن تحب خلفة البنات وكانت تدعو أن يمنحها الله الذكور وتشعر بنعمته عليها كلما أضافت بطنها ذكرا لذرية هاشم. عندما جاءت البنت صدمت أكثر من صدمتها بولدها الأسود. كان هناك شيء فى

نفسها هى الأنثى يرفض فكرة أن تكون أما لأنثى، فالذكر يسعى على رزقه ويتزوج فيضم زوجته لبيت أهله أو يسكنها فى بيت مستقل لكنه لا ينقطع عنهم حتى لو أرادت زوجته غير ذلك فهو الرجل الذى يقرر ويأمر، أما البنت فيظل أهلها على قلق حتى تتزوج فإذا تزوجت لا يكون لها فى الأمر شيء، تظل رهينة تدور فى فلك زوجها وأهله حتى لو أخذوها لآخر الدنيا فى الواحات، وربما تمر سنوات دون أن يروها أو يرى أولادها جديهم وأخوالهم وتظل هى الجناح المهيض لأبيها وإخوتها الرجال خاصة إذا لم يراع الزوج وأهله الأصول معها. رغم ذلك فقد تعلقت بابنتها التى صارت ونيستها فى البيت بعد أن يخرج زوجها وأولادها الذكور للعمل أو اللهو وصارت تملأ عليها الدنيا بهجة وهى تحاول أن تعلمها رغم صغر سنها طرق الطبخ والغسيل والكنس والخبيز حتى إذا تزوجت وأبدت دراية ومهارة فى عمل البيوت، رد الناس الفضل للأم التى ربت وعلمت.

بعد سياحتها فى دروب ذكرياتها وأفكارها المتشابكة وهى جالسة تحت قدمى رجلها فى ظلمة الليالى متسمعة لأدنى صوت يصدر منه ومتحفزة لتلبية طلباته فى الحال، كانت تستعيذ بالله من وساوس الشيطان وتقوم لتتوضأ وتصلى وتدعو الله أن يمن عليه بالشفاء.

لكن إرادة الله غلبت.

فى الليلة التى إستيقظت فيها مرعوبة على صرخاته فى جوف الليل، كان ألمه قد بلغ مداه. رأته من خلف غشاوة نعاسها ممسكا بطنه والعرق الغزير يغمره وجسده ينتفض إنتفاضته الأخيرة. بعد

هنيهات، همد الجسد فأخذت رأسه على حجرها وسبلت عينيه اللتين إرتسمت فيهما نظرة ستظل تصحبها طوال حياتها.

مات هاشم.

6

فى اللحظة التى ارتمى فيها محمد باكيا فى حضن أمه شعرت آمنة أن هاشم مات لتوه.

كان محمد قد عاد بعد عشرة أيام من وفاة أبيه. حكى لها كيف علم بالوفاة حيث كان بعض زملائه من المقيمين بقنا يقضون أجازاتهم فيها ووصلهم الخبر بعد عدة أيام عن طريق سليم البراهمى سائق الحلزونة الذى كانت تربطة علاقة مودة بالمرحوم والذى يمت بصلة قرابة لأحد زملاء محمد المقيمين بقنا وكان يسافر معه بعض أهل البلد إلى قنا فيتبادلون معه الأخبار، عرف منهم أن هاشم أبو زيد الذى بلغ بالكاد الخامسة والأربعين من عمره قد توفى، حزن عليه حزنا شديدا وحرص أن يبلغ قريبه حتى يتصرف ويبلغ زميله ابن المرحوم.

عندما وصله خبر أبيه أحس بأن وحدته صارت أشد وطأة منذ عرفت قدماه ملمس رمل الصحراء فها هو أبوه يموت دون أن يكون إلى جواره فى لحظاته الأخيرة فى الدنيا ودون أن يغسّله ويصلى عليه، دون أن يكون إلى جوار أمه فى تلك الأيام والليالى العصيبة التى واجهت فيها محنة فقد الرجل وتقلب وجه الزمن.

أنهى زملاؤه نيابة عنه إجراءات الأجازة وساعدوه فى تجهيز حقيبته والتفوا حوله يعزونه ويطيبون خاطره وتطوع واحد منهم من أشراف الشيخ عيسى بمرافقته فى السفر حتى لا يترك "ود عمه" وحده فى هذا الظرف الحزين.

عزى أمه وإخوته وذهب من فوره مع أخوته محمود وعبد الله وأبو بكر إلى الديوان ليكون فى استقبال أعمامه وأولادهم وبقية رجال البلد الذين سيتوافدون لتعزيته بمجرد علمهم بوصوله.

بعد عودته من الديوان، جلست قبالته فى السقيفة يرى كل منهما بالكاد وجه الآخر على الضوء الباهت للمبة السهارى. بعد صمت مشحون، قال محمد:

- أبويا مات بالملاريا يامه.
- وكيا (كيف) عرفت يا ولدى؟
- سمعت وأنا جاى إن الوبا شغال فى الصعيد كله طول السنة دى وإنهم سموها سنة النفضة، أصلها بتخلى اللى اتبلى بيها يتنفض.
- صح يا ولدى أبوك يا عينى كان بيتنفض لما يخلعنى (حتى يخيفنى).
- ده يمكن ماظهرتش فى نواحينا كتير زى بقية البلاد.
- بس أهى خدت أبوك يا حبيبى.
- يامه ده أجله هى بس أسباب.
- شد حيلك يا محمد، حملك تقل يا ولدى.

- الشدة ع الله يامه.
- إنت من دلوقتى أبوهم وراجل البيت ده.
- طبعا يا أمه .. ربنا يقدرنى ويديكى طولة العمر.

إتفقت آمنة وكبيرها محمد أن يحاول إيجاد فرصة لأخيه محمود للعمل معه بعد أن نبهها أن ذلك ربما يحتاج بعض الوقت حتى يثبت أقدامه أكثر وتكون له القدرة والجرأة على مفاتحة رؤسائه فى الأمر، أما عبد الله فسوف ترسله ليساعد أحد جزارى البلد يوم الذبح وبقية الأسبوع يعمل هو وأبو بكر فى الدكان.

عقب محمد:

- بس حملهم مش على كد (قد) كده.
- خابرة يا وليدى، العيال لازماهم يد شديدة عشان حالهم ما يميلش.
- وإنت هتقدرى فى غيابى ع الحمل ده؟
- ها أقدر ونص، ربنا ما هيسبنيش لحالى (وحدى)، وإنت لما تنزل أجازة ها تراعيهم برضه وأهو عمك وولد عم أبوك حسهم فى الدنيا، ما هو هاشم كان أخو الكل.
- ربنا يرحمه ويسامحه.
- الفاتحة على روحه.

فى الصباح الباكر زارت آمنة وأولادها جميعا قبر هاشم، كان محمد فى المقدمة وتلته أمه يتعلق الصغير عبد الرحيم فى طرف حبرتها وفى الخلف كان بقية أولادها يخبون فى جلابيبهم ويثيرون التراب بأقدامهم.

لف الحزن والصمت البيت الذى طالما تميز بالصخب وارتسمت ملامح الجدية والصلابة على وجوه ساكنيه فرغم أن حياتهم السابقة إبان حياة أبيهم لم تكن رغدة إلا أن الوضع الذى وجدوا أنفسهم فيه جعلهم يدركون أن أيام الرغد قد ولت وأن عليهم ألا يفلتوا أقل فرصة قد تمنحها الحياة لهم كى يعبروا محنتها مستورين.

اجتهد محمود وعبد الله فى رعاية الدكان وكان أبو بكر يحل محل الأخير يوم السوق إذ كان عبد الله يعمل مساعدا للعم "على رضوان" الجزار الذى أحبه لمهارته وخبرته فى الجزارة رغم حداثة سنه وكذلك لذكائه الحاد فقد كان يفهم المطلوب منه من مجرد نظرة. لكن عبد الله كان معتدا بنفسه بشكل لا يتناسب مع سنه وكان مشاكسا ولا يقبل أى كلمة أو تصرف قد تحتمل شبهة عدم التقدير ولو كان ذلك على سبيل الفكاهة ما جعل على رضوان يحرص على إرضائه والصبر عليه فهو ولد نابه وهو أيضا ابن أفضل من عرفه كار الجزارة على حد علمه.

ذات يوم، بعد نهاية الذبحة، مد على رضوان يده بلفة اللحم نحو عبد الله، فسأله:

- لمين دى يا عم على؟
- إديها يا ولدى للست أم محمد.
- ليه يا عم على هو احنا شحاتين؟
- لا يا ولدى دى هدية، دا أبوك الله يرحمه كان صاحب فضل.

- تعيش يا عم على .. كفاية إنك بتدينى كرا (أجر) زين، وكمان عشان أمى ما تزعلش.
- على راحتك يا عبد الله.

كان أخوه محمود هو أقرب إخوته إليه بسبب التقارب فى السن وفهم كل منهما لطبيعة الآخر وقضاءهما معظم الوقت معا. فى جلستهما بالدكان بعد الظهر، حكى عبد الله لأخيه ما دار بينه وبين عم على رضوان فعلق محمود:

- الرك ع النية يا عبد الله.
- لا يا محمود أنا مش هخش فى النوايا، أنا ليا الفعل.
- يا خيي إنت شغال معاه وهو مبسوط منك وكان عايز يجاملك.
- يمكن، بس برضه أنا عملت الصح.

كانا يقضيان فى الدكان الساعات الطويلة يتحدثان، عن أحلامهما وأفكارهما عن الناس والبلد، ولم يكن يقطع اتصال الحديث بينهما سوى قدوم زبون كل فترة طالبا شيئا مما يباع فى الدكان أو نداء أمهما عليهما من خلف باب البيت الموارب لتناول الغداء أو انفلات عبد الله إلى خارج الدكان لزهقه من طول المكوث فيه، كان إذا لمح أحد رفاقه مارا أمام باب الدكان تبادل معه حديثا بالإشارة محاولا ألا يلاحظ محمود. كان محمود يفهم أخاه ويلاحظ إشاراته متصنعا عدم درايته بها فيتركه لينطلق مع رفيقه حتى يلهو بعض الوقت. فى أثناء

حديثهما كان محمود يتقمص دور الناصح فهو الأكبر سنا بفرق ثلاث سنوات، ينصح أخاه أن يكون أكثر هدوءا وأقل إثارة للمشاكل.

كان عبد الله بسبب دمه الحامى يثير كثيرا من المشاكل حتى فى وجود أبيه على قيد الحياة وكان أبوه ينهره إذا انتهت إلى سمعه قصة من قصص عراكه مع أنداده أو مشاكساته للكبار منهيا توبيخه له بقوله:

- ربنا يهديك على نفسك يا ولدى.

بعد كل مرة كان عبد الله يحاول السيطرة على نفسه ولكن ذلك لم يكن يستمر طويلا فالطبع غلاب. كان يرى أن هذه البلد وهؤلاء الناس لا يفهمونه ولا يستوعبون طموحه، كان يرغب أن يحيا حياة لا يستطيع تحديد معالمها أو وصفها لكنها حياة غير تلك التى يحياها وحسب، ويشعر أن هذا هو السبب الدفين الذى لا يعرفه أحد ولا يستطيع هو أن يشرحه لانفلات أعصابه ومشاكله مع الآخرين. مع ذلك فقد كان أحن الناس على أمه وإخوته ولا يتحمل عليهم أدنى أذى وكان يحب أباه ويشفق عليه من حمل همهم وندم بعد أن مات أنه لم يستطع لخجله أن يعبر له عن مدى حبه وحنانه عليه، كان يبكى أباه عندما يكون وحده حتى لا يرى أحد دموعه ويحلم أحيانا به فى نومه يوصيه بأمه وإخوته، عندما يستيقظ كان يتذكر تفاصيل الحلم ويتعجب لماذا يوصيه هو بالذات بذلك رغم أنه ليس الكبير.

لم تنقطع مشاكل عبد الله إلا فى فترة إلتحاقه بالكتاب. لاحظت أمه ووافقها أبوه أن شكاوى الناس لهما، الرجال لهاشم والنساء لآمنة،

من عراك عبد الله وهجومه الشرس على أولادهم قد اختفت، عزا هاشم ذلك لكبر سن الولد واستجابة الله لدعائه له بالهداية لكن آمنة لم تقتنع بذلك.

سألته ذات مرة بعد أن جاهدت كي يبدو سؤالها عارضا:

- قوللى يا عبد الله إنتوا بتاخدوا إيه فى الكتاب؟
- سيدنا بيحفظنا جزء "عم" وجزء "تبارك" ويعلمنا القراية والكتابة على اللوح بالريشة وبيحكى لنا عن هجرة الرسول وساعات عن هجرة الأشراف.
- وبيقولكم إيه عن هجرة الأشراف؟
- بيقول أنهم كانوا زمان قوى أمرا للمدينة المنورة بلد الرسول واتخانقوا مع ولد عمهم ع الإمارة وسابوها لهم وجم على هنا عشان كان ليهم أراضى كتيرة قوى، هى راحت فين الأراضى دى يامه؟
- ما خبراش (لا أعلم) يا ولدى، إسأل سيدنا وهو يقوللك.
- طيب.

أدركت آمنة أن ولدها يحب العلم وأن حديث شيخ الكتاب ملأ تفكيره ووقته ورقق طبعه وجعله يكبر عن أفعال الصغار وتمنت لو أنها وأباه استطاعا إرساله للمدرسة فى قنا، ولكن كيف وهى بعيدة وليس لهما أقارب فيها يمكن أن يتركا ولدهما لديهم وفوق كل ذلك أين لهم بالمال الذى يلزم التعليم والسفر والمصاريف فى الغربة.

كان "سيدنا" من أولاد شاهين وهو واعظهم وإمام جامعهم وكان حافظا للقرآن ويرتدى دائما الزى الأزهرى ما جعله مهابا ومسموع الكلمة لدى تلاميذه الذين كانوا يقبلون يده عند مجيئهم فى الصباح ويصدقون كل كلمة تخرج من فمه ويحرصون على إرضائه خاصة وقت الشهرية عندما تحملهم أمهاتهم بالبتاو والجبن القديم والبيض ودشيشة القمح وأحيانا بعض القروش. كانوا يعرفون أن "الشيخ خيرى" إلتحق بعض الوقت بالأزهر فى مصر وعندما ساءت أمور عائلته عاد للبلد بعد أن حفظ القرآن كله وتعلم هناك العلم الذى أكسبه المكانة العالية والإحترام بين أهل المخادمة ما جعلهم يرتضون حكمه فى خلافاتهم ويعودون إليه ليفتيهم فى أمور الشرع وكان مثارا لتفاخر أولاد شاهين على بقية أهل البلد، ذلك التفاخر الذى كان هو نفسه يتبرأ منه أمام الناس لأنه كما يقول خصلة من خصال الجاهلية، فأحبه الناس لتواضعه وأخلاقه وعلمه وشجع أولاد مالك وأولاد مرعى على إرسال أولادهم لكتابه البعيد.

أحب عبد الله الشيخ الشاب وصار مع الوقت مثله الأعلى، كان الولد يتمنى أن تتاح له مثل شيخه فرصة السفر للمدن التى يسمع أسماءها من الناس، مصر أو أسيوط أو السويس حتى يتعلم ويرى العالم ويحيا الحياة التى يتمناها لنفسه ولأمه وإخوته وقد صارت الآن أكثر وضوحا فى خياله. كان الأولاد إذا رأوا الشيخ يتوضأ استعدادا لصلاة الظهر يبدأون فى التململ وإثارة الفوضى فتبدأ خرزانة الشيخ تضرب فى الهواء دون فائدة وهم يصيحون "عز الطلقة يا سيدنا" بينما عبد الله يريد أن يسأل سيدنا مزيدا من الأسئلة، وعندما يحين أخيرا

موعد "الطلقة" ويهيص الأولاد ينطلق معهم وهو يتمنى أن يتذكر فى صباح الغد ما كان يريده من الشيخ.

شغلت القصص التى يقصها عليهم سيدنا تفكير عبد الله وأشعلت خياله، كان يستمع إلى قصة هجرة الرسول من مكة إلى المدينة المنورة وهجرة أجداده الأشراف من المدينة إلى قنا فيدرك أن وجود الناس فى مكان ما ليس قدرا أبديا لهم وأن الأرض إذا ضاقت عليهم فى مكان فأرض الله واسعة كما يقولون.

أخبرهم الشيخ أنهم جزء من القبائل العربية المنتشرة فى منطقة الصعيد الجنوبى بأسيوط وسوهاج وقنا والأقصر وأسوان والبحر الأحمر والتى جاء معظمها من الجزيرة العربية هربا من جدب صحراءها للتمتع بالخصوبة والوفرة وإتساع مجالات الرزق فى الصعيد وقتها، وأنهم كانوا يعبرون البحر الأحمر من ضفته الشرقية عند ميناء "جدة" إلى ضفته الغربية عند ميناء "عيذاب" القريب من الصعيد أو يدخلون مصر عن طريق صحراء سيناء، وأن موجات الهجرة الكبرى تدفقت إلى الصعيد بعد أن صارت مصر جزءا من دولة الخلافة الإسلامية.

أخبرهم أنهم من قبيلة كبيرة هى "الأشراف الجمامزة" أحد الفروع الكثيرة للقبيلة الأم قبيلة "الأشراف" المنتشرة فى المنطقة العربية وفى مصر خاصة قنا وأسوان والبحر الأحمر وسيناء ولها أفرع أخرى غير الجمامزة كالأشراف العنقاوية والجعافرة والعليقات والخطباء وغيرها من القبائل المهاجرة لمصر والتى ينتهى نسبها جميعا للإمامين الحسن والحسين حفيدى النبى محمد من ابنته فاطمة الزهراء، وأن فرعهم سمى

بالجمامزة نسبة لجدهم "الأمير جمال الدين جماز" وأن نسبهم ظل محفوظا من الإختلاط مع الأنساب الأخرى لحرصهم جيلا بعد جيل على ألا يتزوجوا -رجالا ونساء- من خارج القبيلة وأخبرهم كذلك أن الصعيد يمتلئ بالقبائل العربية الأخرى التى استقرت منذ مئات السنين كقبيلة "هوارة" و"جهينة" والحجيرات" و"بنى هلال" و"المهرة" و"السمطا" و"العكارمة" و"بنى مر" وغيرها من القبائل التى عاشت فى سلام جنبا إلى جنب طوال السنين غير أن الخلافات تدب أحيانا بين بعضها البعض وتتحول إلى ثأر ربما يمتد أجيالا إذ يشعله اعتزاز كل قبيلة بأصلها وحرصها ألا تبدو ضعيفة أمام القبائل الأخرى وهو طبع اكتسبوه منذ كان أجدادهم هناك فى جزيرة العرب يتحاربون على الرزق ويتخذون من الإغارة على بعضهم البعض صنعة لهم.

سأله عبد الله ذات يوم:

- وهم هملوا (تركوا) بلدهم ليه يا سيدنا؟
- زى ما قلت قبل سابق لما الحال ضاق عليهم فيها لكن "الجمامزة" هملوا المدينة المنورة اللى كانوا أمراءها عشان اتعاركوا مع ولاد عمهم على الإمارة وخافوا لتقوم بينهم حرب ويموتوا بعض وهم ولاد عم، وبعدين أبوهم الأمير جمال الدين كان ليه أرض أوقاف هنا فى قنا كان السلطان "عماد الدين بن صلاح الدين الأيوبى" كتبها له ولولاده من بعده.
- وراحت فين الأرض دى؟
- زمان السلطان العثمانى طلع فرمان (أمر سلطانى) ياخد كل الأراضى، راحوا لولاد عمهم الأشراف العنقاوية يوسطوهم

عشان يعفوهم من الفرمان وده حصل بس العنقاوية خدوا
نص الأرض قصاد الخدمة دى، والنص التانى خده الباشا
"محمد على" بعد كده زى ماخد كل الأراضى فى بر مصر.

لم يكن عبد الله يعرف من هو السلطان ومن هو الباشا وما هو الفرمان وشعر أن الأمر أكبر من استيعابه فاكتفى بحفظ ما قاله سيدنا وسكت.

فى السنة الأخيرة من الفترة التى قضاها فى الكتاب، كان عبد الله يأخذ أخاه الأصغر أبو بكر -الذى كان قد بلغ السن المناسبة لتعلم القراءة والكتابة والحفظ- حتى يعتاد على جو الكتاب وعلى التعامل مع هذا العدد الكبير من الأولاد وحتى يحميه من مضايقات الأراذل منهم ولما اشتد عود الصبى، ترك عبد الله الكتاب لأنه كبر وحان وقت اكتفائه بما تعلم وبعدها قام أبو بكر بنفس الدور مع أخيه الأصغر حسين عندما بلغ سن الكتاب.

عندما انتهت فترة الكتاب، عاد عبد الله إلى سيرته الأولى وعادت شكاوى الناس لأمه من مشاكساته ومشاكله التى زادت فقد أدرك الولد خاصة بعد موت أبيه أن أحلامه وطموحه فى العلم والحياة ورؤية العالم صارت أصعب من أى وقت مضى وأن الأرض قد ضاقت عليهم أكثر من ذى قبل وأن مصيره قد ارتبط بتلك الحياة الجافة للأبد فصار أكثر تمردا وأضيق صدرا.

كان تمرد عبد الله وتبرمه ينغصان على آمنة حياتها، لكنها تمنت أن ينتهى كل ذلك عندما يجد ولدها طريقه فى الحياة ويرزقه بالذرية التى ستجعله يتصالح مع زمنه، لكن مأساتها الجديدة التى حلت عليها فى يوم مشيءوم ظلت تنغص عليها طويلا وربما عمرها كله.

7

استيقظت يومها كعادتها مبكرا وكانت قد إنتوت أن تجعله يوما للخبيز،كانت قد انتهت من عجن الدقيق وتركته يختمر عندما دخل الصغير عبد الرحيم عليها الحوش وهو يبكى ويفرك إحدى عينيه فركا شديدا بقبضة يده، خبطت بيدها على صدرها وصرخت:

- يا مرى، مالك يا ولدى؟
- عينى واجعانى قوى يامه.
- مالها يا وليدى، هى دخلت فيها حاجة؟
- لا يامه براها براها (دون سبب).
- كفى الله الشر، وريني كده.

كانت عينه اليسرى حمراء كالدم ومتورمة وملتهبة الجفون، أسرعت لصندوقها فأخرجت قطعة نظيفة من الشاش بللتها بالماء ومسحت بها على عين الصغير الذى كف عن البكاء معتقدا أن سحر أمه سوف يخلصه من الألم ويعيد عينه إلى ما كانت عليه وأنه سوف يعود إلى سريره ليكمل نومه الذى أقلقه ألم النار التى اشتعلت فى العين.

أيقظت أخاه حسين وأرسلته لدكان عباس القريب ليشترى بعض "التوتيا" التى أخذت تحشى بها عين الولد مرتين فى اليوم، بعد أيام زال ورم العين وهدأ الالتهاب لكن العين لم تعد ترى وحال لون بؤبؤها إلى البياض.

بكت آمنة ضياع نصف نظر صغيرها الوسيم واعتبرته صورة أخرى لأقدارها السيئة وأدركت ببصيرتها أن هذه الإصابة ستؤثر كثيرا فى حياة ولدها ومستقبله. زادت تلك الحادثة من الكآبة التى تلف البيت وتمتلأ بها نفس آمنة وانتقلت منها إلى نفوس أولادها الذين حزنوا على مصاب أخيهم الأصغر وهم يرونه يلهو غافلا عما جرى له. كان كلما خرج ليلعب مع أقرانه عايره أحدهم بعينه وكانوا إذا احتدم بينهم العراك ينادونه بالأعور فيجرى للبيت باكيا ما يدفع أحد إخوته الأكبر للاشتباك مع الأولاد، عندما تكرر ذلك انزوى عبد الرحيم وقل خروجه من البيت وتوقف عن اللعب مع إخوته فى السقيفة أو الحوش فأوجع انزواؤه ووجومه قلب أمه التى أخذت تدعو الله فى صلواتها أن يزيح غمتها وأن يخلف ظنونها ويكتب لها ولبيتها الفرح.

جاءتها الفرحة التى تمنتها ذات ليلة، فاجأ آمنة طرق على الباب وعندما فتحته رأت وجه ولدها محمد وعليه إبتسامة كانت تعرفها فيه عندما يقضى له الله أمرا يريده. بعد أن سلمت عليه ووضعت الطبلية أمامه ليأكل لقمة بعد السفر الطويل سألته:

- شو حوالك يا محمد شكلك مبسوط.

- قوى يامه، وافقوا فى الشغل أجيب معاى أخوى محمود وإذا عجبهم هيشغلوه.

علقت بصوت تخنقه دموع الفرح:

- بإذن الله يعجبهم، ده محمود سيد الناس وزينة الشباب.

كانت هذه أسعد أجازات محمد بالنسبة لها فقد كانت تشعر دائما أن الله لن يتركها ويترك أولادها وأخيرا تأكد شعورها ومن الله عليها باقتراب الفرج، كانت القروش التى تكسبها الدكان وتلك التى يكسبها عبد الله من عمله فى الجزارة لا تكفيان مصاريفهم ما يضطرها أحيانا أن تشترى بعض حاجاتهم بالدين خاصة إذا طالت غيبة محمد فى الجبل. كان ولدها الكبير يسلمها راتبه قبل أن يغير ملابس السفر فتعطيه جزءا منه لمصاريف أجازته وسفره القادم وتقسم الباقى نصفين، نصفا لمصاريف البيت والآخر كانت تضعه بين طيات ملابسها فى صندوقها الذى تغلقه وتضع مفتاحه فى الحاصل المظلم، لم تكن تمد يدها لما فى الصندوق حتى لو اشترت بالدين أو حرمت نفسها وأطفالها أكل اللحم أو استغنت عن شراء جلباب جديد غير الذى رق وحال لونه، وعندما تتسلم الراتب التالى من ولدها كانت تسدد ديونها وتطبخ لهم اللحم وقد تشترى لنفسها ولأولادها بعضا مما يحتاجون.

قبل سفر محمد ومحمود بيومين، كانت قد أعدت لهما الزوادة ورتبت ملابسهما القليلة فى شنطة السفر ومنعت محمد من الخروج قائلة له:

- سيب اخواتك يخرجوا، أقعد انت عايزاك.

- خير يامه وغوشتيني.

مدت يدها إلى صدرها وأخرجت الصرة.

- خد يا محمد.
- إيه ده يامه؟
- ده مهر عروستك يا حبيبي.

أخبرته أنها اختارت له "نصرة" بنت الحاج "زكريا الزناتى" فعبر لها عن رضاه عن اختيارها خاصة وأن أخويها صديقاه وأباها "راجل زين وبتاع ربنا"، وأنها ادخرت المبلغ من راتبه على مدار الشهور الفائتة، واتفقا على زيارة بيت العروس فى الغد بصحبة عمه أحمد.

عندما نوت "آمنة" أن تخطب لولدها الكبير أخذت تسترجع فى ذهنها كل بنات البلد اللاتى بلغن سن الزواج وتسأل نساء العائلة فى زياراتها القليلة لهن إذا عجزت عن تذكر بعضهن، قررت أخيرا أن نصرة هى أنسب واحدة لولدها ولظروف بيتها فالبنت هادئة ومطيعة ومن بيت طيب وسوف تحتمل العيش فى بيت ملئ بالأطفال والشباب لكل منهم طلباته التى لا تنتهى، كانت ترغب فى كنة تتكأ عليها وتحمل عنها بعض الحمل الذى أرهقها فلم تعد صحتها كما كانت.

زارت آمنة بيت العروس وفاتحت أمها فى الأمر واستأذنتها فى زيارتهم إذا وافق رجل البيت، بعد أقل من يومين أرسلت أم نصرة أحد ولديها ليخبر الخالة آمنة بأنهم سيكونون فى انتظارهم فى المساء بعد يومين، أرسلت آمنة لأخى زوجها الراحل لإبلاغه بالموعد وكانت قد فاتحته بالأمر منذ أيام فهو الآن فى مقام والده.

استقبلهم أهل بيت العروس بالترحاب المعتاد فى مثل تلك المناسبات ودخلت نصرة بصينية عليها فناجين القهوة فسلمت واستأذنت فى الانصراف وعندما انتهى الجميع من شرب القهوة أخرج العريس من سيالة جلبابه جنيها ووضعه فى الصينية بعد أن تلقى من أمه نظرة الرضا، كانت تلك هى إشارة حسب عاداتهم أن العروس حازت رضا العريس وأهله. تكلم العم فطلب يد العروس ووافق والدها وقرأ الجميع الفاتحة أطلقت بعدها أم العروس زغرودة.

إتفق الطرفان على أن يتم الاحتفال بالزواج بقراءة القرآن للرجال بالديوان وأن يحتقل أهل العروس كما يحلو لهم فى بيتهم فرغم مرور السنين على وفاة هاشم لم تكن آمنة تتصور أن تقيم فرحا ورقصا وزمرا كما أن ظروفهم المالية كانت تحتم "لم اليد". بعد الاتفاق مد محمد يده بصرة المهر إلى حماه حتى تجهز العروس خلال وجوده فى الجبل ويتم الزواج فى أجازته القادمة التى سيرتب أن تكون أطول من المعتاد.

تمت الخطبة وسافر الولدان وصار أبو بكر يمكث مع أخيه عبد الله فى الدكان حتى يغلبه النعاس فينادى عبد الله على أمه لتسنده وهى تكاد تجره للداخل، وأصبحت نصرة فردا من الأسرة، كانت آمنة ترسل لها أحد أولادها الصغار تدعوها للمجئ حتى تتغدى معهم أو تسامرها بعد أن يخرج الأولاد للعمل أو اللهو فلا يبقى فى البيت سواها و"خديجة"، لم تكن تشك فى موافقة أهل العروس على السماح لابنتهم بالزيارة معتمدة فى ذلك على ثقة الناس فيها وفى أنها لن تسمح بشيء يخالف الأصول، كانت آمنة تقصد من دعوتها لخطيبة ولدها أن تذيب مشاعر الغربة والخجل بين العروس والبيت الذى ستعيش فيه وساكنيه

وتمنح أبناءها إخوة العريس فرصة ليتخلصوا هم أيضا من خجلهم فيتعاملوا معها كأنها أختهم كما ينبغى للأمر أن يكون.

فى بادئ الأمر أثار وجود نصرة بينهم خجلهم وخجلها لكن الوقت كان كفيلا بتوطيد العلاقة بين الطرفين، ساعد على ذلك طبيعة البنت الهادئة وحرصها على إرضائهم وبث الطمأنينة فى نفوسهم تجاهها غير أن السبب الأهم كان إحساسهم بأن روحا جديدة سرت فى بيتهم الذى لم يعرف من قبل وجود فتاة شابة مثلها فيه ما كسر ذلك الملل وتلك الخشونة الذكورية التى ميزت البيت طويلا.

8

عاد محمد من الجبل وزف إليهم خبر أن محمود قبل للعمل بالشركة وأنه سيعود بعد شهر لأن الموافقة أخذت بعض الوقت ولابد له أن يكمل الوردية. أضاف هذا الخبر فرحة على فرحة الجميع بقرب زواج محمد ونصرة التى أثبتت أن "قدمها قدم خير" على الأسرة التى غاب عنها الفرح طويلا. قبل أسبوع من موعد الزواج نقلت آمنة سريرها وصندوق ملابسها إلى غرفة من غرفتى الأبناء ورتبت أن تنام فيها مع الصغار حسين وخديجة وعبد الرحيم وأن ينام عبد الله وأبو بكر ومحمود فى أجازاته فى الغرفة الأخرى وأحضرت أسرة العروس جهازها وغرفة النوم الجديدة التى اشتروها من قنا ونصبت فى الغرفة التى كانت من قبل لآمنة وهاشم.

عند سفره عائدا لعمله، أوصى محمد زوجته على أمه وإخوته وفى المقابل أوصاهم عليها وأخذ يردد طوال طريق سفره الدعاء أن يهدى الجميع على بعضهم البعض. لم يخل الأمر من مناكفات إخوة الزوج ومضايقاتهم الصغيرة للزوجة الشابة غير أن صبرها واتباعها لوصايا أمها واجتهادها فى خدمتهم ثم صرامة حماتها مع "جلع" (دلع) أولادها جعلت الأمور والأيام تمر بسلام بل تولت نصرة مساعدة حماتها فى تربية إخوة زوجها الصغار بعد أن صارت بمثابة الأخت الكبرى لهم.

*****

ذات مساء فاجأ عبد الله أمه:

- إحنا إيه اللى مقعدنا هنا يامه؟
- ونروح فين يا ولدى؟
- نهاجر يامه زى جدودنا ما هاجروا زمان وزى ما كتير من أهل البلد عملوا.
- كل واحد وظروفه يا عبد الله.
- وإحنا ظروفنا تخلينا أول ناس نهاجر، مش اخواتى محمد ومحمود بيتنقلوا من غارب للغردقة لسينا، طيب ما نروح نسكن فى حتة قريبة من شغلهم بدال المشوار الكبير اللى بيسافروه رايح جاى.
- يا ولدى دى بلادنا وبعدين أنا ما أهمّلش (لا أترك) قبر أبوك.

- يامه أبويا لو لسع (مازال - لسَّه) حي كان هو اللى هيقول نهاجر، يامه إحنا مالناش أرض هنا قاعدين ليه؟
- ويعنى يا ولدى إحنا لينا أرض هناك؟
- أيوة لينا أرض، الشغل هو أرضنا، البترول هو أرضنا.
- بس يا عبد الله سد خشمك (فمك) عاد، ماعايزاشى أسمع الحديت الماصخ ده تانى.
- يوه .. لميتى (حتى متى) هانفضل فى الغلب ده؟

زلزلت الفكرة التى طرحها عبد الله روح آمنة. كانت تشعر فى قرارة نفسها أن الولد على حق. فكرت أنه كبر وأنه ضاق من حياة الفقر التى يعيشونها ويريد أن يخرج من هذه البلدة الصغيرة إلى المدن واكتشفت كأن إلهاما سماويا أنار بصيرتها أن هذه الرغبة هى سبب تمرد ولدها من يوم أن وعى الدنيا وسمع كلام الشيخ خيرى. ظلت أفكارها تلك تدور فى رأسها طول الوقت ولكنها لم تفتح معه الموضوع مرة أخرى وانتظرت حتى يعود ولداها الكبيران لتناقشهما وتقلب معهما الأمر. كان أكثر ما يؤلمها أن تضطرها الظروف لترك هاشم فى جبانته الموحشة وحيدا لا يزوره أحد من صلبه ليقرأ الفاتحة على روحه ويضع الجريد الأخضر على قبره حتى يطرى عليه الهجير.

تأتيها أخبار الناس فى المخادمة فتسمع عمن ينوى الهجرة مع أسرته لرأس غارب أو الغردقة أو السويس أو حتى الواحات ليكون قريبا من موقع عمله، بدا الأمر كأن الجميع قرر أن يهاجر وأخافها أن تنفصل وأبناؤها عن الأرض التى استوعبتهم واستوعبت آباءهم وأجدادهم على مدار السنين الطويلة وجعلتهم يستطيعون المحافظة على نسلهم نقيا من

نطف "الفلاحين" الغرباء ويأمنون مكرهم وغواياتهم وهو ما بات مهددا لو أنها طاوعت هذا الولد الذى لا يطيق الصبر حتى يجد عملا كأخويه وبعدها يتزوج فيهدأ بين فخذى امرأته.

إنتظر عبد الله أخاه محمود كالمحموم، كان يخطط أن يقنعه حتى يسانده فى إقناع أمه وأخيهما محمد الذى يتوقع أن يأخذ صف أمه كالعادة. عندما عاد محمود لم يبذل معه جهدا يذكر فقد كانت الفكرة تراوده منذ أن بدأ العمل، كان يفكر أن أجازته ستكون أسبوعين وأن السفر من الجبل وإليه سوف يأكل منها أربعة أيام وأن ما سوف يبقى منها لن يكفى لراحة الجسد من تعب العمل أو التمتع بالفراغ والكسل ولكنه رغم ذلك لم يكن يملك جرأة أخيه الأصغر ويرى أن الأمر لا يستحق أن يغضب أمه وأخيه الكبير إذا لم يوافق على الفكرة كما يتوقع عبد الله.

عاد محمد فى أجازته الأولى منذ زواجه فأعفت آمنة نصرة من عمل البيت لمدة ثلاثة أيام كانت تحرص خلالها أن تدفع أولادها بطريقة مواربة للبقاء خارج البيت أكبر وقت ممكن كى يتمتع ولدها بعروسه دون إزعاج خاصة من الصغار الذين تعودوا على خدمة نصرة لهم والذين لا يدركون ماذا يفعل أخوهم الكبير معها خلف باب الغرفة المغلق ولماذا تنام معه هو فيها ولا تنام بجوارهم.

بعد الأيام الثلاثة، ترك عبد الله أبو بكر فى الدكان -وكان محمود فى عمله بالجبل- ونادى على محمد لأنه يريده فى أمر هام لا يود التحدث معه فيه فى البيت وسط ضجيج الصغار.

سار الأخوان فى البلد يلقيان السلام على من يصادفانه فى طريقهما ويتبادلان الحديث فى الأمور المعتادة حتى عرجا برغبة من عبد الله إلى خارج البلد فسارا على الطريق الموازى للمشروع (الترعة) حيث بدا فضاء الحقول رائعا والهدوء شاملا، كانت المخادمة فى ظهرهما وهما يتجهان شمالا حيث تقع أجزاء من الأرض المزروعة المملوكة لبعض عائلات البلد التى يعمل أبناؤها فى الزراعة، وعلى يسارهما جهة الغرب تقع بقية الأرض الخضراء الممتدة عبر مئات الأمتار وصولا إلى البحر الكبير النيل الذى كانوا يسمون الأراضى المتاخمة له "غرب الغلاسى"، أما على يمينهما فكانت بيوت البلد ودروبها وتمتد بعدها ناحية الشرق الصحراء حيث تبدو قمم جبالها وتلالها من بعيد، بعد صمت مشحون بالترقب، سأل محمد:

- خير يا خيى، كنت عاوزنى فى إيه؟ محتاج قرشين والا إيه؟
- لا يا خوى الموضوع أهم من كده.

أشعل عبد الله سيجارة أخرجها من جيب جلبابه وسحب نفسا عميقا، مع الدخان المنبعث من فمه ومنخاره خرج صوته جادا ومشحونا:

- شوف يا محمد، الله يرحم أبونا ويسامحه، كان راجل زين ومالحقناش نعيش تحت جناحه كتير، إنت شقيت علينا من بعده وفضلك ده مش ها ننساه طول العمر.
- ما تقولش الكلام ده يا عبد الله أنا ما عملتش غير الواجب وإنت لو كنت مكانى كنت ها تعمل اللى أنا عملته ويمكن

أكتر، أنا خابرك زين يا عبد الله راجل تمام بس لو تهدى هبابة (قليلا).

- هو ده الموضوع، أنا طول عمرى عايز أهج، حاسس إن العيشة دى مش بتاعتى وإنى مش لازم استنى نصيبى زى النسوان، عايز أتحرك، أروح وآجى، أهاجر وأدور على نصيبى بنفسى.
- أديلك يا عبد الله قرشين تسافر بيهم وتدور على شغل وأهو شغل البترول بيتوسع ولسع هيتوسع كمان، بيقولوا فيه بترول كتير فى سينا والشركات هتفتح وتطلب عمال كتير.
- أنا سمعت الكلام ده من أبويا أحمد بس الظروف مش سامحة يشوف لى حاجة عنده وإنت لسع مشغل أخوك محمود.
- ما تروح تسأل فى مصر زى الناس ما بتعمل، أشراف كتير اشتغلوا ومنهم اللى خد عياله وعزّل لغارب والسويس، ده حتى فيه ناس بتروح الواحات تشتغل فى حفر آبيار الميه.
- آديك إنت اللى قلت، الأشراف بيهاجروا يا محمد زى ما جدودهم هاجروا زمان ورا أكل عيشهم وحياة ولادهم والرسول هاجر لما الدنيا ضاقت بيه، أنا عارف إن الهجرة صعبة يا محمد زى ما تكون بتخلع جدر ضارب فى الأرض، بس نعمل إيه لو كانت الأرض شحيحة؟ نسيبه يموت والا ندور له على أرض جديدة تكون عفية وشبعانة تحييه وتحيي فروعه عشان تكبر وتطرح؟ أنا مش بدور على نفسى بس يا محمد أنا عايز عيلة هاشم أبو زيد تطلع للهوا والنور، ده لما

أبوك تعب وأخوك عينه راحت أمك ما لقيتش حكيم (طبيب) يشوفهم، عايزين ولادنا يتعلموا ويعيشوا أحسن منينا وعيالهم يكونوا أحسن منيهم.

- كلامك زين يا بوى، بس دى لعبة قمار يا تصيب يا تخيب.
- لا يا خوى الهجرة مش قمار، دى جهاد ع المعايش ولو كل الناس فكرت بالطريقة دى ما كانش حد لا راح ولا جه، إحنا طول عمرنا شقيانين واللى زينا هيمسك أى فرصة ربنا يبعتها له بيده وسنانه، كلم أمك يا محمد هى بتحبك وإنت بكريها اللى شلت معاها الحمل وكلمتك عنديها غير كلامى، هى فاكرانى عيل طايش.

سرح محمد قليلا ثم رد دون حماس:

- حاضر يا خوى هاكلمها.

لم يتبادلا كلمة بعد الحديث الطويل ولكن الفراغ بينهما كان قد إمتلأ بشحنات غير مرئية من الأمل والخوف والرجاء والشجن والحنين ودون اتفاق وجدا نفسيهما يغذان السير إلى الجبانة حيث توقفا عند قبر أبيهما والدموع تلمع فى عيونهما فى انعكاسات شمس الظهيرة.

فى طريق عودتهما للبيت استأذن عبد الله من أخيه:

- روح إنت، أنا هاروح الديوان، عايز أقعد شوية لحالى.

بعد المغرب، عاد عبد الله ولم يكن قد أكل شيئا منذ الصباح، وضعت أمه الطبلية أمامه ثم جاءت بطبق الطبيخ والخبز، وشت نظرتها أن محمد كلمها فى الموضوع وأنها ليست ثابتة على موقفها

القديم. بعد أن أكل رفعت نصرة الطبلية وأحضرت لهما كوبى الشاى، إقتربت منه آمنة فشمت رائحة الدخان فى أنفاسه، اضطرب عبد الله معتقدا أنها ستوبخه على التدخين ولكنه فوجئ بها تندفع فى حضنه وتتمتم:

- فاهماك يا وليدى وموافقاك على كل اللى قلته.

وفجأة أخذت تضربه بقبضتى يديها على صدره وهى تنتحب:

- بس نهمل أبوك .. نهمل أبوك .. نهمله؟

أخذ عبد الله يحاول تهدئتها حتى سكنت بعد جهد، قرر أن يحكى لها:

- أبويا جانى فى المنام يامه بعد موته بكام يوم.

تنبهت آمنة وتشبثت عيناها به كى يكمل:

- جانى تلات ليالى ورا بعض كل مرة كان لابس فيها حاجة شكل، مرة كان لابس عباية خضرا والتانية كان لابس قفطان أبيض زى الحليب والتالتة شفته بآخر جلابية دبح بيها، بس كل مرة كان بيقول لى نفس الكلام خللى بالك من أمك واخواتك يا عبد الله وكان ياجى على لسانى سؤال وقبل ما أنطق كان بيختفى من قدامى.

- وإيه هو السؤال ده؟

- كنت عايز أقول له ليه بتوصينى أنا وأنا مش الكبير؟

سرحت آمنة قليلا وعندما رأت ولدها ينتظر تعليقها قالت:

- صح إنت مش الكبير فى السن بس إنت الكبير فى الهمة.

راق وجهها واستراح وبدت عليه ابتسامة حالمة، ربتت على خده:

- أنا موافقة على السفر يا عبد الله .. رتب مع اخواتك ها نسافر فين وميتى.

كانت المفاضلة بين أن يذهبوا إلى السويس أو رأس غارب.

فضل محمد الذهاب إلى رأس غارب التى يعمل هو ومحمود حاليا فى موقع قريب منها بينما كانت السويس هى إختيار عبد الله:

- صح يا محمد إنت ومحمود بتشتغلوا دلوقيتى جنب غارب لكن إنت عارف هتشتغلوا فين بكرة؟، عمى أحمد قال لى إن شركات الحفر زى شركتكم بتبعت البريمة لأى مكان حسب الطلب.

- مظبوط.

- طيب، البترول هيكون فين؟

- لغاية دلوقيتى يا فى البحر الأحمر يا فى سينا يا فى الصحرا الغربية.

- بس الفرص الجاية هتكون فى سينا أكتر.

- عايز تقول إيه؟

- عايز أقول إن السويس هى أحسن بكان (مكان) لينا.

- بس غارب لينا فيها قرايب أكتر.

- والسويس لينا فيها ناس وهيزيدوا لما بترول سينا يشتغل ويطلب ناس.

السويس مدينة قديمة وقريبة من مصر وفيها اللى أولادنا هيعوزوه، النضافة والتعليم والحياة الحلوة.

- ومالها راس غارب؟
- لسع صحرا يا بوى وبعيدة، وبعدين السويس فى النص بين سينا والبحر الأحمر ومش هنتعب فى الروح والجى لكن لو إنت ومحمود وأنا واخواتك الصغيرين لما يكبروا إشتغلنا فى سينا وكنا ساكنين فى غارب هنتعب قوى.
- عندك حق بس أنا برضه خايف من النقلة الكبيرة دى.
- ما تخافش يا محمد وخليها ع الله.

إتفقا أن يسافر عبد الله للسويس بعد شهر للبحث عن بيت مناسب بمساعدة الأقارب الذين يعرفهم هناك وبعدها ينزل محمد أجازته على السويس ليختار بيتا من البيوت التى يكون عبد الله قد وجدها.

تمت الخطة واختار محمد بيتا قديما خاليا بكفر "أبو العز" مكونا من طابقين فى كل طابق شقة صغيرة ويملكه رجل عرفوا أنه من الأشراف القبلية أخبرهم أنه بنى بيتا جديدا وانتقل إليه وعرض البيت القديم للبيع أو الإيجار. كان السبب الأول فى اختيار البيت أن كثيرا من الأشراف سكنوا فى تلك الناحية عند انتقالهم للسويس. لم يسترح محمد لفكرة الإيجار فقد اعتادوا أن يسكنوا فى بيوت تكون ملكا لهم بنوها أو ورثوها عن الآباء. توصل محمد إلى أن قيمة الإيجار حتى لو كانت قليلة فإنها ضائعة لأن البيت سوف يبقى ملكا لغيرهم أما لو استطاع هو وأخوه محمود استقطاع جزءا من راتبيهما يدفعانه كقسط من ثمن البيت فسوف يصير البيت بعد مدة حتى لو طالت ملكا لهم،

استراح محمد للفكرة ووافقه عليها عبد الله الذى تمنى أن يوفقه الله فى إيجاد عمل حتى يشارك فى سداد ثمن البيت مع أخويه.

بقى أن يقنعا صاحب البيت بالفكرة وهنا جاء دور الوسطاء من أقارب الطرفين اللذين ضغطوا على صاحب البيت باسم القرابة والانتساب للجد الواحد وعلاقات المصاهرة التى تربط عائلات المخادمة بعائلات الأشرف القبلية وباسم الإنسانية والإسلام فهؤلاء الشباب اللذين فقدوا أباهم ويتحملون مسئولية تربية اخوتهم الصغار يستحقون المساندة وهو رجل أكرمه الله ببيت جديد وسوف يكرمه الله أكثر إذا تسامح وتنازل لهؤلاء الشباب المكافحين، بعد المناقشات والمحايلات التى استمرت أياما وافق الرجل وتم الاتفاق على قيمة القسط وكتب العقد الذى أخذ محمد نسخة منه طبقها بعناية ووضعها فى جيب الصديرى وأخذ صاحب البيت النسخة الثانية.

فى عودتهما للبلد، بدا الارتياح والشعور بالظفر على وجهى الأخوين وشعر كل منهما أن الدنيا بدأت تمنح تلك العائلة وجها غير الذى تعودته منها وبدا لهما المستقبل واعدا بالفرص وأن عليهم جميعا أن يتمسكوا بما سوف يتاح منها مهما كان صغيرا.

رتب محمد ومحمود أن ينزلا الأجازة التالية معا فأمامهما جهد كبير "للعزال" إلى مقرهم الجديد فى السويس.

باع محمود البضاعة المتبقية فى الدكان لأصحاب الدكاكين الأخرى فى البلد وذهب عبد الله لقنا فاتفق على سيارة لنقل "العفش" (الأثاث) بعد أن منح سائقها العربون واتفق معه على الميعاد وأعطاه ورقة عليها عنوان بيتهم فى السويس.

جاء النجار ليفك السرير والدولاب بغرفة العروسين وربط الرجال المراتب بالحبال وأنزلوا كل شيء للسقيفة، الأسرة الجريد وصندوق الأم وفرش العروسين، رصت آمنة ملابسهم فى حقيبتى محمد ومحمود وصرت الباقى فى صرة كبيرة من القماش وأخرجت نصرة من الحاصل علاوى المش، والملوخية والبصل والبتاو.

فى اليوم السابق للسفر، مروا على بيوت أقاربهم الباقين فى البلد وسلموا على أهلها وأعطوهم عنوان بيتهم فى السويس ليروهم هناك إذا قرروا الهجرة إليها كما يفعلون هم الآن وكما فعل غيرهم من قبل.

فى الصباح الباكر بينما ينسحب الظلام أمام النور، وقفت السيارة أمام باب البيت المفتوح وبدأ أولاد هاشم يخرجون أشياءهم القليلة ليرصها السائق فى صندوق السيارة، أمرت آمنة ولدها عبد الله ليركب مع السائق ليراعى العفش حتى وصوله لبيت السويس. بعد أن تحركت السيارة، دارت آمنة فى البيت الذى شهد حياتها مع هاشم وكان فى كل ركن منه ذكرى معه، أرادت آمنة أن تستعيد رائحة أنفاسه التى ترددت فى فضاء البيت حتى تصاحبها أينما حلت وقررت أن آخر مشهد سيرتسم فى عينيها وعيون أبنائها قبل هجرتهم هو صورة قبر هاشم.

أخبرت أبناءها أنهم سيزورون قبر أبيهم وهم فى طريقهم لموقف الحلزونة التى ستقلهم لقنا ومنها سيأخذون السيارة التى ستقلهم للسويس.

فى طريقهم إلى الجبانة بدت آمنة وأبناؤها كقبيلة صغيرة تحاول أن تجد مكانا يتسع لها تحت شمس الله.

السويس / أبو رديس (1950 - 1967)

1

أعدت لنفسها كوب الشاى وجلست فى الصالة قبالة البلكونة تبحث عن نسمة هواء، جاءها صوت الزعيم المهزوم عبر الراديو:

"لقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدونى عليه، لقد قررت أن أتنحى تمامًا ونهائيًا عن أي منصب رسمى وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدى واجبى معها كأى مواطن آخر".

وجدت "فاطمة" نفسها تجرى بجلباب البيت حافية فى الشارع وهى تلطم خديها وتشعر بالألم فى حلقها والكتل البشرية حولها تتخبط فى بعضها كدوامات بحر مجنون، رأت كثيرين مثلها نساء ورجالا نزلوا من بيوتهم بملابس البيت مهوشى الشعر وعيونهم زائغة من هول الصدمة وحناجرهم ترتج بالهتاف، كانوا يرفضون الهزيمة ويرفضون أن يتخلى عنهم الزعيم بينما الأرض تميد من تحتهم، لم تدر كم من الوقت مر عليها عندما تذكرت فجأة أنها تركت الصغير "أمجد" نائما فى غرفة النوم بينما "خالد" و"نهى" يلعبان مع "فوزية" بنت "أبلة أنيسة"، استغرقت بعض الوقت لتحدد موقعها واتجاه عودتها للبيت، أوقفت سيارة أجرة فسألها السائق بين دموعه:

- على فين يا بنتى؟
- زرب يا عمى.

- ما تبكيش يا بنتى، مش هنسيبه يمشى كده، لازم نحارب ونرد كرامتنا.

فى الأسابيع الأخيرة توقفت فاطمة عن سماع الأغانى والمسلسلات التى كانت تحرص دائما على سماعها فى الراديو فى الصباح وهى تعمل فى "تنفيض" الشقة التى كانت تقلبها رأسا على عقب خاصة مع إقتراب موعد نزول عبد الله من الجبل وبعد الظهر وهى تقف على حوض المطبخ تغسل المواعين وتحضر لغداء اليوم التالى، كانت تحب الغناء مع مطربيها المفضلين حتى حفظت كل أغانيهم وصارت تعرف أسماء الشعراء والملحنين وتميز بين أصوات المطربين حتى غير المشهورين منهم وتعرف أسلوب كل ملحن وتنجح فى معظم الأحيان فى معرفة صاحب اللحن من طريقة التلحين والجمل الموسيقية التى تصبغ ألحانه بصبغة تميزه عن غيره، فتفرق بين ألحان الكبار محمود الشريف وأحمد صدقى والسنباطى وعبد الوهاب والقصبجى وغيرهم من الملحنين الشباب كالموجى وكمال الطويل وبليغ حمدى وكانت تحب أغنيات محمد فوزى بخفة دمها ورشاقة موسيقاها وأغنيات أم كلثوم وأسمهان وليلى مراد وتعلق قلبها بصوت المطربة السورية الجديدة فايزة أحمد.

يومها كان الأولاد يلعبون فى غرفتهم، جلست على السفرة والراديو أمامها، كانت تشعر بالملل والوحدة والحر فأخذت تقلب مؤشر الراديو بحثا عن أغنية، توقفت بالصدفة عند إذاعة صوت العرب، إنقبض قلبها عندما شعرت أن الكلمات التى يرددها صوت المذيع الرخيم فى نشرة الأخبار تحمل نذر حرب وشيكة فتذكرت أجواء عدوان 1956، بفعل القلق الذى استبد بها لم تعد راغبة فى

سماع شيء غير نشرات الأخبار التى أدركت أن كلماتها الجافة هى ما سيحدد مصيرها ومصير أسرتها ومسار حياتهم جميعا، سمعت فى البداية أن مندوب سوريا في الأمم المتحدة قدم كتابا إلى مجلس الأمن يتهم فيه إسرائيل أنها تعد هجوما ضد بلاده، وفى نفس اليوم أعلنت مصر حالة الطوارئ تحسبا لتطورات الموقف، وفي اليوم التالي طلبت سحب قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة في الشرق الأوسط وذلك لوجودها على الجانب المصري من الحدود دون الجانب الإسرائيلى. بعد ذلك بيومين، قالت النشرة أن تقارير صحفية كشفت أن إسرائيل أعلنت التعبئة العامة ودعت الوحدات الاحتياطية للالتحاق بالجيش وأن خمس فرق عسكرية من الجيش الإسرائيلى احتشدت في صحراء النقب قرب شبه جزيرة سيناء ما دفع عبد الناصر لإعلان التعبئة العامة واستدعاء قوات الاحتياط، وردا على ذلك حركت أمريكا في اليوم التالى أسطولها السادس إلى شرق البحر الأبيض المتوسط. فى يوم 22 مايو 1967، أعلنت مصر إغلاق مضيق تيران فى خليج العقبة أمام السفن التي تحمل العلم الإسرائيلى والسفن التي تحمل معدات حربية لإسرائيل التى اعتبرت أن القرار المصري هو عمل حربى وعدائى يجب الرد عليه.

كانت الحرب تصنع مقدماتها والتداعيات تنفلت دون أن يستطيع أو يرغب أحد أن يكبح جماحها.

خلال الأيام التى أعقبت تلك التطورات السريعة، فاضت شوارع السويس بحافلات نقل الجنود المتجهة إلى بور توفيق ومنها إلى سيناء للزحف على تل أبيب، كان معظم الجنود فلاحين يرتدون الجلابيب

وتبدو على وجوههم السمراء سمات الشقاء والكد معجونة بالشمس التى يتعرضون لها طوال الوقت فى سعيهم على أرزاقهم، وقد جئ بهم من قراهم وحشروا فى صناديق الناقلات لخوض الحرب التى صورها الراديو والتليفزيون وكأنها نزهة قصيرة ستنتهى باحتلال "تل أبيب" عاصمة الصهاينة واستعادة فلسطين السليبة. أثارت طوابير الناقلات التى تحمل آلاف الجنود فرحة الناس فهاجوا فى الشوارع يحيون الجنود ويهدونهم الطعام والحلوى و"شفاشق" المياه الباردة ويلقون على مسامعهم كلمات حماسية كانت كأنها أصداء لخطب الزعيم، تطالبهم بمحو إسرائيل من الوجود وإلقائها فى البحر.

صبيحة يوم 5 يونيو استيقظت السويس على أصوات الحرب، تحولت السماء إلى لون اللهب وتناهت أصوات انفجارات رهيبة لم يدر أحد موقعها بالتحديد وامتلأ فضاء المدينة بهدير طائرات كأنها تحوم فوق رؤوس الناس دون أن يتمكنوا من رؤيتها، كانوا يظنون أن الحرب سوف تشتعل هناك على أرض فلسطين وأنهم بعد ساعات وربما أيام قليلة سوف يسمعون أخبار انتهائها بتحقيق النصر كما وعد الزعيم الذى لم يخلف وعدا من قبل، كانوا يتخيلون موكبه المظفر يتهادى فى شوارع تل أبيب حيث يلقى عليهم خطبة النصر معلنا تحرير فلسطين، لكنهم فوجئوا بالحرب تتقد على أرضهم وفى سمائهم، أصابتهم الحيرة وتشككوا أن فى الأمر شيئا لا يفهمونه.

فى المساء ظهرت على طريق بور توفيق بعض مجموعات من الجنود الذين عادوا من سيناء سيرا على الأقدام دون أن يخوضوا حربا أو يفهموا ما الذى يجرى.

صباح اليوم التالى، ترك عبد الرحيم دكانه فى رعاية ابن أخيه "هاشم" بعد أن أوصاه ألا يترك المكان لأي سبب وأن يبيع الأشياء التى يعرف أسعارها فحسب ويعتذر للزبائن إذا كانت البضاعة المطلوبة تحتاج للوزن أو تلك التى لا يعرف سعرها، بدت السعادة على وجه هاشم فها هو عمه يثق فيه لدرجة أن يترك الدكان فى عهدته ما يعنى أنه صار رجلا وقرر أن ينتبه جيدا وألا يستجيب لدعوات رفاقه لمشاركتهم اللعب حتى تكون لديه فى نهاية الأمر قصة يحكيها مزهوا لأمه وجدته، ولأبيه عندما يعود من الجبل.

جاء حسين ليصطحب أخاه فى مشواره كما اتفقا ليلة الأمس.

كانت أصداء الحرب قد استولت على عبد الرحيم فأخذ يتشمم رائحة خطرها الداهم. شعر أنه لن يستطيع البقاء دون أن يعرف ما الذى يحدث وألح طويلا على أخيه الذى لم يكن لديه نفس حماسه أن يرافقه لكنه لم يستطع تركه ليذهب وحده.

نزل الشقيقان متوجهين لبور توفيق، سلكا طريق الكورنيش ومالا منه للطريق الرئيسى الذى كانت السكة الحديد تمر منه وصولا للميناء، عندما بدت على يمينهما الكبائن الواقعة فى نهاية الطريق الفرعى عند كازينو "سمر بالاس" تحولت السماء فجأة للون الأحمر ودوى صوت الانفجارات التى لم يعرفا موقعها بالضبط وأخذ الناس الماشون معهم على الطريق يجرون هنا وهناك باحثين عن شيء يختبأون وراءه من الجحيم المنفلت الآتى من ناحية بور توفيق، تنحيا على جانب الطريق فاقترح حسين بصوت مرتعش يملؤه الخوف أن يعودا للبيت لكن عبد الرحيم

رفض تاركا لأخيه حرية التصرف والعودة إذا أراد، عندما هدأت الدنيا وعاد لون السماء لطبيعته قررا مواصلة السير مع مجموعة من الشباب الذين إختبأوا خلف الأشجار المصطفة على جانبى الطريق ثم خرجوا مثلهما عندما هدأت الغارة. صادفوا فى سيرهم أعدادا قليلة من الجنود الذين بدت عليهم أمارات الإرهاق ونطقت عيونهم بالفزع عندما سألهم بعض الشباب عما حدث فلم يلقوا منهم إجابة شافية.

كان المشهد فى بور توفيق كاشفا ومبددا لكل الأوهام التى عاشوها من قبل، بدت الحقيقة ساطعة كشمس الصيف، الهزيمة الكاملة ولا مزيد.

فى الهناجر الشاسعة التابعة للشركات العاملة فى القناة والتى كانت تحتل مساحات كبيرة من أرض رصيف الميناء وتستخدم فى تخزين البضائع وتوريدات السفن، إصطفت مئات الأجساد لجنود عائدين من الجبهة، كانت بقع الدم الطازج تملأ الأرض والأشلاء الآدمية ملقاة بإهمال، الأجساد ممزقة الثياب تتدلى من بعضها الأطراف المقطوعة وتبدو أمخاخ بعضها مختلطة بالدم المتجلط فى الرؤوس المفتوحة، ورائحة الموت تزكم الأنوف.

لم يستطع أغلب الشباب الذين جاء عبد الرحيم وحسين فى صحبتهم تحمل المنظر أو الرائحة فخرجوا مسرعين يتقيأون خارج الهناجر وهم يرددون الشهادة ويصبون لعناتهم على الصهاينة، تماسك عبد الرحيم وتشبث بيد حسين الذى كاد يتقهقر من هول ما يرى ولكنه استجاب أخيرا لرغبة أخيه فى مساعدة الرجال، أخذوا يقلبون

الأجساد ليتأكدوا من موتها أو بقائها على قيد الحياة، كانت معظم الأجساد جثثا والقليل منها مازال حيا تتردد فيه أنفاس واهية، أخذوا يحملون من بقى على قيد الحياة لخارج الهناجر حيث تقف سيارات الإسعاف لنقلهم للمستشفى الأميرى فى الأربعين أو مستشفى المبرة بحى السويس ثم العودة لنقل دفعات أخرى، واضطروا لترك بعض الأحياء الذين تبدو إصاباتهم بالغة ولم يتبق بينهم وبين الموت سوى لحظات قدروا أنها أقصر من الوقت اللازم للوصول للمستشفى خاصة بعد أن أبلغهم سائقو سيارات الإسعاف أن المستشفيات التى تضطرب بالفوضى قد امتلأت بالجرحى فلم تعد الأسرة كافية ولا عدد الأطباء والمسعفين كافيا لإنقاذ المزيد.

فى الأيام الثلاثة التالية تكرر الأمر بتفاصيل مشابهة، وفى طريق عودتهما مساء اليوم الثالث لاحظا تجمعات من الناس تقف عند المقاهى تتابع شاشات التليفزيون أو تصيخ السمع لأجهزة الراديو، كان الزعيم يلقى خطابه البائس ويطلب التنحى، مع نهاية الخطاب وجد الشقيقان نفسيهما مدفوعين بفيضان البشر الذى تدفق فى الشوارع يأمر الزعيم المهزوم أن يبقى ليصلح ما أفسده هو ورجاله، كانت الحناجر تهتف حانقة:

- أحا أحا لا تتنحى.
- هنحارب.

فى تلك الأثناء كانت فاطمة مشوشة الذهن من صدمة الخطاب وصدمة اكتشافها أنها تركت أبناءها وخاصة الصغير هذه المدة التى

تبدو طويلة فقد ابتعدت بها قدماها عن البيت حتى وصلت قرب مسجد الغريب، عندما وصلت بالتاكسى للبيت اعتذرت للسائق العجوز لأنها لا تملك مالا وطلبت أن ينتظرها حتى تحضر الأجرة من شقتها لكنه ابتسم بمرارة ومضى مسرعا بعد نزولها.

صعدت السلم فى قفزات كبيرة فوجدت باب الشقة مغلقا، وضعت أذنها عليه علها تسمع صوت بكاء الصغير لكنها لم تسمع سوى خروشة الراديو، خبطت باب أبلة أنيسة بيديها ففتحته فوزية وجاءها صوت الأبلة من الداخل:

- إدخلى يا فاطمة، كنتى فين يا بنتى؟
- فين الولاد؟
- جوه يا حبيبتى ما تخافيش.
- وأمجد كويس؟
- كويس، هو عيط شوية وبعدين لما كل "ريرى" سكت وأهو بيلعب مع إخواته.
- إنت جبتيه هنا إزاى؟
- سمعت صوت عياطه بصيت من الشراعة لقيت بابك مفتوح فهمت إنك نزلت بعد الخطاب المشئوم.
- شوفتى يا أبلة عايز يسيبنا ويمشى.
- ربنا يستر يا فاطمة ما حدش عارف مستخبى لنا إيه اليومين الجايين.

وبدأتا فى النحيب.

أيقظتها من نومها فزعة دقات ثقيلة على الباب، كانت قد أدخلت أطفالها لشقتها وغسلت لهم وجوههم وأرجلهم وأمرتهم بالنوم، لم تدر متى أخذها النوم بعد أن ظنت أنه لن يزورها الليلة. نظرت من الشراعة، كان وجه عبد الله غارقا فى الظلام لكنها لاحظت احمرار عينيه وتورمهما، كان يبدو أنه بكى كثيرا، أخذته فى حضنها ومسدت شعره وربتت فوق ظهره. سألته:

- إنت نزلت إمتى من الجبل؟
- نزلونا النهاردة لما سمعنا إن إسرائيل وصلت شرم الشيخ.
- وهتعملوا إيه فى الشغل؟
- ما حدش عارف بس الوضع وحش قوى.
- سمعت خطاب عبد الناصر؟
- سمعته ع القهوة، أنا وصلت السويس بدرى بس ما قدرتش آجى ع البيت ومن ساعة الخطاب وأنا فى الشوارع مع الناس.
- أنا كنت محتاجاك جنبي، أنا نزلت حافية وبجلابية البيت يا عبد الله.
- معلهش، كلنا مصدومين.

تركها فى الصالة ودخل الحمام، عندما استشعرت طول غيابه دخلت تستطلع الأمر، وجدته فى غرفة النوم جالسا على حافة السرير واضعا كفيه على وجهه، كان ينتحب ويهمهم بكلمات لم تتبينها، عندما أحس بوجودها رفع وجهه إليها، كانت نظرته نظرة انكسار أسد جريح، تطلعت إليه بحنان فعلا صوته بالنحيب، تبينت بالكاد ما يقوله بين نهنهاته الحارة:

- أبويا مات النهارده يا فاطنة.

عندما هدأ قليلا استطاع أن يحكى لها ما سمعه من بدو سيناء فى طريقة عودته من أبو رديس، لم يحك لها عن الأهوال التى صادفتهم فى رحلة هروبهم من الجحيم وكيف أفلتوا من الموت مرات عديدة عندما كانت الطائرات الإسرائيلية تحوم فوقهم حتى كادوا يميزون ملامح وجوه طياريها، لم يحك لها عن عشرات الجثث التى رأوها فى الصحراء للجنود المصريين الذين كانت الطائرات تصطادهم كالدجاج بعد أن دفعتهم القيادة لحرب لم يستعدوا لها وتركتهم دون خطة أو تعليمات للحرب أو الانسحاب يواجهون موتا مجانيا دون معنى، حكى لها أن القوات الإسرائيلية لم تهاجمهم هذه المرة من الشمال ناحية بور سعيد كما حدث أيام عدوان 56 ولكنها دخلت عن طريق غزة بعدما تمكنت من السيطرة عليها بعد يومين من مقاومة القوات المصرية بها والتى استشهد منها المئات وأسر الباقى أو فر هاربا، ومن غزة انطلق الجيش الإسرائيلي نحو العريش التي سقطت في اليوم ذاته بعد معركة شرسة على مشارف المدينة استشهد فيها معظم أفراد القوات المصرية التي كانت تدافع عنها، فى الوقت نفسه توجهت بعض القوات لجنوب سيناء حيث دارت معركة أبو عجيلة التى استشهد فيها آلاف الجنود المصريين وبعدها سيطر الجيش الإسرائيلى على شرم الشيخ ومناطق كثيرة فى سيناء، تم كل ذلك بعد أن استباحت طائرات العدو السماء ودمرت المطارات المصرية بينما طائراتنا رابضة فى مرابضها فحسمت الحرب قبل أن تبدأ، عندما وصلت الأخبار بسقوط شرم الشيخ التى لا تبعد كثيرا عن موقعهم وردت إليهم الأوامر أن يغادروا على الفور.

حكت له فاطمة أنها رأت فى الشوارع عشرات الجنود العائدين من سيناء، كانوا يترنحون فى مشيهم ممزقى الثياب وتبدو فى نظراتهم علامات الفزع من هول ما رأوا، كانوا يتكلمون بطريقة غير واضحة عن مئات الجثث التى مات أصحابها على أيديهم أو بجوارهم وأنهم مشوا على أقدامهم أكثر من مائتى كيلو مترا تحت الشمس وفوق الرمال الساخنة واضطر بعضهم أن يشرب بوله ليبقى حيا وأنهم لا يصدقون أنهم مازالوا على قيد الحياة، وحكت وهى تنهنه كيف كان الكثير منهم يبكى بكاء موجعا جعل الناس يبكون على من مات منهم وعلى من بقى منهم حيا.

كانت المدينة الهادئة تهدر بالغضب وتتردد بها أصوات الانفجارات وقد تملك الخوف نفوس الجميع بعد أن ملأت الجو رائحة البارود والدم وصار الناس يتحادثون فى الشوارع والأسواق والمقاهى وفى كل مكان دون سابق معرفة، جعلتهم المصيبة كأنهم أهل أسرة واحدة، كسرت المرارة حاجز الخجل ولم يعد مستغربا أن يفاجئ أحدهم أحدا بالسؤال:

- ناويين على إيه؟
- أدينا مستنيين لما نشوف عبد الناصر هيعمل إيه.
- أكيد هيهجرنا يعنى هيسيبنا نموت هنا.
- مين عارف مش يمكن الموضوع يتحل زى أيام العدوان.
- لا المرة دى العلقة جامدة قوى والموضوع كبير، وبعدين حتى فى العدوان فيه ناس هاجرت.

كان الزعيم قد تراجع تحت ضغط الملايين الهادرة بطول البلاد وعرضها عن فكرة التنحى وأدرك أن خروجهم لم يكن حبا فيه قدر ما هو تحميله لمسئولية الهزيمة ومطالبته بالبقاء حتى يأخذ بيدهم نحو استرداد الكرامة وغسل العار.

عندما بدت مظاهر الإستعداد لهجرة المدينة، شعر الناس أن الهزيمة قد اكتملت وأن عالمهم الذى ظنوه راسخا وأحلامهم التى غرستها فيهم كلمات الرجل قد تحولت إلى أنقاض فوق رؤوسهم وأنهم مقبلون على أوقات عصيبة ربما تستهلك ما تبقى من أعمارهم، كانت الهزيمة الموجعة قد تحولت إلى جرح عام تنطق به نظرات الانكسار البادية فى عيون الجميع.

عمت الكآبة والفزع من القادم المجهول وبدأت حمى الهجرة.

لم يدر أحد كيف جاءت كل تلك الأعداد من سيارات نقل الأثاث وسيارات الأجرة وحقائب السفر التى ملأت المحلات وبائعى الروبابكيا الذين يدورون على البيوت يشترون كل ما قد يستغنى عنه الراحلون أو يستثقلون حمله. كانت البيوت تخرج ما فى بطونها وتلقمه لصناديق السيارات، والبشر يملأون الشوارع ومحطات الركوب والساحات كأنه يوم الحشر.

2

ألحت أبلة أنيسة عليها أن تقنع عبد الله بالهجرة معهم إلى الشرقية:

- عندنا بيت هناك وهاديكم شقة فيه.
- يا أبلة إنت عارفة عبد الله مرتبط بأهله إزاى وأنا كمان مش عارفة أهلى ها يعملوا إيه.
- يا فاطمة إنت غلاوتك بقت من غلاوة ولادى وماقدرش أتصور إنى مش هاشوفك تانى.
- وإنتى عارفة يا أبلة إنى بحبك زى ما تكونى أمى.

لم تكن المرأتان تبالغان أو تجامل إحداهما الأخرى، كانت العلاقة بينهما كأنها علاقة بنت وأمها، ليلة زواج فاطمة سمعت أنيسة جلبة دخول العروسين لليلة الدخلة وتلك الزغرودة التى عرفت منها أن أحد العروسين أو كليهما من أهل الصعيد. كانت أنيسة قد لمحت العريس الأسمر الوسيم أيام تجهيزه للشقة واعتقدت أنه نوبى ولمحت رجلا كبيرا استنتجت أنه والد العروس عندما وجدته يشرف على الحمالين أثناء حملهم للعفش على سلم العمارة، لكنها لم تر العروس إلا فى اليوم التالى للصباحية.

إنتظرت أنيسة حتى انتهت زيارات أهل العروسين التى توالت طوال يوم الصباحية (اليوم التالى للدخلة).

قرب ظهيرة اليوم التالى نقرت الباب نقرا خفيفا فأسفرت الشراعة عن ذلك الوجه البرئ الذى سكن قلبها وتلك البسمة الطفولية التى مست روحها، عرفتها بنفسها وعرفت أن اسمها فاطمة وأن عبد الله هو اسم زوجها وأنهما من أشراف قنا، كانت قد سمعت عنهم من زوجها "الباشمهندس عزيز" الذى حكى لها أنهم أناس طيبون ويفخرون

بأصلهم ولكنهم سريعو الغضب وحساسون لأدنى إساءة وأنهم جاءوا من بلادهم فى أقاصى الصعيد للإقامة فى السويس ليكونوا قريبين من موقع عملهم فى صحراء سيناء التابع للشركة الجديدة التى تنقب عن البترول هناك والتى فضلتهم عن غيرهم لاحتمالهم للعمل الشاق فى الظروف القاسية وقبولهم للبقاء فترات طويلة فى الصحراء دون تبرم أو شكوى وأنهم جاءوا كأنهم قبيلة مهاجرة يدعو بعضهم بعضا حتى صاروا الأغلبية الساحقة من عمال الشركة وأنهم يفضلون الإقامة قريبين من بعضهم البعض كما تعودوا فى البلاد التى جاءوا منها كأنهم يحتمون ببعضهم البعض من الغرباء وأنهم لا يتزوجون من خارج قبيلتهم حتى يحافظوا على نسبهم جيلا بعد جيل.

تعجبت أنيسة من هذه الطفلة التى لم تكمل عامها الرابع عشر وقد صارت زوجة مسئولة عن رجل وبيت وأشفقت عليها من ثقل حملها فقررت أن تخضعها لبرنامج مكثف من دروسها. وجدت لديها رغم صغرها معرفة معقولة بشئون البيت ولكن كان ينقصها الكثير. علمت منها أن عبد الله يعمل بموقع "الشركة الأهلية للبترول" بصحراء سيناء وأن نظام عمله يقتضى بقاءه فى الصحراء ثلاثة أسابيع مقابل أسبوع واحد أجازة فأسعدها أن الوقت سيكون متاحا أمامها للبقاء طويلا مع هذا الملاك الذى تعلق به قلبها.

قالت لها يوما:

- أنا عارفة أنكم بتتجوزوا من قرايبكم بس، هو عبد الله يقرب لك إيه؟

ابتسمت فاطمة حتى لمعت عيناها:

- عبد الله من بلد اسمها المخادمة وأنا من البطاطخة، جد الأولانية يبقى أخو جد التانية والجدود دول جم مصر من أكتر من ستميت سنة.
- ياه وإنتوا لسه بتعرفوا جدودكم اللى من الوقت ده؟
- أيوة يا أبلة عشان أهلنا عمرهم ما طلعوا من بلادهم من ساعتها إلا اليومين دول وعمرهم ما اتجوزوا من براها.

لم تعر أنيسة إهتماما لهذا الأمر ورأت فى تلك الفتاة التى تميل بشرتها للبياض، فى مظهرها وجمالها وليونة جسدها النحيف وروحها شيئا لا ينتمى لقسوة الصعيد الذى يغلب على أهله سمار البشرة وجفاف العود وحدة الطبع.

لاحظ عبد الله تعلق عروسه بجارتهم وتناهى لسمعه وشوشاتهما على الباب، ليلة سفره للجبل للمرة الأولى بعد الزواج قال لها:

- فاطنة، إنت عارفة عوايدنا وتربيتنا، بلاش الاندماج الزيادة إنت لسه ما تعرفيش الناس.
- حاضر يا عبد الله إنت تقصد أبلة أنيسة، بس أنا حاسة إن الست دى طيبة وبتحبنى.
- الحرص واجب يا بت الناس وبعدين أنا اتفقت مع محمود يجيب مرته ويعيشوا معانا.
- كويس عشان أتسلى مع نعمة بدال ما أفضل لوحدى وانت مسافر.

لم يكن صادقا تماما فى قرارة نفسه وهو يحذرها، داخله شعور أن وجود هذه المرأة بجانب زوجته هو من قبيل الصدف الحسنة، أيقن أنها تحب زوجته حب الأم لبنتها وأنها سوف تساعدها فى أن تكون المرأة التى يحلم بها، كان قد اختار زوجته بدافع من شعوره الغامض بأنها حتى لو لم تكن الآن امرأة أحلامه فإن لديها تلك الروح التى سوف تجعلها تكونها، كان يريد امرأة تختلف عن النساء اللاتى ألفهن حوله، امرأة تساعده فى رسم حياة المدينة التى يريد أن يحياها وأبلة أنيسة ستكون هى الباب الواسع لدخول فاطمة لتلك الحياة والعامل الحاسم فى تعليمها وإنضاجها والوصول بها لما يحلم به فى أسرع وقت.

***

عندما جاء عبد الله من الصعيد محشورا بجانب السائق فى سيارة العفش، كان أول أحلامه أن يتخلص من جلبابه المتسخ المتجعد والذى تفوح منه رائحة عرقه النفاذة وأن يستبدله بالقميص والبنطلون والحزام والحذاء اللميع كالأفندية الذين يراهم حوله أو الذين رأى أشباههم فى قنا فى المرات القليلة التى ذهب إليها فيها. لم يكن حلمه أن يقيم بالمدينة بل أن تقيم المدينة فيه، كان يريد أن يصير واحدا من أهلها يفكر مثلهم ويلبس مثلهم ويرى العالم كما يرونه. لم يكن متعلما لكن فطرته وطريقته فى النظر إلى قلب الأشياء دون الانشغال بظاهرها جعلتاه يعرف ماذا يريد، كان يدرك أن تحقيق أحلامه سوف يبدأ من تلك اللحظة التى يجد فيها عملا وكان مفعما بالثقة بنفسه وبذكائه وفى أنه سوف ينجح مهما كانت الصعاب. كان قد أنجز

الخطوة الأهم، أن يزرع نفسه وأهله فى أرض جديدة واعدة بعد أن جدبت الأرض القديمة، لم يكن يكره "المخادمة" لكنه كان يراها وقد ضاقت عليهم ولن تستطيع إحتمال أحلامهم.

عندما وصلوا إلى البيت الذى اشتروه فى السويس، قررت أمه أن تقيم هى وأولادها بالطابق الأرضى وأن يقيم محمد وزوجته الحبلى فى الطابق الثانى. أخذ عبد الله يعمل فى بعض الأعمال المؤقتة ويكسب بعض المال ويعطى أمه جزءا منه، انتظارا للفرصة التى كان وغيره من الشباب فى انتظارها وكانوا يتابعونها يوما بعد يوم. لم يستطع عبد الله البقاء طويلا فى البيت فالشقة أصغر من أن تستوعبهم جميعا وكان يشفق على نصرة أن تقوم بخدمة هذا العدد الكبير رغم تعب الحمل ثم ولادتها لابنتها "هدى" أول حفيد فى نسل هاشم أبو زيد. استأذن أمه فى أن يؤجر غرفة فى "كفر عقدة" فوافقت شرط ألا يمر يوم دون أن تراه، وكان محمود يقيم معه فى أيام أجازاته ما أسعد عبد الله إذ استعاد الأخوان حواراتهما وذكرياتهما وكانا يرسمان فيها ملامح الحياة التى يحلمان بها.

فى الشتاء الأول لوجودهم فى المدينة، عاشوا أوقاتا عصيبة جعلتهم يتطيرون من تلك الهجرة التى بدت تبعاتها أكبر من توقعاتهم فقد كانوا يتحسبون للصعوبات التى ستواجههم للتأقلم على الحياة الجديدة وتدبير شئونهم فى حدود إمكانياتهم، لكن الأحداث الساخنة التى جرت فى تلك الأيام كانت أبعد كثيرا مما توقعوا خاصة وأن حظهم العاثر جعل موقع تلك الأحداث أقرب ما يكون للمناطق التى اختاروها لسكنهم. كانوا فى بلادهم البعيدة يعيشون حياة فقيرة

وجافة لكنها آمنة إلا من بعض الحوادث العارضة التى تتناهى أخبارها إلى أسماعهم ثم سرعان ما ينسوها، شعروا كأنهم كانوا يعيشون خارج العا لم أما هنا فقد وجدوا أنفسهم فجأة فى مركز قلبه المضطرم.

سمعوا تفاصيل الأحداث من خلال الصراخ والحديث الغاضب للناس، كانوا يقولون أن سيارة كانت تنقل قوة من جنود الشرطة المصريين تعطلت في منطقة الأربعين، بالقرب من ورش السكك الحديدية، وأن سائقها نزل لإصلاحها فإذا بالجنود الانجليز، الموجودين في المعسكر البريطاني المجاور، يطلقون النار على جنود الشرطة، الذين قابلوا العدوان بمثله، وأطلقوا النار على الانجليز. واستمرت المعركة بضع ساعات كانت حصيلتها خمسين قتيلا بين مصرى وانجليزى وعددا كبيرا من الجرحى من الجانبين، فى اليوم التالى وبينما أهل المدينة يشيعون شهداءهم أخذ الانجليز يطلقون النار عشوائيا على المشيعين والأهالي ورجال الشرطة وعلى المنازل القريبة وكانت الحصيلة تسعة وثلاثين قتيلا، ولم يكد الناس يلتقطون أنفاسهم حتى اندلعت بعد عدة أيام أحداث كفر أحمد عبده التى كتمت المدينة أنفاسها خلالها إنتظارا للمجهول.

كان الحي يقع بين وابور تكرير المياه التابع للقوات البريطانية، ومعسكرات الجنود البريطانيين وكان يسكنه حوالى ألفى نسمة. قرر الإنجليز إزالة الحى انتقاما من المقاومة التى واجهتهم وكانت الحجة هى مد طريق مباشر بين الوابور والمعسكرات، حددوا لهدم الحى يوم 7 ديسمبر 1951، فاعترضت الحكومة المصرية وقررت الدفاع عن الحى ضد أي اعتداء لكن سلطة الإحتلال أصرت على هدم الحى وقامت

بتجهيز قوات من المدفعية والدبابات والمشاة والمدرعات لاقتحامه بعد أن أجلوا الأمر يوما واحدا حاصر الإنجليز خلاله السويس من جميع أطرافها، ووقفت السفن الحربية البريطانية في القناة وقد صوبت مدافعها نحو المدينة وهي على أتم استعداد لإطلاق مدافعها عند صدور أول إشارة إليها بالتنفيذ. بعد مشاورات بين أجهزة المحافظة والحكومة فى القاهرة قررت السلطات المصرية عدم التعرض للقوات البريطانية حفاظا على أرواح مواطنيها فغادر سكان كفر أحمد عبده منازلهم ليلاً. وفي صباح اليوم التالي، تقدّم عشرة آلاف جندي بريطاني، ونصبوا مدافع الميدان، وصوّبوها نحو المدينة واحتل الجنود سطوح العمارات والمنشآت، للقضاء على أي حركة محتملة للمقاومة، وحلقت الطائرات على إرتفاع منخفض فوق المدينة. في الموعد المحدد، نسف الإنجليز مباني الحى بالقنابل، وأشعل جنود المظلات النيران في المباني التي استعصت على القنابل، وزال كفر أحمد عبده من الوجود.

لم تكتف قوات الإحتلال بما فعلته فقد حدث بعد أقل من شهر أن أطلقت سيارة عسكرية بريطانية النار على عمال ورش السكك الحديدية فرد الحراس المصريون بإطلاق النار على السيارة. وفي الوقت نفسه، كانت قوات تقلها خمسون سيارة تتجه صوب الشوارع المزدحمة وتطلق نيرانها على الناس، فهبّ رجال الشرطة يدافعون عن المواطنين، وتحصّن بعضهم بمنازل كفر محمد سلامة وكفر البراجيلى وأسرع الفدائيون إلى مكان المعركة فبثوا أربعة ألغام في وابور المياه انفجرت تباعا ونسفت بعض مبانيه.

كانت المدينة تغلى وقد جاءت بعد أيام أخبار معركة الإسماعيلية التى قتل فيها الإنجليز خمسين شرطيا مصريا ثم حريق القاهرة الكبير الذى بدأت معه مرحلة اضطراب سياسي ينذر بالخطر.

عندما سمع الناس فى الراديو البيان الأول لحركة الضباط الأحرار فى يوليو 1952، إلتقطت المدينة أنفاسها بعد شتاء عاصف وبدأ الناس فى متابعة أخبار قادة الثورة وترديد أسماء جديدة على سمعهم، فقد عرفوا اللواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر واليوزباشى أنور السادات وغيرهم ورغم فرحتهم بالثورة وقرب تخلصهم من الإحتلال الذى أراهم الرعب فقد كانت وقائع ما قبل الثورة أول مواجهة لهم مع الحرب ما أورثهم قلقا عميقا وخوفا دفينا مما تخبئه الأيام، كان "محمد" إذا إلتقى بأخيه "عبد الله" وتأتى سيرة تلك الوقائع وما تثيره من الخوف من قادم الأيام يقول له بنبرة يختلط فيها الجد بالهزل:

- كان مالها غارب يا بوى؟

لكن اللحظة المنتظرة حانت، بدأ التنقيب عن البترول فى صحراء سيناء الجنوبية وأعلنت الشركة عن فتح باب التقدم لشغل الوظائف المختلفة فتقدم الأشراف وخاصة من المخادمة فرادى وجماعات للعمل بها حتى صار الموقع كأنه جزء كبير منها. جمع العمل بالشركة الإخوة الثلاثة محمد ومحمود اللذين تعبا من الدوران خلف البريمة وفضلا الاستقرار فى مكان واحد وعبد الله الذى لم يغادر السويس وظل يتقافز بين أعمال مؤقتة حتى لا تفوته فرصة اللحاق بالشركة ضمن الرعيل الأول لها.

كان الأمر فى البداية عذابا حقيقيا، فالأرض مقفرة ولا حياة فيها سوى لبعض أفراد القبائل البدوية الذين يرعون أغنامهم حيث يتوافر العشب الذى ينبت على مياه المطر الشحيحة، كان فنطاس المياه يصل إليهم من السويس كل عدة أيام فيوزع الماء على المقيمين فى المعسكر فى جراكن لا يحق لمن يستهلكها قبل المرة التالية لمجئ الفنطاس أن يستزيد من الماء. وكانوا يعتمدون فى غذائهم على ما يحملونه معهم من زوادات أو ما يشترونه من أغنام البدو إذا أوحشهم طعم اللحم، وينامون فى خيام مفروشة بالحصر لم تكن تحميهم من خطر الدبيب (الحشرات السامة كالعقارب) أما العمل فقد كان شاقا إذ كانت معظم الأعمال تتم يدويا وكانوا يحملون المواسير والأشياء الثقيلة لمسافات طويلة تحت شمس الصحراء لكن ذلك كله لم يكن ليؤثر على حماسهم ورغبتهم فى الاستمرار إذ وجدوها فرصة لهم يجب أن يتمسكوا بها ويصبروا على صعوباتها خاصة أنهم سمعوا من رؤساءهم أن الأوضاع سوف تتحسن عندما تبدأ الشركة فى الإنتاج.

بعد أن خطب محمود قام باستئجار غرفة بجوار غرفة عبد الله. خطبت له أمه فتاة من أولاد مرعى كانت أسرتها قد هاجرت للسويس لنفس الأسباب التى هاجر من أجلها الجميع. تم الزواج وكان محمود يوصى أخاه أن يرعى زوجته فى غيابه وأن يشترى لها طلباتها ويوصلها لبيت أهلها إذا أرادت زيارتهم أو البقاء لديهم أياما حتى يعود، ولأن نعمة من بنات عمومته فقد كانت تتعامل معه كأخت حقيقية فاستراح لها واستراحت له، كان يحدثها عن أخيه وعن طباعه وطريقة تفكيره

ليختصر عليها الوقت والجهد كى تفهمه وترضيه ولا تتصرف بشكل يغضبه أو ينفره منها.

بعد سنتين من عمله بالشركة واستقرار أحواله، أراد عبد الله أن تكون له امرأة يستريح معها من شهوة الرجولة التى تلح عليه وأن يكمل نصف دينه ويصنع الحياة التى كان يحلم بها، ولكى يتخلص أيضا من إلحاح أمه عليه بالزواج كلما رأته وترشيحها للعرائس من بنات المخادمة ممن يسكن حولها للزواج منه ومطالباتها له أن يزور بيوتهن حتى يراهن فإذا أعجبته واحدة اتفق مع أهلها على المهر وموعد الزواج. لم يكن عبد الله يميل لترشيحات أمه من البنات فهو يعرف معظمهن وكن بالنسبة له أخوات لا يشعر نحو إحداهن بشعور خاص، كن بالنسبة إليه النموذج السائد المتاح العادى لذا تجاهل محاولات أمه التى كان يعرف أنها تنجح مع إخوته. أخذ يبحث بنفسه عن فتاة بها طابع المدينة لا تحمل على عاتقها أثقال التربية فى الصعيد دون أن يكون فى سلوكها وأخلاقها شيء يتناقض مع الأصول وكانت تلك مهمته الصعبة التى ساقته الصدفة إلى إنجازها قبل أن يأخذه اليأس مضطرا إلى اختيارات أمه.

رآها عندما كان يزور أخته خديجة للاطمئنان عليها كما طلبت أمه لأن زوجها أبو زيد إبن عمه الذى عمل بالشركة وأقام مع زوجته فى شقة صغيرة بالبراجيلى كان يسافر للجبل ويتركها بمفردها، كن مجموعة من البنات بينهن أخته يلعبن "الأولة" أمام مدخل البيت وكانت هى بينهن بنظرتها الحالمة ووجهها الأبيض المحمر من أثر اللعب، رآها كأنها أميرة من أميرات الحواديت وحولها وصيفاتها، عندما سأل أخته عنها قالت:

- دى فاطنة بت عمى "عبد المطلب" وخالتى "سرية" اللى بقعد معاهم لما يسافر أبو زيد.

عاد مسرعا إلى أمه يومها ليطمأنها على ابنتها كما ظنت ولكنها عرفت السبب الحقيقى لعودته السريعة:

- إسألى لى يامه عن عمى عبد المطلب وخالتى سرية اللى بيراعوا خديجة.
- دول ناس زنين قوى يا ولدى وأبو زيد بيستأمنهم على أختك، ليه عنديهم بت للجواز؟
- أيوة يامه بت بيضة وحلوة وزى الأميرات.
- يا عينى، لا، طالما بيضة وحلوة نسأل.

شمرت آمنة عن ساعد الجد وبدأت زياراتها للنساء من أقاربها فى البراجيلى وخاصة اللاتى قدمن للسويس قبلها فصارت لهن خبرة فى أصول الأسر التى جاءت من قنا قبل وصولهم.

عرفت أن فاطمة دخلت المدارس وأنها تعرف القراءة والكتابة وأخرجت من المدرسة رغم تفوقها بعد سنة تالتة إبتدائى وهى كبرى بنات الأستاذ عبد المطلب الموظف بشركة "أنابيب البترول" ويعمل فى موقعها بمنطقة عجرود على الطريق الصحراوى بين مصر والسويس وأن أمها هى الست سرية التى تحظى بسمعة طيبة فى المنطقة ويشهد الناس على حسن تربيتها لبناتها إذ لديها غير فاطمة بنتان وولد رضيع ابن شهور. وأنهم جاءوا من البطاطخة منذ سنين ليسكنوا قرب عمل الوالد فى عجرود وأن أهلهم مازالوا فى البطاطخة فى بيتهم المجاور لمقام

الشيخ البوهى، فجد البنت هو الباش ريس "عاشور" الذى يعمل مشرفا فى شركة رصف الطرق وكان المسئول عن رصف طريق مصر السويس الصحراوى وهو مشهور بالجد والصرامة والهيبة بشواربه الطويلة التى "يقف عليها الصقر"، وجدتها هى الست "نزيهة" إحدى سيدات البطاطخة المعروفات بطيب الخلق وعراقة الأصل.

باركت آمنة اختيار ولدها وتم ترتيب موعد الزيارة بمساعدة أبو زيد جار أسرة العروس والذى لم يتوقف عن امتداح كرم أخلاقها هو الذى لم يجد سواها لرعاية زوجته فى غيابه رغم أن المنطقة تعج بأقاربه من المخادمة.

تمت الخطبة والاتفاق على المهر والفرش وعندما جاء الكلام عن مكان الزواج أبدى والد العروس اعتراضه أن يتم الزواج فى الغرفة التى يقيم فيها عبد الله، كان يرغب أن تتزوج ابنته فى شقة حتى لو كانت صغيرة ووعد العريس بأن يبدأ من أجازته القادمة البحث عن شقة فأجازته الحالية قد انتهت وهو عائد غدا لعمله فى سيناء.

لم تر فاطمة عريسها سوى للحظة خاطفة وقت أن أدخلت صينية القهوة والتى أعادتها أمها للمطبخ بعد أن شرب الضيوف قهوتهم متعمدة أن ترى ابنتها الخطيبة "الورقة بخمسة" (خمس جنيهات) وقد وضعها العريس دليلا على إعجابه الشديد بها ورغبته فى إتمام الخطبة. لم ترتح فاطمة لارتدائه الجلباب وتمنت لو أنه كان يرتدى كوالدها القميص والبنطلون والحزام، عندما ألمحت لذلك أمام أمها قالت لها أن هذه الأمور مقدور عليها وأنها تستطيع أن تغيرها

فيه لكن الأهم هو أخلاقه والتزامه وقدرته على فتح بيت ورعاية أسرة، لكن ما لاحظته فاطمة وخجلت أن تلمح إليه هو سواد بشرته، لكنها تراجعت عن رأيها سريعا فهو رغم سواد بشرته وسيم ولون عينيه يتراوح بين العسلى والرمادى وتلوح فيهما نظرة جذبتها إليه كأنها وعد غامض بالسعادة.

3

عندما بلغ عاشور سن الشباب أدرك أن وجوده فى البطاطخة لن يضمن له عملا دائما، كان يتنقل بين الأعمال التى يصادفها فيعمل يوما ويجلس تحت اللبخة أياما فقرر أن يذهب إلى قنا للبحث عن فرصة. وجد فرصته فى العمل برصف الطرق وعندما استراح له المشرف لجديته والتزامه عرض عليه أن يساعده كى يعين بالشركة فأخذه لمكتب فرع الشركة وملأ له طلبا للتعيين فأرسل الفرع الطلب للإدارة المركزية بالقاهرة وتم تعيين عاشور عاملا دائما.

تدرج عاشور حتى صار ريس عمال وأصبح الريس عاشور مسئولا عن فرقة من فرق العمل التى تتنقل بين الطرق الموضوعة على جدول الرصف، كان قد تزوج نزيهة قريبته البيضاء الجميلة وأقام فى بيت أبيه وأنجب ابنه البكرى عبد المطلب وجاءته بشارة مولوده الثانى وهو يعمل فى رصف الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس حيث كان العمل قد وصل وقتها عند مقام "الشيخ الدكرورى" الشهير على الطريق والذى كان الصعايدة ينطقونه "الدكرونى" فسمى ابنه الثانى

"دكرونى". عندما وصل العمل لمنطقة عجرود على الطريق احتاجت فرقة الريس عاشور للماء بعد أن نفذ الماء منها وكان الوقت صيفا، إستحى أن يرسل أحد رجاله لموقع الشركة القريب للتزود بالماء فقرر أن يذهب بنفسه فهكذا يكون تصرف أولاد الأصول، سأله الحارس على البوابة:

- خير يا أخ، عايز حاجة؟
- خير يا خيي، مين الريس هنا عشان نستأذن منه فى شوية ميه.
- أجيب لك ميه، الموضوع مش مستاهل الريس.
- لا معلهش ممكن تندهولى؟
- حاضر بس لو كان فاضى.

جاء ريس الموقع متعجبا من الرجل الذى يطلب مقابلته خصيصا لطلب بعض الماء فسلم عليه وأمر الحارس بتجهيز جراكن الماء ريثما يشرب الرجل كوب شاى معه، مع الشاي جرى الحديث فدخل كل منهما قلب الآخر وبدأت دون مقدمات علاقة ود وصداقة حميمة، حكى له عاشور أنه من أشراف قنا وأنه مقيم فى بلدته البطاطخة وله ولدان وأنه يجوب البلاد من شرقها لغربها ومن بحريها لقبليها وراء الطرق التى جاء دورها فى الرصف وينزل أجازة لمدة شهر كل ستة أشهر عمل، وحكى له الريس "عمران" أنه من جهينة بسوهاج ولكنه تركها وأقام فى السويس فى كفر البراجيلى لالتحاقه بالعمل بشركة أنابيب البترول التى يجلسان فى أحد محطاتها المنتشرة فى شرق البلاد إذ أن الشركة مسئولة عن الأنابيب التى تنقل البترول من مناطق إنتاجه

إلى معمل التكرير فى السويس وأن المحطات التى تنشأ على خطوط الأنابيب تعمل على رفع ضغط البترول بواسطة الطلمبات حتى يستطيع قطع المسافات الطويلة ليصل لمصانع التكرير وأن العاملين بالمحطة مسئولون عن العناية بالطلمبات والبلوف والخزانات ومعظمهم يقيم فى السويس لقربها من موقع المحطة.

إنتهى عمل الريس عاشور فى عجرود ولكن صداقته بالريس عمران لم تنته فكانا يتبادلان الخطابات بعد أن أعطى كل منهما للآخر عنوان بيته بالتفصيل، ومن خلال الخطابات كان أحدهما يعرف أخبار الآخر ويطمئن على أحواله وأحيانا عندما يقرب جدول العمل "الباش ريس" عاشور من السويس كان ينتهز الفرصة لزيارة صديقه وقضاء بعض الوقت معه.

حصل عبد المطلب على شهادة الإبتدائية من المدرسة فى قنا وبدأ البحث عن عمل، أرسل عاشور لصديقه عمران خطابا يطلب منه فيه إيجاد وظيفة بالشركة لابنه البكرى عبد المطلب حتى يزوجه ويطمئن عليه وأكد له أنه يطلب منه ذلك من عشمه ومحبته له. جاءه الرد بعد شهرين بأنه سأل فى الشركة ووجد لعبد المطلب وظيفة "مساعد قياس" بنفس المحطة التى يعمل فيها بعجرود والتى سيعمل شاغلها فى مساعدة القياس فى مراقبة الخزانات وقياس مستوى البترول فيها وأبلغه أن عبد المطلب بمثابة ولده وأن العشم فى محله والمحبة موصولة بين القلوب التى يقلبها الله حيث يريد.

إستقبل الريس عمران ابن صديقه فأنهى له إجراءات التعيين وساعده فى البحث عن غرفة بالإيجار للسكن وإن تمنى ألا يتركه يسكن بعيدا عنه لولا أن لديه بنات لا يصح أن يقيم معهن غريب حتى لو كان ابن أعز أصدقائه. أعجب عمران بأخلاق الولد وتمنى أن يزوجه إحدى بناته لولا علمه بأن الأشراف لا يتزوجون إلا من أقاربهم من الأشراف.

بعد استقرار أحواله نزل عبد المطلب البلد وكانت أمه الست نزيهة قد اختارت له سرية بنت الحاج "إسماعيل عطا" ليخطبها عند عودته وبارك أبوه هذا الاختيار فوالد العروس صديقه وقريبه من ناحية الأم. تزوج عبد المطلب وجاء بعروسه إلى السويس حيث استأجر شقة بدلا من الغرفة التى كان يقيم فيها وهو أعزب، بعد أقل من سنة على الزواج أنجبت له سرية ابنته فاطمة التى ملأت عليه حياته وخففت عنه وعن أمها جفاف الغربة والبعد عن الأهل وبعد فاطمة جاءت "عزة" ثم "هالة" وبعدهن جاء الذكر بعد أن ظن الزوجان أن الله كتب عليهما خلفة البنات. كان "محمد" مازال رضيعا عندما جاء عبد الله وأهله ليخطبوا أخته الكبرى التى تكبره بثلاثة عشر سنة.

شهدت الأيام التالية للخطبة نشاطا محموما، كانت سرية ترتدى ملابسها وفوقها الملاءة السوداء وتحمل رضيعها فوق كتفها بعد أن تسنده باليد اليسرى وفى اليمنى تمسك ابنتها العروس التى ألبستها للمرة الأولى ملاءة سوداء فوق ملابسها. فى الشارع العمومى تشير الأم لسائق الحنطور للذهاب لشارع النمسا وشارع الكسارة وما

حولهما لشراء جهاز العرس وتعود وابنتها بعد الظهر منهكتين لتكررا الرحلة فى الصباح التالى حتى أتما شراء الجهاز.

كان الوالد بعد أن تسلم المهر المتفق عليه من أخى العريس الكبير محمد قد دفع عربون الأثاث لنجار فى كفر كامل ليصنع غرف النوم والسفرة والصالون على أن تكون جاهزة بعد ثلاثة أشهر حتى يتم الزواج بعدها بأيام، كانوا لا يحبذون إطالة أمد الخطبة كما يفعل أهل المدينة حتى لا يدخل الخطيب ويخرج دون أن تكون له صفة رسمية ولا يفضلون أن يكتب الكتاب قبل الزواج فيظن الخطيب أن له حقوقا فى البنت قبل ليلة الدخلة.

عندما عاد عبد الله إلى السويس بدأ فى البحث عن شقة حسب وعده لأهل العروس، لم يبحث فى المناطق التى تسكن فيها عائلات الأشراف فى البراجيلى أو كفر عقدة أو غيرها، كان يريد أن يجرب الحياة خارج القبيلة فلم يكن لديه ذلك الخوف أو التحفظ الذى يشعر به أهله من الاختلاط بغيرهم من أبناء القبائل والبلاد الأخرى. كان منذ جاء إلى أرضه الجديدة حريصا على تكوين صداقات مع من يشعر تجاههم بالمودة، كان متلهفا أن يرى الناس دون النظر إلى أنسابهم ليتأكد لديه الإحساس بأن الناس نوعان كما تؤكد أغانى الشعراء الذين تربى على مواويلهم فى ليالى الديوان بالمخادمة، أصلاء طيبون أو أنذال شريرون ولكل أخلاقه وعاداته وأصله فإذا كانت قبيلته تسمى الأشراف فذلك الاسم لا يعنى إحتكارهم لمعنى الشرف ولكن التسمية جاءت لتمييزهم كقبيلة وليس استعلائهم على غيرهم بالانتساب لآل البيت، وقد صار له أصدقاء نوبيون وجعافرة وهوارة وبراهمة وعبابدة ومعظمهم

ينتمون لقبائل عربية مثل قبيلته هاجرت واستقر مقامها فى مصر منذ مئات السنين، وكان له أصدقاء من أهل محافظات الدلتا أيضا. كان الوصول لهذه الأفكار حتى دون البوح بها خطيئة فى نظر المتعصبين من أهله فأراد أن يتخلص من ذلك التعصب دون أن يفقد إحساس الفخر بنسبه الكريم لذلك اتجه فى بحثه خارج الأماكن التى أقاموا فيها جنبا إلى جنب وكأنهم يحاولون استعادة قراهم الأصلية ومواجهة العالم الجديد الذى يخافونه ولا يفهمونه ككتلة واحدة متجانسة، كان قد مل من أن يظل جزءا من عالم ضيق ثابت لا يتحرك وتمنى أن ينتمى للعالم الواسع وأن يحظى باعتراف هذا العالم أو أن يواجهه إذا كان ذلك ضروريا حتى يعترف به.

فى الأيام الأخيرة للأجازة، لمح عبد الله لافتة كبيرة مكتوب عليها "شقة فاخرة للإيجار" معلقة فى بلكونة بالدور الثالث لعمارة حديثة البناء، كانت شقة واسعة مكونة من ثلاث غرف وصالة كبيرة ومطبخ وحمام فى عمارة مكونة من أربعة أدوار لها مدخل واسع نظيف وسلم من الرخام وواجهتها مدهونة بدهان أصفر وتقع فى منتصف شارع متفرع من شارع الجيش، الشارع الرئيس بالسويس، ويقع الشارع الجانبى بحى "زرب" الراقى حيث توجد أفرع البنوك ومحلات البقالة الكبيرة والأفران الأفرنجى والمطاعم الفاخرة. عاين عبد الله الشقة بعد أن أخذ مفتاحها من ساكن الدور الأرضى وذهب لصاحب العمارة فى العنوان الذى أخذه من الساكن واتفق معه على استئجارها بعد أن سأله الرجل عن أصله وفصله وعمله وطلب منه أن يريه بطاقته مدونا فيها وظيفته واسم الشركة التى يعمل فيها وألزمه بسداد قيمة إيجار

الشهر الأول ضمانا للجدية ثم طلب إمهاله يومين لإعداد عقد الإيجار لكن عبد الله أخبره أنه مسافر لعمله فوعده الرجل أن الشقة صارت له وأن عقدها سيكون جاهزا لتوقيعه عند عودته بالسلامة.

أوفى الرجل بوعده وبدأ عبد الله فى تجهيز الشقة التى لم تكن تحتاج لعمل كثير وتم تحديد موعد الزواج بعد الاطمئنان أن النجار سيفى بالموعد المحدد لاستلام العفش، كان محمود يصحب أخاه أحيانا فى مشاويره لمتابعة العمل فى تجهيز الشقة أو شراء شيء من لوازمها فأعجبته وأعجبه اتساعها وموقعها ولأنه كان قد ضاق بالغرفة التى يقيم فيها فقد عرض على أخيه أن يقيم معه فيها:

- مش كتير الإيجار عليك يا عبد الله؟
- مش قوى وبعدين يا أخى الوسع حلو والمكان على وش الدنيا مش فى الكفور.
- إيه رأيك أجيب نعمة ونسكن معاكم هنا وأهو الإيجار يتقسم على اتنين.
- مش فكرة الإيجار يا محمود إنت لو عايز تسكن معاي أنا ما عنديش مانع.
- أنا بقول نعيش سوا وأهو اللى فينا أجازة يراعى الحريم بدل ما يقعدوا لحالهم (وحدهم) مدة طويلة.
- طيب، بس تعزلوا بعد ما نتجوز أنا وفاطنة، خليها تفرح بدخلتها.
- اتفقنا، ربنا يتمم لك بخير يا خوى.

بعد زواج عبد الله وفاطمة بمدة قصيرة جاء محمود بغرفة نومه ففرشها فى الغرفة المخصصة له ولزوجته، كانت الغرفة الثانية لنوم العروسين الجديدين والغرفة الثالثة للجلوس حيث وضع الصالون المذهب المكون من كنبة كبيرة وستة كراسى وترابيزة لها قرصة من الرخام والصالة يشغلها طاقم السفرة الكبير المكون من ترابيزة تكفى لإثنى عشر فردا، وبوفيه فوقه مرآة كبيرة رصت فيه أم فاطمة أطقم الصينى وسرافيس تقديم الطعام، ودولاب فضية لصقت مرآة على كل من ضلفتيه من الداخل رصت فيه أطقم الأكواب والأطباق الكريستال والتحف.

كان فى نفس فاطمة شعور بالغبن لم تعلنه لأحد سوى لأمها التى نهرتها وأوصتها ألا تجعل هذه الأمور التافهة تفسد حياتها. لم يكن لديها أي اعتراض على حياتها المشتركة مع سلفتها فذلك أهون كثيرا مما تسمع عنه، إذ من المعتاد عند العائلات فى أوساطهم أن يتزوج الأبناء جميعا فى بيت العائلة مع والدى الزوج فيكون لكل واحد منهم وزوجته غرفة نوم تكون هى المظهر الوحيد للخصوصية أما بقية الأشياء فهى مشاع للجميع والخدمة واجب الجميع، وكانت تسمع عن معاناة رفيقاتها اللاتى سبقنها للزواج فى بيوت العائلات والتى تصل الأمور فيها أحيانا للطلاق عندما لا تستطيع البنت التأقلم مع هذا الوضع أو تستنكف أن تخدم إخوة زوجها تحرجا من التعامل مع أشيائهم خاصة ملابسهم الداخلية وهو ما يراه أهل الزوج مبالغة أو سوء أدب من الزوجة التى ينبغى فى عرفهم أن تفكر فى إخوة زوجها كما تفكر الأخت فى إخوتها لا كما تفكر المرأة فى الرجال.

لكن شعورها بالغبن كان متعلقا بعفشها الذى فرحت به والذى كان حديث الجيران والأقارب والمعارف الذين لم يعتادوا على مثله فى أوساطهم، كانت تفكر ولا تفهم لماذا تكون هذه الأشياء وهى ملك لها ولزوجها وقد أكمل والدها على المهر الذى دفعه زوجها ليشتريها وتعب عليها من مشاويره للنجار والأسترجى حتى تكتمل، ثم يأتى بعد ذلك من يستخدمها ويستمتع بها دون أن يدفع أو يتعب، بل إنها كانت تلمح فى عيني نعمة نظرة التفاخر حين يأتى أقاربها لزيارتها وهى تسمعهم يمتدحون الشقة والعفش دون أن تشير من قريب أو بعيد أنها شقة فاطمة وعفش فاطمة، كما تفعل نعمة أيضا عندما تزور أهلها وهى ترتدى فساتين فاطمة وأحذيتها وتتركهم يعتقدون أنها فساتينها وأحذيتها هى. كان شعور فاطمة بانتهاك نعمة لخصوصيتها وضيقها من ادعاءاتها المزيفة ينتابها بشكل مؤقت سرعان ما تنساه لذا لم يترك تأثيرا كبيرا على العلاقة بينهما فكان من يراهما يظن أنهما أختان أو صديقتان.

فى وجودهما بمفرديهما وبعد أن يفرغا من أعمال البيت كانتا تلعبان ألعاب البنات، تخرج نعمة من دولابها العرائس المصنوعة من القماش المحشو بالقطن وتحمل كل منهما عروسة تمثل طفلها الذى تهدهده وتطعمه حتى إذا ملا، لعبا لعبة الأولة فى الصالة بعد أن يزيحا بعض قطع الأثاث وكانت نعمة أحيانا تلح على فاطمة أن تغنى لها الأغانى التى تحفظها من الراديو الذى اشتراه لها عبد الله وكانوا يستمعون منه إلى الأخبار والأغانى والتمثيليات. كانت فاطمة تحب أغانى "عبد الغنى السيد" و"عبد العزيز محمود" و"محمد قنديل" وغيرهم ويتردد صوتها

الجميل بأغنياتهم ما يدفع أبلة أنيسة للطرق على الباب حتى تسمع الغناء عن قرب، ثم ما تلبث نعمة أن تدخل غرفتها لتنام فترة الظهر ما يعطى الفرصة لأبلة أنيسة فى استكمال دروسها لفاطمة.

كانت تعلمها أصول الإيتيكيت وكيفية التعامل مع الضيوف واختيار التفصيلات المناسبة للفساتين وطريقة الكلام مع الغرباء وإبداء الاحترام الزائد للزوج أمامهم وكانت الأبلة تشير من بعيد وفى احتشام صارم إلى واجبات الزوجة فى العلاقة الحميمة مع الزوج الذى ينبغى أن يشعر بالرضى حتى لا ينظر خارج بيته. كانت دروس الأبلة تذكرها بكلام أمها المقتضب عن تلك الأمور والتى كانت الطفلة التى كانتها لا تعيرها الاهتمام الواجب فأين هى ساعتها من أن يكون لها بيت وزوج، أما الآن وقد صار لها بيت وزوج فهى أحوج ما تكون لمن يأخذ بيدها فى دروب هذا العالم الغامض.

بعد سنة من زواجها أنجبت فاطمة بكريها "سميح". عندما جاءها الطلق أرسلت نعمة فى طلب حماتها "نينة آمنة" لكى تولدها كما ولدت نصرة فى ابنتها هدى. جاءت آمنة بخبرتها المشرعة بفعل الهواء تهرول متكأة على كتف نعمة وكان محمود وعبد الله فى عملهما بالجبل. عندما جاء الولد استراح وجه آمنة وتسامحت مع غصتها عندما جاء أول أحفاد هاشم أبو زيد على يديها فوجدتها أنثى. قامت نعمة بمساعدة "خالة سرية" فى خدمة سلفتها الوالدة ورعايتها وعندما عاد الزوجان سرت روح الفرحة فى البيت وتوافد الأعمام والأقارب للتهنئة بالذكر الذى اعتبروه أول جذر يغرسونه فى أرضهم

الجديدة وتمنت نعمة أن يرزقها الله بمولود حتى تفرح قلب زوجها وحماتها وتكون ذات يوم كفاطمة محط الفرحة ومركز الاهتمام.

بعد شهرين من ولادة سميح تأكد شعور فاطمة الذى لم تبح لأحد به أن وليدها الذى يبدو عليه الهزال الشديد لن يستمر فى الحياة طويلا، كان الطفل دائم البكاء ولا يبقى فى معدته شيئا مما ترضعه أمه له فى "البيبرونة" إذ أن صدرها لم يكن يدر اللبن الكافى لإشباعه، عندما عرضته على الطبيب الذى أخذتها إليه أبلة أنيسة أكد لها مخاوفها وفسر لها أنها طفلة ولدت طفلا وأن الولد نزل ضعيفا لأن جسمها الضعيف لم يكن مؤهلا للحمل والولادة خاصة أنها لم تهتم بنوعية طعامها وشرابها أثناء الحمل وأنها تأخرت لقلة خبرتها فى الكشف عليه. نزل كلام الطبيب القاسى عليها كأنه مطارق دقت رأسها وأصابت قلبها بالكمد فلم تتوقف عيناها عن ذرف الدموع.

ذات ليلة وقد كانت نائمة، استيقظت فجأة وبداخلها إحساس مزعج، تحسست الطفل النائم بجوارها فوجدت جسمه باردا، وضعت كفها قبالة أنفه فأدركت أن الله استرد منها وديعته. كاد الحزن يمزقها وهى تخرج متجهة لغرفة نوم محمود ونعمة اللذين استيقظا مفزوعين على خبطها الثقيل على الباب وما إن فتحه محمود حتى سقطت مغشيا عليها.

جاءت آمنة تكفكف دموعها على أول ذكر فى ذرية أولاد هاشم وفى قلبها انقباض أن تكون تلك إشارة من الله أن التربة الجديدة لا تقبل جذرهم الغريب عنها، إطمأنت على كنتها وعزتها ولفت الجسد

الصغير فى الكفن الذى أحضره عمه، ونزلت هى ومحمود حيث استقلا حنطورا للذهاب للروض وقد سبقهما إليه أبناؤها أعمام الطفل المتوفى أبو بكر وحسين وعبد الرحيم الذين كانوا قد أنهوا إجراءات تصريح الدفن فى مكتب الصحة، بعد الدفن عاد الجميع للأم الثكلى بعد أن عرج حسين على إدارة الشركة لإرسال برقية لإبلاغ عبد الله حتى يعود ليكون بجانب زوجته المكلومة ومحمد حتى يصاحب أخاه فى السفر ولا يتركه وحده لأحزانه.

كان هذا هو أول لقاء لفاطمة بالحزن الذى لم تعرفه فى حياة طفولتها اللاهية عن وجه الدنيا عندما ينقلب. كانت طفلة تزوجت ولما تزل تلعب بالعرائس لعبة الأمومة فإذا بها تجد نفسها دون أن تدرى من أمرها شيئا أما حقيقية ولها طفل حقيقى من لحم ودم وليس مجرد دمية محشوة بالقطن، آلمتها الطعنة حتى ظنت أنها لن تبرأ منها أبدا وأدركت وقتها تفاهتها حين شعرت بالغبن حيال تصرفات نعمة فليتها فقدت كل شيء وبقى لها وليدها. جاءها عبد الله، كان حزينا على فقدانه ولده الأول الذى خبر الأبوة عندما رآه لحما أحمر ملفوفا فى قماطه لكن حزنه الأكبر كان عليها هى طفلته التى حلم أن تأخذه إلى عالمها البرئ المفعم بالحنان وتفتح له أبواب المدينة المستعصية على خشونة حياته.

أخرج عبد الله نحو زوجته كل مشاعر الأبوة التى لم تحظ بفرصة النمو بغياب الوليد لكنها تفجرت كجدول ماء يحملها تياره خفيفة إلى شاطئ الحياة. هزمت فاطمة أحزانها بحنانه وهزم عبد الله أحزانه باكتشاف مكامن الأبوة التى لم يكن يعرف موقعها فى روحه من قبل

ودارت دورة أيامهما حتى أحست فاطمة بنطفة جديدة تتشكل فى أحشائها.

4

التحق أبو بكر بالعمل فى الشركة ليصير الرابع من أولاد هاشم بها وعمل فى نفس الإدارة التى يعمل فيها شقيقه عبد الله الذى والاه بالرعاية وعلمه أسرار العمل وجعله ساعده الأيمن. بعد فترة جاء الدور على أبو بكر كي يتزوج ليساهم فى تثبيت أركان قبيلة آمنة فى الأرض الجديدة. اختارت له أمه عروسا من قريبات أمها من أولاد مالك، كان أهلها أصحاب أرض فى المخادمة يعمل فيها أخوة العروس عدا كبيرهم الذى كان قد التحق للعمل بالشركة وانتقل ومعه أخته اليتيمة إلى السويس، كانت فتاة هادئة مطيعة قليلة الكلام وكأن آمنة صنعتها على عينها.

كان عبد الله فى زيارة أهله، عند عودته أخبر زوجته:

- أبو بكر خطب بنت من المخادمة اسمها "غالية".
- والله، ألف مبروك، مش دى البنت قريبة نينة آمنة اللى حضرت فرحنا؟
- أيوه هى، دى انتى فاكرة كل حاجة أهو.
- وده يوم يتنسى يا عبده.

عندما نطقت الاسم الذى تدلله به أحس نحوها بحنان بالغ وأخذها فى حضنه طويلا ثم غابا عن العالم.

ظهر يوم فرح أبو بكر وغالية فاجأها بفستان أحمر وحذاء وحقيبة سوداوين، ذهبت للكوافير الذى فرد لها شعرها وسرحه تسريحة على الموضة، وعندما عادت جاءتها أبلة أنيسة فزينتها حتى بدت كأنها هى العروس فى جلوتها. يومها كانت فرحته فرحتين، فرحة بزواج أخيه وفرحة بعودة زوجته من متاهة أحزانها على وليدها.

فى المساء، كان الرجال أمام البيت يصفقون ويغنون ويلعبون لعبة التحطيب على أنغام فرقة المزمار البلدى:

وتعالى قوللى تعالى قوللى تعالى قوللى
على ما ساوى فرشتى وأرش فلى
خد وردة ف كمك يا عريسنا خد وردة ف كمك
دى عروستك حلوة يا وله نقتها أمك
خد وردة ف شالك يا عريسنا خد وردة ف شالك
دى عروستك حلوة يا وله نقاها خالك

وفى داخل البيت تصاعدت جلبة البنات والنساء، كانت إحداهن تضرب على الطبلة وأخرى ترقص والبقية تصفق وتزغرد، مالت نعمة على أذن فاطمة تطلب منها أن تغنى فغنت بعد أن غالبت خجلها:

بان عليا حبه من أول ما بان
ياما كنت باحلم والله بحبه من زمان
كان الحب حبة بان طرحت محبة
وعيون الحليوة يا عينى
بحر من الحنان

فى غمرة انفعالها بالكلمات التى تغنيها، لمحت فاطمة قريبات زوجها وهن يتغامزن عليها فابتسمت وأرادت أن تمعن فى الكيد لهن فاستمرت فى الغناء:

من أول ما شفت عيونه
أنا قلت الليالى يهونوا
تحميه السما وتصونه
أنا شفت اللى مستنينى
وعرفت اللى هيهنينى
من أول ما بان
دى عيون الحليوة يا عينى
بحر من الحنان

فى طريق عودتهما، كان الحنطور يتهادى على الكورنيش مارا بالأشجار السامقة التى تلمع من خلفها انعكاسات أنوار الكازينوهات المنتشرة بطول الكورنيش على الماء، كانت المدينة ساحرة فى الليل وزادها سحرا صحبة فاطمة التى أحست بنشوته فداعبته هامسة:

- ما كنتش عارفة إنك بتحب اللون الأحمر للدرجة دى.

ابتسم فأردفت هامسة:

- نعمة عندها طقم أحمر تحفة، هاستلفه منها الليلة دى.

لم يستطع منع نفسه من القهقهة وهو يقول:

- بس أوعى يشوفك محمود يفتكرك هي، مش عاوز أخسر أخوى.
- إطمن، محمود مسافر بكره من الفجر، أكيد زمانه روح ونام.

- وده عز الطلب.

أخرجه حديث زوجته الضاحك وتلميحها المثير من تأملاته التى استدعاها شعوره بالنشوة من السحر الذى يعيش فيه تلك الليلة، كان يفكر فى السويس وكأنها خلقت من أجله هو، عندما كان يحاجج أخاه محمد فى اختيار موضع لهجرتهم لم يكن يعلم عنها الكثير، مجرد وصف عام ومعلومات قليلة تناهت إلى سمعه من أحاديث عمه أحمد، لكنه كان يحس بحدسه أنها ستكون مدينة أحلامه التى ستحنو عليه وتعطيه الفرصة كى يحيا كما يحب، أحب شوارعها وأشجارها والبحر الذى يحتويها بفضائه، أحب أماكن السهر التى يرتادها مع أصدقائه ومزاجه الرائق -من تأثير زجاجة البيرة المشبرة- وهو عائد إلى البيت فى آخر الليل، أحب محلات البقالة وأصحابها اليونانيين بلكنتهم المبهجة عندما يشترى منهم الأطعمة التى تمنح لياليه مع فاطمة طعما لذيذا وأحب مداعبات صديقه "بانيوتى" وهو يزن له الأنشوجة والبسطرمة والجبن الرومى بالفلفل الأسود، أحب شعوره الذى يملأ عليه لياليه وهو فى الصحراء، شعور الاشتياق إلى مدينته ممتزجا باشتهائه لفاطمة، تنبه على صوت سائق الحنطور:

- يس.

أمسك يدها حتى تنزل ثم نزل وراءها، نفح السائق أجرته مع إكرامية كبيرة ثم ربت على رقبة الحصان ومضى، لم يستطع التحكم فى مشاعره وهما صاعدان على السلم الهادئ إلى شقتهما، إحتضنها برقة وقبلها قبلة عميقة وطويلة كانت إشارة قوية لها أن تلك الليلة تستحق القميص الأحمر المثير.

إستيقظت مبكرة فأعدت الإفطار وأيقظته، بعد الإفطار ارتدى ملابس الخروج ونزل ذاهبا إلى مقر فرع الشركة لإجراء اتصال بالموقع بعد أن اتفقا على زيارة أبو بكر وغالية بعد الظهر للتهنئة بالصباحية. كانت سعيدة وبدت سعادتها فى إشراقة وجهها التى لم تخطئها عين أبلة أنيسة:

- صباح الجمال، دى الليلة باين عليها كانت مزهزهة.
- وبعدين يا أبلة ما تكسفينيش بقى.
- أخبار النونو إيه؟
- مش عارفة لسه مش حاسة بيه.
- خدى بالك يا بنتى من نفسك لازم تاكلى كويس وتشربى لبن حليب.
- ما انت شايفة أهو ده أنا حاسة إنى تخنت قوى.
- بلاش كلام فاضى، عايزين نتعلم يا بطة.

نصحتها أبلة أنيسة بالخروج لشم الهواء حتى تنفتح شهيتها وتتحسن نفسيتها وأكدت لها أن الخروج مع زوجها سوف يكون له فعل السحر على علاقتهما، كانت قد اعتادت أن تخرج مع عبد الله لزيارة أهله وأحيانا أهلها وكان هو يخرج وحده ليقابل أصدقاءه وزملاءه فى العمل على المقهى أو فى كازينو فندق "بلير" وأحيانا فى كازينو سمر بالاس على طريق بور توفيق، لكنها لم تفكر فى أن تطلب منه أن يخرجا معا. قالت:

- هو بيخرج يقابل أصحابه على القهوة أو فى الكازينو.

- يا عبيطة هو انت هاتقابلى أصحابه معاه، أنا قصدى تروحوا جنينة أو تتمشوا سوا فى بور توفيق.
- أجرب يا أبلة.

شرعت فى تنفيذ الفكرة فى أجازته التالية، ذات ليلة قبل أن تنام أعدت بعض الفطائر والعصائر ووضعتها فى حقيبة مع ملاءة سرير قديمة، فى الصباح أيقظته وطلبت منه أن يرتدى ملابسه لأن لديها مفاجأة له، طاوعها مندهشا فلما صارا فى الشارع طلبت منه أن يشير لتاكسى ليذهب بهما لبور توفيق، أعجبته الفكرة فأشار لأول سيارة. تنسما الهواء القادم من البحر وجلسا قليلا يتأملان السفن الكبيرة العابرة فى القناة وقوارب البمبوطية الصغيرة التى تحوم حولها، ثم تمشيا فى الشوارع الهادئة يتأملان الفيلات الصغيرة ذات الطراز الأوربى بأسقفها المائلة ولونها الأحمر الطوبى والتى كان يقطنها الخواجات العاملون فى القناة، وعندما ارتفعت الشمس فى السماء توجها إلى حديقة "الفرنساوى" الشاسعة وتأملا أشجارها ونباتاتها النادرة الجميلة. تحت شجرة ضخمة يغطى ظلها مساحة كبيرة فرشت الملاءة وأخرجت الطعام والشراب وعبد الله ينظر إليها كأنها ساحرة تأتى بالأعاجيب.

تكررت مفاجآتها فكانت كل أجازة تخصص يوما للخروج حيث يقضيان جزءا من اليوم خارج البيت. أحس عبد الله بسعادة كانت خارج تصوراته عن السعادة إذ كانت هذه الأوقات التى يشعر فيها بالتحرر من القيود تعمق من علاقته بزوجته وتعطى حياتهما شكلا لم يعتده فى علاقات الأزواج من حوله وتجعله يرى صورا للمدينة لم يكن يعرفها حتى أحس أن للمدينة روحا تلامس روحه يكاد يراها رأي العين.

لكن الحرب أطلت بوجهها فكدرت صفو الحياة وأشعلت القلق والرعب من المستقبل فى النفوس.

كانت فاطمة تسمع الأخبار فى الراديو عن مشروع السد العالى فى أسوان والذى أعلن عبد الناصر عن نيته البدء فيه ليحمى الأرض من الفيضان الذى يهلك الزرع ويدمر البيوت والطرق وليولد منه الكهرباء، وعن رفض البنك الدولى منح مصر الأموال اللازمة لإنشائه وعن الضغوط التى يتعرض لها عبد الناصر من الدول الكبرى حتى لا يتمم مشروعه الطموح وفوجئت وفرحت كغيرها عندما أعلن ناصر عن قراره بتأميم القناة لكنها لم تدرك أن أبواب الجحيم ستفتح بدءا من تلك اللحظة. لم تكن السويس هى أرض المعركة لكن حممها اللاهبة كانت تلفحها، دارت المعركة بعد ثلاثة أشهر من قرار التأميم على أرض سيناء وفى "بور سعيد" لكن السويس ومعها "الإسماعيلية" كانتا معهما على خط النار، كان الجميع يترقبون تطورات الموقف لكن أحدا لم يكن يتوقع ما فى جعبة الأيام القادمة.

قررت آمنة أن تعود بأولادها حسين وعبد الرحيم إلى قنا وتركت الاختيار لأولادها الكبار أن يعودوا معها أو أن يبقوا، قرر عبد الله أن يبقى ليراقب تطور الأمور ويعرف إن كانت الحرب ستمتد لباقى إقليم القناة أم أن ناصر سوف ينتصر فى المعركه الضارية التى كان يخوضها فى الأمم المتحدة والتى كان عبد الله يحرص على معرفة أدق تفصيلاتها من مداومته على قراءة "الأهرام" كل صباح، لم يكن يتصور أن يترك مدينته بهذه السرعة ولم يكن يرغب فى أن يرهق زوجته فى السفر الطويل وهى حامل لن تتحمل أى قلق لاحتمال فقد جنينها بعد أن

فقدت وليدها الأول، عاد للسويس بعد أن هاجمت إسرائيل سيناء واحتلت أجزاء منها، اجتمع الأخوان وزوجتاهما فى الصالة، سأل: عبد الله:

- هنعمل إيه يا جماعة، أمى واخواتى هيرجعوا البلد.

ردت فاطمة:

- اللى تشوفه إنت ومحمود، بس أنا رأيى نستنى شوية يمكن الأحوال تهدا.
- أنا برضه شايف كده، ربنا ينصرك يا جمال.

علق محمود:

- وأنا رأيى من رأيكم وكمان نعمة حامل وما عايزهاش تتبهدل وتبقى فى خطر بعد الصبر ده كله.

خفف خبر حمل نعمة من شعور التوتر الذى اعترى الجميع لكن عبد الله وفاطمة اندهشا من كتمان محمود ونعمة الخبر عنهما وهم يعيشون معا تحت سقف واحد، تبادلا نظرة خاطفة، لكن عبد الله قام فاحتضن أخاه مهنئا وقبلت فاطمة نعمة وهى تقرصها برفق فى خدها:

- وده خبر تخبيه يا مكارة؟
- معلهش كنت مستنية أتأكد وبعدين اتغمينا من الحرب ونسيت.

كانت نصرة قد أنجبت بنتا ثانية أسموها "ليلى"، حرصت فاطمة وقتها على الذهاب مع عبد الله لتهنئة محمد ونصرة بها وأصرت على

شراء هدية للمولودة على غير ما تعودوا، كانوا يكتفون بالنقوط فى مثل تلك المناسبات لكنها أرادت أن تفعل ما تجده أكثر رومانسية وتطورا، تركت عبد الله ينقط نصرة أمام زوجها حتى يؤدى الواجب وعند انصراف الرجلين حضنتها وقبلتها وقبلت المولودة ووضعت بجوارها علبة الهدية التى كانت عبارة عن ماشاء الله صغيرة من الذهب عيار 18، أكد هذا التصرف رغم تفاهة المسألة الشعور لدى عبد الله وبقية العائلة أن هناك شيئا مختلفا فى فاطمة وكانت آمنة هى أكثرهم فهما أنها هى الاختيار الأنسب لولدها لأن لديه هو أيضا منذ صغره شيئا مختلفا عنهم رغم الروابط المتينة بينهم، كانوا يدركون أنه بحاجة لامرأة مثلها تصنع له نمطا مغايرا لنمط حياتهم.

ذهبوا جميعا ليبلغوا العائلة بقرارهم ويسلموا على المسافرين،كانت غالية حاملا ولاحظت فاطمة أن بطنها كبر بشكل ملحوظ منذ زيارتها السابقة لهم، إنتحت بها جانبا وهمست مداعبة:

- شكلك حامل فى راجل.

ابتسمت غالية وعلقت:

- يارب يا فاطنة عشان حماتك تخف عن نصرة.
- ليه يعنى عشان جابت بنتين، هم البنات وحشين يا ناس، طيب إيه رأيك أنا نفسى فى بنت.
- أوعى يامنة تسمعك، دى بتحبك ما تخلهاش تقلب عليكى.

كانت فاطمة تحب نصرة وغالية لأسباب يتعلق معظمها بعبد الله، فنصرة هى التى احتملت خدمة أهل زوجها ومنهم عبد الله بكل

صبر وكان عبد الله يذكرها دوما بكل خير ويثنى على طيبتها وإيثارها أما غالية فقد كانت ليلة زواجها هى البداية الحقيقية لقصة حبها له.

اجتمع الجميع فى شقة الدور الأرضى التى كان أبو بكر وغالية قد شغلوا غرفة منها، تكلم محمود:

- إحنا هنفضل هنا يا جماعة يمكن الأمور تهدا ولو ما حصلش لا قدر الله هانحصلكم.

قالت آمنة:

- ياولدى تعالوا معانا وأهو كلنا نتلم بدال ما أموت من القلق عليكم كل ساعة.
- يامه مرتى حامل ومرة عبد الله حامل والاتنين مش ناقصين، واحدة مات لها ولد والتانية حبلت بالعافية، إن شاء الله ربنا هينصر عبد الناصر والأحوال تهدا.
- على راحتكم يا ولدى، ربنا ياخد الصهاينة واللى مقويينهم علينا الكلاب ولاد الكلاب.

كان كل شيء جاهزا للرحيل، بكوا جميعا وهم يودعون بعضهم البعض غير أن آمنة ابتسمت وسط دموعها ابتسامة لم يلحظها أحد عندما تذكرت أنها ستزور هاشم قريبا وترش فوق قبره الماء وتضع فوقه الجريد الأخضر وسوف ترى بيتها مرة أخرى بعد مرور السنين وتلتقى بخيالاتها التى أودعتها كل ركن فيه.

5

بعد شهرين كان ناصر قد حقق معجزته وهزم العدوان الثلاثى فى أروقة السياسة الدولية وأعلنت بور سعيد حرة بعد أن صارت أشهر مدينة فى العالم وانسحبت إسرائيل من الأجزاء التى احتلتها فى سيناء، سمحت الشركة لعامليها بالعودة للعمل بالموقع فعاد عبد الله ومحمود وفى أول أجازة لهما ذهبا للسلام على أمهما وإخوتهما بعد عودتهم من البلد، كانوا قد أقاموا فترة هجرتهم السريعة فى بيتهم بالمخادمة الذى حكوا أنه ضاق عليهم وإن كان من حسن حظهم أن الوقت شتاء فراحت أمهم تهون عليهم أمر الزحام بقولها:

- إتدفوا بأنفاس بعض مافيش غطا كفاية.

حكى له أبو بكر عن قسوة الصعيد مقارنة بالسويس وحتى بأبو رديس، فالظلام هناك مطبق والليل طويل كأنه بلا نهاية، حكى كيف كانوا يموتون من الرعب كل ليلة من احتمال لدغ العقارب لهم واضطراره للذهاب إلى قنا لشراء عدد كبير من الكلوبات وضعوها فى كل مكان بالبيت حتى لا تفزع النساء والصغار وكيف رفض إلحاح إخوة زوجته لتقيم معهم بعيدا عن الزحمة إشفاقا عليها وهى حامل وكيف أنهم كانوا يتوقون للحظة عودتهم للسويس وكم كان يفتقد هو للعمل وجو الحقول، علق عبد الله:

- حمد الله على السلامة وعلى لمتنا تانى، زرتم قبر أبوك يا بكر؟
- أمال يا خوى، تانى يوم وصولنا وكل أسبوع لحد آخر يوم لينا هناك.

- الفاتحة على روحه.

مع صعود نجم ناصر ونجاحه الساحق فى تثبيت أركان دولته الناهضة سرت فى الناس روح جديدة وصارت السويس كخلية نحل، فالعمل فى القناة كانت مسئوليته قد انتقلت بالكامل للمصريين بعد طرد الإنجليز والفرنسيين فتوفرت فرص كثيرة للعمل بها، و ضمت معامل تكرير البترول التى أممت الكثير من الناس وراجت أحوال المدينة غير أن الشيء الذى أحزن عبد الله هو ملاحظته الاختفاء التدريجى للباعة اليونانيين من متاجرهم التى انتقلت ملكيتها إلى أصحاب المحلات المجاورة لهم من المصريين، شعر بالأسى أنه لن يرى صديقه بانيوتى مرة أخرى، كان يعرف من خلال تعامله وتبادل الحديث والقفشات المصرية الخالصة معهم أنهم مصريون وأولاد بلد حقيقيون وأنهم يحبون مصر بإخلاص، وكان يستمتع بلكنتهم فى الكلام التى يظهر فيها عدم قدرتهم على نطق حرف "الحاء" أو "الهاء" فكانوا ينطقونهما "خاء"، كان يداعب صديقه متهكما عندما يمر عليه فى دكانه:

- فيه خلاوة طخينية يا خبيبى.

فيقهقه بنايوتى قائلا:

- لا يا خبيبى فيه خيار مخلل.

سمع أن ذلك قد حدث فى كل المحافظات مع اليونايين والإيطاليين وغيرهم من الخواجات وحتى اليهود المصريين. فكر عبد الله فى أصول أجداده الذين جاءوا من خارج مصر وسأل نفسه هل كان لأحد الحق فى أن يطالبهم بالرحيل إذا حدثت مشكلة ما مثلا بين مصر

والسعودية وهل يمارى أحد فى أنهم أبناء هذه البلاد كغيرهم، فكر فى شعور هؤلاء الذين أكرهوا على ترك مدن ولدوا أو عاشوا جزءا من أعمارهم فيها وعملوا وأحبوا وتزوجوا وأنجبوا أبناءهم فيها وهم يجدون أنفسهم فجأة مكرهين على العودة إلى بلاد تركوها وربما تقطعت بهم كل السبل لبدء حياتهم بها أو استئناف حياة كانت لهم قبل رحيلهم عنها، فكر فى نفسه، ألم يكن احتمال تركه للسويس سيفا مسلطا عليه طوال الشهرين الماضيين؟ فكر فى أمه وإخوته، ألم تجبرهم الحرب على الابتعاد مئات الكيلو مترات والتكدس فى بيت من الطين اللبن دون كهرباء ودون ملابس أو أغطية تقيهم البرد حيث كانت أجسادهم تتراص على الأرض أو فوق الأرائك الخشنة؟، كره عبد الله ساعتها الحرب أكثر من أى شيء آخر ورأى كيف يدفع الإنسان البسيط أيا كان أصله وجنسيته ثمن مغامرات الساسة والقادة الذين لا تعنيهم حيوات الناس قدر عنايتهم بمجدهم وجنونهم بالخلود الموهوم، عندما ذهب به التفكير لتلك النتيجة كاد أن يلوم ناصر على سماحه وربما أوامره بتهجير هؤلاء البسطاء وتكديرهم لكنه عاد فأخذ يعدد لنفسه مبررات ناصر التى اضطرته لذلك ثم شغل عن الأمر كله فى غمرة نشوته بالنصر وانتهاء احتمالات تركه لمدينتة الحبيبة..

أعلن فى الراديو والجرائد عن نية الزعيم فى زيارة السويس إحدى مدن القناة التى كانت رمزا لانتصاره على "الإمبريالية العالمية" وكانت أزمتها إيذانا بغروب شمس "بريطانيا العظمى الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس"، كان الناس فى قمة حماسهم وكانت أحلامهم تلامس السماء.

حرص عبد الله الذى أنقذته نهاية الحرب من الجنون بعد شهرين قضاهما بين البيت والمقهى أن يكون ضمن الجموع التى ستنال شرف استقبال الزعيم. فى قطار مكشوف لاحت هيئة ناصر من بعيد وهو يخرج رأسه وجزءا من جسمه خارج شرفة القطار رافعا يده اليمنى لتحية الجماهير التى احتشدت على جانبى شارع الجيش الذى كانت تتوسطه السكة الحديد بينما الناس تهتف باسمه بحماس يصل لدى بعضهم حد الهيستيريا:

- بالروح بالدم نفديك يا جمال.

لحظة موازاة القطار لموقع وقوف عبد الله هيأ له خياله وسحر اللحظة التى يمر بها أن ناصر اختصه هو بنظرته ولاحت على وجهه ابتسامة عذبة شعر عبد الله أنها موجهة إليه هو فمست قلبه وأطارت عقله من الفرحة، كان يرى ناصر كبطل أسطورى يجسد أحلامه فى الحياة وقد استمد من صلابته فى مواجهة العالم وخروجه من أزمته العاصفة مرفوع الرأس زادا من الصبر والجلد والإصرار على أن يصنع مجده الشخصى دون أن يهتم بالعثرات التى تصادفه هنا أو هناك، كان ناصر هو ملهمه بأن إرادة الإنسان وموهبته وجهده الدؤوب هم من يحددون مصيره وليس العالم وكان ناصر فضلا عن ذلك فى العمق السحيق لنفسه بديلا للأب الذى رحل ولما يزل أبناؤه فى حاجة لدعمه وحمايته.

إنتظمت الدنيا فى مدارها، ولدت فاطمة بنتا أسموها "راوية" وولدت نعمة بنتا أسموها "سناء" وولدت غالية ولدا أسموه هاشم على

اسم الجد الراحل، إستقبلت آمنة حفيدها هاشم الصغير بفرحة عارمة فقد عوضها الله به عن سميح الذى مات ابن شهرين وصار هاشم الذكر الأول فى الجيل الجديد من قبيلتها الصغيرة.

مع تحسن الأحوال، فكر محمد وأبو بكر أن ينتقلا إلى بيت جديد، وجدا ضالتهما فى بيت من دورين فى كل دور منهما شقتان فى منطقة "الهويس" حيث مصب ترعة الإسماعيلية المصدر الوحيد للمياه العذبة للمدينة، باع محمد البيت القديم وأكمل أبو بكر الثمن المطلوب للبيت الجديد فصار ملكا مشتركا لهما، إنتقلت العائلة وبنى الأخوان بمرور الوقت دورين آخرين بعد أن جعلا الدور الأخير شقة واحدة كبيرة لرغبتهما فى العيش معا ومعهما أمهما وأخواهما الصغيران حسين وعبد الرحيم بعد أن حجزا لهما شقتين ليتزوجا عندما يحين الأوان وأجرا بقية الشقق التى سكنت فى إحداها أختهما خديجة مع زوجها الجديد "مبروك عبد الظاهر" ابن بلدتهم من أولاد شاهين والذى قدم من المخادمة للعمل بالشركة وتزوجته خديجة بعد طلاقها من ابن عمها أبو زيد الذى لم تنجب منه، إذ كانت خديجة طفلة لم تزل عندما تزوجته فلم يدخل عليها وكان يعاملها كأنها أخته انتظارا لنضجها وبلوغها سن الزواج والعشرة لكنها عندما بلغت رفضت الاستمرار معه بعد أن تمكن منها إحساس الأخوة تجاهه ولم تستطع تغيير دفة مشاعرها لتعطيه جسدها.

عندما بدأت أمور العائلة فى الانتظام بعد فترة الاضطراب الأولى التى تخللها التحاق الإخوة بالعمل فى الشركة ثم زواج من جاء دوره فى الزواج وانتقال آمنة وأولادها محمد وأبو بكر وحسين وعبد الرحيم

للبيت الجديد، أدركت الأم أن انشغالها فى تلك الأمور قد شغلها عن أمر هام.

كان اجتماعهم كعائلة يحدث نادرا وحسب الظروف والمصادفات، وكانت زيارات ولديها محمود وعبد الله وزوجتيهما لبيت الهويس تتم دون ترتيب أو التزام بموعد محدد، فكرت آمنة أن الأمور لو تركت تجرى حسب الرغبة أو توافر الوقت فسوف يضعف ارتباط أفراد العائلة بعضهم البعض مع الوقت وكثرة المشاغل خاصة أن أبناءها الخمسة الذين يعملون جميعا فى مكان واحد يرون بعضهم البعض باستمرار وربما تفتر حماستهم لتبادل الزيارات فى أوقات الأجازات.

كانت ترغب فى رؤية أبناء هاشم وذريتهم كتلة واحدة فى مواجهة ملمات الزمان وكانت تخشى عليهم أن تجرفهم عادات المدينة فينسون ما تربوا عليه من الحرص على اللمة والفخر بأصلهم وتاريخهم، لم تكن قلقة على ارتباط أبنائها كل بأخيه ولكن كان ما يهمها أن تعتاد النساء والأطفال على الإحساس بمعنى الانتساب للعائلة الذى يمنح المرء شعورا بالقوة ومتعة المشاركة فى الفرح والشدة، عندما تبلورت الفكرة فى ذهنها، انفردت ذات مساء بولدها الأكبر محمد وفاتحته فى الأمر:

- ليا طلب عندك يا ولدى.
- خير يامه.
- عايزين ننضف السطح ونوضبه.
- حاضر يامه، بسيطة، بس ليه؟
- عايزة نتجمع فيه كلنا كل يوم جمعة.

أحضر محمد البنا فبنى سورا بارتفاع متر حتى يأمنوا على الأطفال وسوى أرضية السطح بالأسمنت وأحاط الفرن بسور قصير حتى يفصلها عن مساحة السطح الممتدة بعد أن ترك مساحة مناسبة لأعمال الخبيز، وأوصى النجار ليصنع عدة كنبات للجلوس أحضرها أبو بكر من الورشة عندما نزل أجازة واشترى عددا من الحصر لفرش الأرض وأشرفت آمنة على كل شيء حتى صار السطح جاهزا لتنفيذ خطتها.

فى الجمعة الأولى بعد إعداد السطح، كان محمد ومحمود وعبد الله فى الجبل فأرسلت عبد الرحيم ليأتى بفاطمة ونعمة من زرب بالحنطور. قبل آذان الظهر، كان الجميع على السطح وقد امتلأ بالحركة والضحكات ولهو الأطفال وجلست آمنة فوق الحصير وحولها أحفادها تلاغيهم وتقبل شفاههم وتتمتم بآيات القرآن وهى تملس على أجسادهم الغضة.

صار تجمع العائلة قبل ظهر الجمعة عادة لا تنقطع، يحضرها الجميع عدا من كان بالجبل من أبنائها وقد اعتاد عبد الرحيم أن يذهب للعودة بفاطمة ونعمة وأطفالهما فى الأوقات التى يكون أخواه فيها بالجبل. فى البداية كان عدد الأحفاد قليلا وكانت أيام الجمع تمر هادئة ولكن بمرور السنوات وكثرة عدد الطفال صار الصخب هو ما يميز تلك الأيام، قبل الموعد كانت الأمهات تحممن الأطفال وتلبسهن ثيابا نظيفة استعدادا للصلاة فى الجامع القريب من البيت، قبل النزول للصلاة كانوا يقفون فى طابور ليمروا واحدا تلو الآخر على منقد البخور حيث عادت آمنة تمارس نفس الطقوس التى كانت تمارسها فى سقيفة بيتها القديم بالمخادمة وهى تتذكر هاشم مرتديا جلبابه الأبيض النظيف وهو ينظر إليها باسما عندما تصر أن تبخر ما بين أقدامهم ثم

وهو يتقدم أولاده متجهين لأداء الجمعة فى جامع أولاد مرعى حيث تنتظرهم طبلية الغداء بعد عودتهم من الصلاة وقد رصت عليها أطباق الطعام، أما البنات فكن يساعدن أمهاتهن فى تنظيف السطح وترتيبه وإعداد طعام الغداء ثم ينزوين فى ركن قصى يتبادلن الحكايات أو يلعبن ألعاب البنات.

بعد عودة الرجال والأولاد من الصلاة، كانت الصوانى والأطباق ترص على الملاءات المفروشة فوق الحصر حيث يتحلق الرجال والأولاد الكبار فى حلقة وتتحلق النساء والبنات والأولاد الصغار فى حلقة أخرى تتصدرها آمنة التى كانت تحرص أن يقرأ الجميع الفاتحة على روح أصل العائلة هاشم قبل أن يبدأوا تناول الطعام، كانت تضع صينية اللحم على يمين أكبر أبنائها الحاضرين لكى يوزع "النوايب" على الرجال والأولاد ثم يسلمها لها كى تكمل التوزيع على كناتها وصغارهن وبعد الغداء تنزل النساء لغسل المواعين وإعداد الشاى بينما تقوم البنات باعادة ترتيب المكان.

بعد ولادة هاشم وراوية وسناء اقترحت آمنة على أولادها أبو بكر وعبد الله ومحمود أن يذبحوا ذبيحة لكل منهم احتفالا بمولد أول أحفادها الذكور وفرحا بأن الله قد عوض عبد الله وفاطمة عن فقد وليدهما سميح وعوض محمود ونعمة بالخلف بعد طول صبر، رحب الرجال بالفكرة وقد أبهجهم أنهم سوف يقومون بالذبح بأنفسهم ليستعيدوا ذكرى أبيهم الراحل ويسترجعوا تفاصيل الذبح التى كادوا أن ينسوها.

ذهبوا للجناين بريف السويس بعد أن دلهم أحد الأقارب على تاجر مواشى هناك مشهور بجودة بضاعته ومهاودة أسعاره، اختار عبد الله جديين شابين ممتلئين باللحم واختار أبو بكر ومحمود خروفين عفيين واتفقوا أن يخرجوا نصف الذبائح لله وأن يوزعوا الباقى على إخوتهم بعد أن يتغدوا غداء الجمعة التالى منه.

كان يوم الجمعة التالى يوما مختلفا خاصة بالنسبة لأحفاد آمنة وكناتها اللاتى لم يشهدن عملية الذبح من قبل، وكانت فاطمة أكثرهم انبهارا بمهارة زوجها وهى تراه يقوم بذبح الحيوانات وسلخها وتنظيفها وتقطيعها بمشاركة محمد وأبو بكر ومساعدة محمود وعبد الرحيم، لاحظت فاطمة فارق خبرة محمد ومحمود وعبد الله فى تلك الأعمال عن خبرة أبو بكر، فسرت آمنة لها الأمر بأن أبو بكر كان صغيرا ولم يشهد أباه إلا فترة قصيرة تعلم فيها معظم ما تعلمه بالنظر دون أن يمارس الأمر بيده أما الكبار فقد قضوا فترة أطول مع أبيهم، ثم غمزت لها موشوشة:

- بس جوزك كأنه نازل من بطنى جزار.

بعد إتمام الذبح كانت فاطمة على موعد مع انبهار أكبر من انبهارها بزوجها الجزار، كانت آمنة كأنها استعادت شبابها عندما جلست أمام الطسوت التى وضعت فيها "معاشات" الحيوانات المذبوحة وأخذت تنظفها واحدا تلو الآخر بمساعدة كناتها كما كانت تفعل فى الزمن القديم، ثم تقطع اللسان والطحال والكبدة لقليها والفشة والأمعاء والكرشة لطبخها بالدمعة (الصلصة)، أثناء ذلك لاحظت

فاطمة التفاهم التام بين حماتها وبين نصرة وغالية اللتين كانتا تفهمانها بمجرد النظر لعينيها وشعرت كم هى مختلفة عن هذا النوع من النساء رغم حبها لهن وتمنت أن تكون علاقتها بتلك الأم القوية كعلاقة سلفتيها بها وقررت أن تحاول أن تبلغ ذلك ولو بطريقة مغايرة.

***

عوضت راوية أمها فاطمة عن حرمانها من الأمومة بعد أن جربتها مدة شهرين، كانت الطفلة شغلها الشاغل ولعبتها البديلة عن العروسة القماش المحشوة بالقطن، كانت تستشير أبلة أنيسة فى كل شئون تربية الصغيرة والعناية بها، اشترت لها ألعابا كانت توصى محلا فى شارع النمسا بإحضارها خصيصا لها من القاهرة وملابس على أحدث موضة كانت تفصلها لها عند خياطة أبلة أنيسة فى شارع الكسارة ومشغولات ذهبية على مقاسها توصى عليها "الخواجة ريمون" الجواهرجى واشترت لها بيانو صغير لتتعلم عليه مبادئ الموسيقى على يد "أبلة فيولا" مدرسة الموسيقى فى مدرسة الراهبات، كانت تأخذها معها فى زياراتها للبيت الكبير فى الهويس وكانت آمنة تفرح بها وتقبلها كلما نادتها بكلمة "تيتة" التى لا تسمعها إلا منها فقد اعتادت آمنة على أن يناديها أحفادها المحيطون بها بكلمة "ستى"، وكانت راوية هى لعبة عمها عبد الرحيم الذى كان يغافل أمه ويأخذها للشارع ليشترى لها الحلوى واللبان ويقابل أصدقاءه حيث يتباهى أمامهم بأن له ابنة أخ تبدو كأولاد الخواجات فى بياضها ونظافتها وطريقة لبسها الأنيق، وكانت الطفلة تشيع فى بيت جدها عبد المطلب جوا من المرح والبهجة فى لعبها مع

خالها محمد وتدليل خالتيها عزة وهالة لها وقدرتها على إخراج تيتة سرية وجدو عبده عن وقارهما بشقاوتها وملاغاتها لهما.

عندما صار عمر راوية سنتين جاءت لها بأخ سماه أبوه خالد تشبها بزعيمه الملهم فى تسمية ابنه الأكبر وبعده بأقل من ثلاث سنوات جاءت نهى ثم جاء أمجد بعدها بحوالى سنتين.

6

التحق حسين بالشركة فصار الأخ الخامس بها وانضم بوساطة من أخوته الكبار للعمل فى وردية التشغيل مع أخيه محمود، كانت نعمة قد ولدت "شوقى" ونصرة قد ولدت ذكرها الأول الذى أصر عمه عبد الرحيم أن يسميه على اسمه بعد أن ردد على سمعها القصة التى روتها له أمه آمنة عندما كبر، أخبرته أن أباه هاشم كان قد سافر لقنا مع كثير من رجال البلد لحضور "ليلة النص" وهى الليلة الختامية لمولد سيدى عبد الرحيم القناوى الذى كان الاحتفال به يبدأ فى أول شعبان من كل عام وتقام ليلته الختامية ليلة النصف من شعبان، بينما كانت هى تنتظر الولادة بين لحظة وأخرى، وأنها كانت قلقة على أبيه من تلك المعارك التى كانت تشتعل فجأة بين أبناء القبائل المحتشدين فى المولد لأسباب لا يذكرها أحد بعد انتهاء المعركة وأنه ولد فى الفجر التالى لتلك الليلة بعد ساعات من عودة أبيه سالما من المولد ومن السكك المظلمة التى يسكنها أولاد الليل، عندما جاءها الطلق أخذت تدفع بكل قوتها وهى تجز على أسنانها حتى لا توقظ زوجها

المتعب من المشوار والسهر وإخوته المكومين فى الغرفة الأخرى، حتى شعرت به ينزلق من بين فخذيها على السرير فقطعت بيديها حبل السرة وأمسكته من رجليه حتى صرخ صرخته الأولى التى أيقظت أباه فنظر إليه باسما واعتدل قائلا لها:

- حمد الله ع السلامة يا يامنة، مبروك عليكى عبد الرحيم.

بعد عبد الرحيم ولدت نصرة ذكرها الثانى "حماد" وولدت خديجة ابنها البكرى "عزب" وأتبعته بابنها الثانى "حمد" ثم ابنتها "سميرة" وولدت غالية ولدها الثانى "جبر" ثم ولدها الثالث "مختار".

عندما قارب حمل غالية فى ولدها جبر على التمام سافرت إلى المخادمة لتلد عند أهلها بعد أن أوصتها حماتها أن تتأمل فى البنات هناك لتختار منهن زوجة لحسين، بعد الولادة عادت غالية تحمل طفلها على يديها وفى رأسها اسم بنت من بنات عمومة أولاد هاشم أعجبتها لأدبها وبياض بشرتها فأبلغت به آمنة التى انتظرت ولدها محمد حتى يعود من الجبل لتفاتحه أن يسافروا لطلب يدها. تزوج حسين و"كاملة" فى بيت الهويس وولدت كاملة ابنتها "بدور" فى وقت قريب من ولادة فاطمة لابنتها نهى ثم جاء ذكرها الأول "بدير" فى وقت قريب من ولادة أمجد.

استقبلت "آمنة" كل أحفادها من فروج أمهاتهم وقطعت بيديها خلاصهم (حبلهم السرى)، كانت تمسك بالمولود من قدميه ثم ترفعه عاليا حتى تسمع الصرخة الأولى للكائن المدمى وتحرص على أن تحممهم حمامهم الأول وتستمتع بطراوة اللحم الغض بين يديها، كانت

تلك طريقتها فى الاحتفاء بخصوبة أبنائها وقدرتهم على غرس جذورهم الجديدة فى الأرض وكأنها ربة فرعونية قديمة. لم يعد يهمها نوع المولود، كانت قد أعادت حساباتها وتوصلت إلى أن الولد والبنت سيان فكلاهما سوف يحفر فى الأرض مجرى جديدا لرافد جديد أيا ما كان اللقب الأخير فى الاسم هاشم أو أى اسم آخر، طالما أن هذا الكائن الجديد سيكون واحدا من أفراد قبيلتها وطرحا طازجا لأرضها الخصيبة.

كانت "قبيلة آمنة" تتشكل وتمتد فروعها حولها ولم يبق لها سوى الاطمئنان على آخر عنقودها عبد الرحيم.

كان عبد الرحيم هو وجعها المقيم فرغم تعودها وتعوده على فساد عينه وممارسة الحياة بعين واحدة إلا أنها كانت تتذكر دائما تفاصيل إصابته رغم مرور السنين وتقلب الدنيا وكأنها حدثت بالأمس ويدمى قلبها أنها لم تتصرف وقتها بطريقة تنقذ بها العين المصابة وتنقذ ولدها من الشقاء الذى ينتظره وتنقذها هى من ألم الندم والحزن كلما نظرت إليه.

رغم إدراك عقلها صعوبة ما تفكر فيه، كان قلبها متمسكا ببصيص الأمل الواهن، فانحت عبد الله الذى كانت تأتيها الأخبارَ من الصحراء بأنه صار صاحب كلمة مسموعة لدى الرؤساء لمهارته فى العمل واعتزازه بكرامته وأنه زكّى عددا كبيرا من أقاربهم ليقبل تعيينهم فى الشركة:

- ربنا يخليك يا عبد الله واخد بالك من اخواتك فى الشغل.

- تعيشى يامه، اخواتى ناس محترمين وشايفين شغلهم أنا بس باحوش أذى الناس عنهم على كد (قد) ما اقدر.
- فاضللى يا ولدى أطمن على خيك عبد الرحيم.

تغير وجه عبد الله فلم يكن يحب أن يرد لها طلبا لكن ذلك لم يكن بمقدوره، جاوبها:

- ياريت يامه بس ما ينفعش، ده قانون ولوايح ما حدش يقدر يخالفهم.
- عارفة يا ولدى بس قلت يمكن يكون عندك حل.

كان عبد الله قد فكر فى الحل وجاء الوقت المناسب ليبلغها به:

- الحل إن محمد وأبو بكر يدوله الدكان اللى فى البيت يفتحها وأنا مستعد أديله حق البضاعة اللى هو عايز يشتغل فيها وكمان هاكلم اخواتى إننا نديلك مبلغ كل أول شهر وانتي تديهوله كأنه منك انتي عشان ما يحرجش منينا.
- ربنا يخليكم يا ولدى، هاكلم اخواتك ع الدكان وهايوافقوا بالأمر.
- عارفك شديدة يا يامنة.

ضحكت فوضعت طرف طرحتها على فمها، جاوبت مناغشته:

- اختشى ياواد، يامنة حاف كده.
- ربنا يخليكى يامه ويرجم أبونا.
- الفاتحة على روحه يا حبيبي.

أتمت آمنة المطلوب منها وقام عبد الرحيم بتجهيز الدكان لتكون محل بقالة وأوفى عبد الله بما وعد به أمه فمنح أخاه مبلغا يكفى لشراء الأصناف الرئيسية اللازمة على أن يضع عبد الرحيم نظاماً يسمح بشراء بضاعة جديدة من مكسب البيع بعد استقطاع جزء منها لتدبير شئونه، يوم الافتتاح تذكر الجميع دكانتهم بالمخادمة وفضلها عليهم وتذكروا يوم أن أخلتها الأم من البضاعة انتقاما من أبيهم الذى تروج عليها وكيف وقفت فى وجهه ووجه العمدة حتى عاد إليها خالصا، ترحموا على الوالد وقرأوا الفاتحة على روحه وجاءت آمنة بعدة البخور فبخرتهم وبخرت الدكان وهى تتمتم بآيات القرآن وترش الملح فى عيون الحساد، وفى نهاية اليوم عاد كل منهم لبيته حاملا نصيبه من الأنواع التى أصر عبد الرحيم بطريقته المرحة على بيعها لهم حتى تحدث البركة.

سارت أمور الدكان سيرا حسنا والتزم أبناؤها باتفاقها معهم واطمأن قلب آمنة على عبد الرحيم فآن أوان زواجه، خطبت له بنتا من المخادمة كانت أحلى زوجات أبنائها وكانت عيونها الخضراء الجميلة -التى ورثتها عن أمها الفلاحة- كأنها تعويض الله لعبد الرحيم عن عينه التى راحت. تزوج عبد الرحيم و"زينب" فى الشقة المحجوزة لهما ببيت الهويس وانضمت زينب للسباق فأنجبت ابنتها "أمانى" فى وقت قريب لمولد "مصطفى" رابع أبناء أبو بكر وغالية.

رغم انفصالهما فى السكن، لم يغب عبد الله وفاطمة عن العائلة فى أي من أمورها الصغيرة أو الكبيرة، هكذا تربيا وغرست أسرتاهما فيهما أن من ينفصل عن ناسه يكون هو الخاسر الأكبر، غير أنهما فى تفاصيل حياتهما كانا قد صنعا فارقا كبيرا.

ظلت حياة العائلة فى السويس تدور فى نطاق أسر أشراف المخادمة التى جاوروها وتعاملوا معها وتزوجوا منها وكان وجود آمنة كفيلا بضبط الأمور حسب بوصلتها هى، كانت آمنة هى الوعاء الرئيسى الذى يستقى منه أبناؤها أفكارهم وطريقتهم فى الحياة، كان ذلك يحدث دون قهر منها فهم أيضا مقتنعون بأن تلك الأفكار والمبادئ هى مايصنع تماسكهم وتمسكهم بأصلهم الذى كانوا يعتقدون أنه هو الغلاف الذى سيمنع عنهم رياح التفكك والضياع فضلا عن امتنانهم لصبرها وجلدها فى مكابدة مشاق الحياة دون رجل لها ودون أب لأولادها، وكان عبد الله يشاركهم تلك الأفكار والمبادئ غير أنه ابتعد قليلا بمساعدة فاطمة التى كانت تدرك أن ذلك لابد أن يتم بميزان دقيق كيلا تختل الأمور وتتعقد العلاقات، إبتعدا دون أن ينفصلا فاتسع المشهد أمام روحيهما وعقليهما فصار نمط حياتهما أقل تشابها من حيوات الآخرين وأكثر قربا من حياة المدينة التى أحباها ومنحتهما روحها، ورغم ذلك أحبت فاطمة الوجود بالقرب من تلك الطريقة فى ممارسة الحياة، كانت تعرف أن حماتها وأهل زوجها لا يخالطون الأغراب من أهل السويس إلا بما تقتضيه الضرورة وأن كل علاقاتهم وزياراتهم ومجاملاتهم فى الحزن والفرح تنصب على الأقارب من أسر الأشراف الذين يتركزون فى الأحياء القريبة، حيث يعيشون وفق عاداتهم التى جاءوا بها من بلادهم بعد أن طوعوا طريقة أدائها حسب المكان الجديد، كانوا يتحدثون نفس اللهجة الصعيدية التى كانت تسمع جدها عاشور وجدتها نزيهة وأقاربها فى البطاطخة يتحدثونها غير أنها لاحظت الفروق الدقيقة لنطق بعض الكلمات فى

لهجة أهل المخادمة التى كانت أكثر حدة وسرعة من لهجة أهلها فى البطاطخة، كانوا يخبزون "العيش الشمسى" فى الأفران البلدية التى أقاموها على أسطح البيوت التى يسكنون شققها بعد أن يقرصوا العجين ويتركونه ليختمر فى الشمس حيث يعلو وينتفش حتى يصير كالكيكة الإسفنجية التى تعرفها فاطمة وتصنعها فى فرن البوتاجاز الأطلس، بعد ذلك كانوا يمررون إبرة رفيعة فوق أحرفه من أربعة جوانب لعمل القرون للرغيف الذى يكفى وربما يفيض عن حاجة فرد أكول للوجبات الثلاث، وفى الأفراح التى كانوا يقيمونها للزواج كان أهل العروس يخبزون الكعك المصنوع من عجين الدقيق المخلوط بالسمن البلدى والكركم والسمسم ويشكلونه على هيئة دوائر كبيرة لذلك كانوا يسمونه "كحك العجلة"، ثم توضع الكعكات فى القفف التى تنتقل مع عفش العروس لبيت أهل العريس مع بقية مكونات "العشا" الذى كان يشتمل على ذبيحة أو عدة ذبائح حسب مقدرة أبى العروس وعدد أفراد عائلة العريس، وفى الموت كانت تمارس نفس العادات التى كانوا يمارسونها فى بلادهم حيث يقام العزاء لمدة ثلاث ليال، الرجال فى صوان ينصبونه فى الشارع أمام بيت المتوفى قبل أن تكون لهم جمعية رسمية بعد ذلك بسنوات، والنساء فى بيت المتوفى، يختم الرجال العزاء فى الليلة الثالثة ثم يتوجه أقارب المتوفى إلى بيته حيث نساء العائلة المتشحات بالسواد ليعزوهن، صباح اليوم الرابع كان الجميع رجالا ونساء يزورون الجبانة ليقرأوا القرآن على روح الميت وأرواح من سبقوه وينثروا الجريد الأخضر فوق القبر الحديث والقبور القديمة، ثم يعاودون الزيارة بعد مرور خمسة عشر يوما على الوفاة،

كانت فاطمة تحاول مسايرتهم فى تلك العادات التى لم تعتدها فى حياتها بالسويس لأن أهلها عندما جاءوا إليها كانوا وحدهم مع عدد قليل جدا من الأفراد المنتمين للأشراف أو القبائل الأخرى من قنا ما جعل ممارستهم لمعظم تلك العادات والطقوس أمرا غير ممكن وسط أهل المدينة الأصليين.

أقرت فاطمة بينها وبين نفسها أن حياتها وطريقة تفكيرها تختلفان عما تراه فى غيرها من نساء العائلة وأن استعداد زوجها لتغيير طريقة حياته هو نتيجة لاختلاطه بأصدقاء ينتمون إلى أصول متعددة ولرغبته فى أن يحيا حياة المدينة التى حلم بها أكثر من أى شيء آخر، لذلك اعتبر الزوجان أن ما حدث من محمود وزوجته هو نتيجة طبيعية للاختلاف فى طريقة التفكير وأولويات كل إنسان فى حياته واستراحا لفكرة أن الأمر لم يقصد به إساءة أو خيانة ورغم ذلك بقيت غصة فى الحلق دامت إلى حين.

حدث ذلك قبل حادثة راوية بنحو سنة.

فجأة وبدون سابق إنذار أو تمهيد، كان عبد الله فى الجبل ومحمود فى أجازة، جلست فاطمة مع محمود ونعمة فى الصالة يتحدثون ويستمعون لأم كلثوم فى الراديو، وعندما أنهت الست وصلتها نام الجميع، استيقظت فاطمة فغسلت وجهها ودلفت للمطبخ لتعد الإفطار للجميع وكانت قد تركت راوية وخالد يلعبان فى الغرفة بجوار أختهما نهى الرضيعة التى تركتها فى وسط السرير، كان باب غرفة نعمة

مغلقا لا يسمع من ورائه غير صوت فتح الدولاب أو جر الأدارج، دقت فاطمة على الباب دقات خفيفة وهى تسأل نعمة:

- نعمة، الفطار جاهز، أعمل حسابكم فى الشاى؟
- لا يا فاطنة، أنا مشغولة ومحمود نزل والعيال فطروا.

بينما كانت فاطمة وطفلاها يفطرون على السفرة وقد وضعت فاطمة نهى الصغيرة على حجرها، فتح محمود باب الشقة وصاح دون أن يدخل:

- يالله يا نعمة العربية واقفة تحت والرجالة طالعين.
- خلاص أنا جاهزة خليهم يدخلوا.

ظهرت نعمة وقد ارتدت وطفلاها ثياب الخروج وعندما فتح باب الغرفة لمحت فاطمة من مجلسها كأن الغرفة شبه خالية، قامت فاطمة وهى تشعر بالقلق أن شيئا غير طبيعى يحدث، سألت نعمة فردت باقتضاب:

- إحنا معزلين يا فاطنة.
- معزلين، معزلين فين؟
- رايحين على بيتنا الجديد ع الهويس.
- قصدك بيت نينة؟
- لا بيتنا احنا، هو جنب بيت نينة اشتريناه من مدة ووضبناه.

ألجمت الدهشة فاطمة فلم ترد. تذكرت إخفاء نعمة ومحمود خبر حمل نعمة فى سناء فأدركت أنه لم يكن تصرفا عابرا أو بفعل الظروف ولكنه يبدو طبعا فيهما. أنزل الحمالون غرفة النوم وحقائب الملابس وجاء

الطفلان ليسلما عليها وعلى أبناء عمهما ثم جاءت نعمة فسلمت دون أن تنطق حرفا وأخيرا جاء محمود فسلم على أبناء أخيه وأعطاها نسخة مفتاح الشقة التى كانت معه ومد يده للسلام وهو يغمغم:

- معلهش يا فاطنة مالحقناش نقولكم، لما أشوف عبد الله فى الجبل هاقوله.
- مع السلامة يا محمود.

جرت دموعها على فراقهم على الرغم من صدمتها فيهم بينما الراديو -لدهشتها- يذيع أغنية عبد الحليم حافظ:

خسارة خسارة
فراقك يا جارة
عينيا بتبكى
عليكى بمرارة
خسارة خسارة

عندما عاد عبد الله سألته:

- شفت اللى عمله أخوك ومراته؟
- ما تزعليش نفسك هم أحرار.
- وهو أنا يعنى كنت هامنعهم يمشوا، بس كانوا قالوا.
- مش فاهم هما خبوا علينا ليه، ما كنتش عارف إن محمود اتغير كده.
- ماحدش بيتغير يا عبد الله إنت عشان بتحبه ماكنتش شايفه كويس.

- أدينى بهدلته وماخلتلوش ومن ساعتها وهو مكسوف ومابيورينيش وشه.
- أنا زعلانة منه بس زعلانة من نعمة أكتر، أنا كنت باعتبرها زى أختى.

بكت فربت عبد الله على كتفها:

- فيه ناس كده، أغبيا وبيضيعوا حاجات حلوة عشان كلام فاضى.

فى المساء فوجئ عبد الله بيد فاطمة تمتد إليه بمظروف به مبلغ من المال، أخبرته أنها كانت تدخر جزءا من مصروف البيت اشتركت به فى جمعية نظمتها أبلة أنيسة بمشاركة عدد من جاراتها لمساعدة جارتهم الجديدة أم فارس المرأة القبطية التى جاءت مع زوجها وأولادها الخمسة من أسيوط لأن زوجها الموظف نقل للعمل هنا فى السويس فى نفس الإدارة التى يعمل فيها الباشمهندس عزيز زوج الأبلة التى عرفتهم على الست أم فارس فقرروا مساعدتها لفرش شقتها التى استأجرتها بالجوار، أخبرته أنها قبضت دورها منذ أيام واقترحت عليه أن يجهزوا الغرفة التى خلت برحيل محمود ونعمة للأولاد، رحب عبد الله بالفكرة وأكمل على مبلغ الجمعية، اتفقا مع النجار ليصنع غرفة نوم للأولاد نصبوها فى الغرفة الخالية، عرض عليهم النجار أن يصنع سريرين كل منهما بدورين وبذلك صارت الغرفة تكفى لنوم أربعة، دهن السريران باللونين الأبيض والأزرق الفاتح ورسمت عليهما رسومات لحيوانات وطيور، كانت راوية تنام فى الدور العلوى لسرير وأختها الصغيرة نهى فى الدور السفلى منه

ونام خالد فى السرير الآخر وترك المكان الشاغر للطفل القادم، أمام السريرين وضع الدولاب ذو الضلف الأربعة والمرآة فى منتصفه وتحتها صف الأدراج وقد دهن بنفس ألوان السريرين وفرشت الغرفة بسجادة صغيرة عليها رسومات طفولية زاهية الألوان ووزعت العرائس والألعاب فيها فصارت أجمل غرفة فى البيت ومزارا يحظى بانبهار الزائرين من الأقارب الذين لم يعرفوا من قبل أن هناك غرفا مخصوصة للأطفال فأضيفت تلك البدعة لبدع عبد الله وفاطمة التى كانت مثارا لإعجاب العائلة وأحيانا تندرها أو انتقادها.

كانت فاطمة تلحظ بعض التصرفات والتعليقات من نساء العائلة توحى بالغيرة أو الاتهام أنها تورط زوجها فى مستوى حياة لا يناسب ظروفهم ولكنها كانت تتجاهل تلك التصرفات خاصة عندما تلمح لعبد الله عنها فلا يلقى لها بالا. رغم ذلك كانت أحيانا تراجع نفسها وتحث زوجها على التواصل مع أهله إذا رأت منه انشغالا عن واجباته نحوهم وتحاول إشعار الجميع بحبها لهم ورغبتها أن تكون جزءا من عالمهم ولم تكن تفوت فرصة لأداء واجب العزاء أو حضور الأفراح بعد أن اتفقت مع غالية ونصرة على إبلاغها فورا بتلك المناسبات نظرا لأن تلك الأخبار لم تكن تصل إليها إلا عبر بيت الهويس الذى كانت أسر الأشراف تتعامل معه بصفته بيت هاشم أبو زيد، وكانت تحرص على ترسيخ علاقات الود مع نساء العائلة خاصة من كانت ترى فى طباعهن وأخلاقهن ما يناسب شخصيتها ولذلك نشأت علاقة قوية بينها وبين "زينب" ابنة أحمد أبو زيد عم زوجها والمتزوجة من قريب لها من أولاد مرعى يعمل فى الشركة مع عبد الله، كانت

زينب تكبرها فى السن ولكنها اكتسبت حبها وثقتها وكانت دائما تقول عنها عندما تأتى سيرتها إنها "ست جدعة".

صار لفاطمة عالمها الذى يشغل عبد الله مركزه ويحتل أطفالها أركانه جميعا، راحت تفكر وحدها أو بمشاركة أبلة أنيسة فى أكلات جديدة تصنعها لهم أو أنواع جديدة من المخبوزات لتتعلمها وراحت من وقت لآخر تغير مفروشات الأسرة أو تلمع الموبيليا أو تغير ترتيبها، وتنظم لهم رحلات الخروج إلى حدائق بور توفيق أو شاطئ ركس أو الكابينون فتخصص ليوم الشاطئ حقيبة كبيرة تضع فيها غيارا نظيفا لكل منهم وترص علبا تحوى قوالب الكيك والسندوتشات والعصائر التى تصنعها بنفسها وتلبسهم المايوهات لنزول الماء ومعهم أبوهم بينما تجلس هى بفستانها البسيط تحت الشمسية فى انتظارهم لتحممهم وتغير لهم ملابسهم.

حرصت فاطمة دائما أن توفر لزوجها جوا دافئا يستطيع فيه أن يستريح من عناء العمل ليستعيد نشاطه استعدادا لسفره الجديد كل مرة فقد أدركت دون أن تفهم تماما طبيعة عمل زوجها أنه يضعه فى المكانة الأولى لاهتمامه ربما قبلها وقبل أولادهما ولكنها كانت تستدرك فى نفسها "بل من أجلها وأجل أولادهما".

فى غمرة انشغال فاطمة بتفاصيل حياتها وحملها وولادتها وتربيتها لأطفالها، كان عبد الله يصنع مجده مستندا على اطمئنانه على بيته وأولاده بين يديها.

7

كان محمد ومحمود قد سبقا عبد الله للعمل بالشركة لخبرتهما فى مجال البترول التى اكتسباها من فترة العمل فى شركات الحفر والتنقيب وجابا خلال سنواتها وخاصة محمد عدة مناطق فى صحراء البحرالأحمر والصحراء الغربية ورغم أن الراتب فى شركة الحفر كان أكبر كثيرا من راتب الشركة الجديدة لكنهما ارتضيا بالانتقال لأن العمل الجديد يتميز بالاستقرار والدوام، كان عبد الله قد فهم منهما كيف ينصب الحفار(البريمة) فى الأماكن التى يتوقع وجود آبار للبترول تحتها وكيف تعمل البريمة للوصول لباطن الأرض حيث توجد تجمعات السائل الذى يندفع بضغطه الطبيعى فى مواسير الحفر ثم ينقل عبر الأنابيب للتخزين.

لم تكن الشركة الجديدة شركة حفر وتنقيب ولكنها كانت شركة تشغيل وإنتاج. كانت الدراسات والقياسات التى أجرتها شركات إيطالية وعالمية بالاتفاق بين الحكومتين المصرية والإيطالية قد أثبتت توفر احتمالات كبيرة لوجود البترول فى المنطقة الواقعة بين أبو زنيمة شمالاً ورأس جارة جنوباً بجنوب سيناء وكان الاتفاق ينص على إنشاء فرع للشركة الإيطالية "إينى" تحت اسم الشركة الدولية للزيت المصري (أيوك) تمنحها الحكومة المصرية حق امتياز البحث والتنقيب عن البترول فى تلك المنطقة فى مقابل أن تتولى الشركة الإيطالية أمر الإنفاق والإشراف على عمليات التنقيب والحفر فيها حتى إذا تم حفر الآبار وبدأ البترول فى التدفق تنشأ شركة مشتركة بين الجانبين المصرى والإيطالى تكون مهمتها تشغيل الآبار وإنتاج الخام ثم معالجته وتخزينه

حتى يباع أو ينقل إلى مصانع التكرير ليحول إلى بنزين وسولار وكيروسين وغيرها من المنتجات التى يحتاجها الناس، وقد كان إنشاء هذه الشركة هو اللحظة التى انتظرها عبد الله وغيره إذ كانت إيذانا ببدء الإنتاج والحاجة إلى عمال فى جميع التخصصات.

عندما يندفع البترول الخام من باطن الأرض يكون مختلطا بالماء والأملاح والشوائب الأخرى ومصحوبا بالغازات ولكى يصل إلى درجة النقاء المطلوبة يلزم أن يمر بعدة خطوات تسمى عمليات المعالجة، وقد أقامت الشركة منطقة المعالجة بالقرب من مدينة أبو رديس على خليج السويس من ناحية سيناء إذ يتم اختيار موقع المعالجة على أسس عدة أهمها إشرافها على ممر بحرى يسمح بقدوم سفن الشحن التى يدفع إليها البترول عبر خراطيم كبيرة تمد فى الماء لتحمله هذه السفن للموانئ ومنها لمصانع التكرير، كان الخام يصل لمنطقة المعالجة عن طريق أنابيب كبيرة ثم يمر فى أوعية ضخمة لفصل الغازات والماء والأملاح عن طريق عمليات متوالية من خفض الضغط ورفعه والتسخين والتبريد وغيرها حتى إذا تحققت المواصفات المطلوبة يتم تخزين الخام فى خزانات عملاقة وتحتاج هذه العمليات لتوليد الكهرباء وتحلية ماء البحر والاستعداد لمقاومة الحرائق وصيانة المعدات والخطوط وغير ذلك ويحتاج كل ذلك لإدارة تنسق كل هذه الأعمال وتوفر احتياجاتها وتحسب التكاليف اللازمة والمكاسب المتحققة، ولبشر يقيمون فى مناطق الإنتاج والتشغيل للقيام بتلك الأعمال وهم بدورهم يحتاجون لمن يرتب إقامتهم وسفرهم وقدومهم ورعاية كافة شيءونهم حتى يتفرغوا لأعمالهم التى يتغربون من أجلها. قرر عبد الله

أن يفهم هذه المنظومة المعقدة حتى يضع نفسه فى الموضع المناسب منها وأدرك أن عليه أن يعيش حياتين، واحدة فى المدينة مع أسرته وبين أهله والناس، والأخرى هنا فى الصحراء بين المعدات والورش والآبار والخطوط والخزانات حيث خليط من البشر لهم هدف واحد هو أن يخرجوا هذا السائل السحرى من مكامنه ويجهزوه كى يدفع الحياة للأمام ويملأ جيوبهم برزقهم ورزق أولادهم.

توزع العاملون ومعظمهم من أقاربه ومنهم إخوته على الإدارات المختلفة فمنهم من عمل فى ورش الصيانة ومنهم من عمل فى تشغيل الآبار ومنهم من عمل فى مناطق المعالجة والتخزين لملاحظة بلوف الخطوط وأخذ قراءات العدادات ومنهم من انضم لفرقة مكافحة الحرائق أما الأعمال الإدارية والمكتبية فقد شغل معظمها أفندية البنادر من قنا وأسوان وبعض بنادر الدلتا، أما أبو بكر فقد حرص عبد الله أن يعمل معه وطلب ذلك قبل تعيينه من الحاج شرقى والحاج سليم فوافقا وقاما بالإجراءات اللازمة لينضم أبو بكر إلى عمال اليارد.

بعد فترة من التحاقه بالعمل وبفضل السمعة الحسنة لأخويه الكبيرين محمد ومحمود، توطدت علاقة عبد الله مع بعض الرؤساء وكان منهم "الحاج شرقى" الرجل النوبى الطيب الذى تخرج فى كلية الزراعة منذ سنين طويلة وعمل فى مجال البترول فتعلم صنعته التى لا يعرف غيرها وكان قد مال إلى عبد الله لاجتهاده وكثرة أسئلته ما يدل على رغبته فى التعلم فضلا عن العلاقة القديمة التى تربطه بمحمد ومحمود هاشم زميليه فى شركة الحفر أيام العمل فى سفاجا ورأس غارب ورأس سدر، سأله عبد الله ذات يوم بعد انتهاء يوم العمل:

- هما كيف عرفوا حكاية البترول دى؟

ابتسم الحاج شرقى ثم بدت عليه علامات الجد حتى يتذكر تفاصيل ما يعرفه فلا يخذل ذلك الولد كثير الأسئلة أو يظهر أمامه فى صورة من لا يعرف تاريخ صنعته، قال له أن البترول موجود منذ قديم الزمان فى الطبقات السفلى لباطن الأرض وأنه تكون من الأشياء التى دفنت بفعل الزمن تحت الأرض من آلاف السنين كالغابات وجثث الحيوانات وغيرها، وأن هناك الكثير ممن يعتقد أن الفراعنة هم من أول من عرفوه، أما فى العصر الحديث فقد اكتشف بالصدفة وكان الأمريكان هم أول من اكتشفه. طال الحديث بسبب استرسال عبد الله فى السؤال عن كل التفاصيل مما أرهق الحاج شرقى، وكان عليهما أن يناما ليستيقظا مبكرا، وعده شرقى باستكمال الحديث فى أقرب فرصة وانصرف عبد الله إلى سكنه وهو يفكر فيما سمع عن ذلك الشيء الغريب الذى سيصير مجال عمله ومصدرا لرزقه ورزق أولاده وقبل ذلك متعته الكبرى والسبب الأول لعلو شأنه فى الناس. كانت آخر فكرة طرأت على ذهنه هذه الليلة هى كم أن أرادة الله عجيبة، فالأمريكان الذين يعيشون فى آخر الدنيا يكتشفون البترول حتى يكون هو السبب فى هجرته وهجرة كثيرين من قرية فى آخر الصعيد إلى هنا، تذكر أباه فجأة فقرأ الفاتحة على روحه ثم راح فى النوم.

استولى على عبد الله اهتمامه بالفهم، كان لا يحب أن يؤدى المطلوب منه دون أن يفهم أين يقع ذلك فى سلسلة الخطوات اللازمة لإنتاج ذلك السائل المدهش، كانت المجموعة الكبيرة من العمال التى يعمل ضمنها مسئولة عن نظافة وترتيب المهمات اللازمة للحفر بعد

استخدامها فى البريمة، مواسير ودقاقات وكتل حديدية ذات أشكال عجيبة لا يعلم أحد منهم ماذا يفعلون بها هناك، كانوا يتسلمون تلك الأشياء فيقومون بتنظيفها من الرمال والطين ويرشمون ما يحتاج منها للرشم لإزالة طبقة الصدأ ثم يدهنونها بالبوية حتى لا يعود الصدأ إليها ثم يرتبون كل شيء فى مجموعات متشابهة فى مساحة كبيرة من الأرض يسمونها "اليارد" وكان الحاج سليم يتسلم هذه المهمات ويسجل أسماءها وتاريخ دخولها فى دفاتر كبيرة خصص لكل نوع منها دفتر حتى إذا احتاجوا إليها ثانية يجئ الحاج شرقى أو المهندس حسن فيراجع الدفاتر مع الحاج سليم بحثا عن الشيء المطلوب فإذا تأكدوا من وجوده فى اليارد استدعوا بعض العمال ليحملوه على السيارة بعد أن يوقع المستلم فى الدفتر ويسجل تاريخ الخروج.

كان عبد الله ينتظر تلك الزيارات لليارد ويحرص أن يكون ضمن المجموعة الصغيرة التى تكلف بالبحث عما يطلبه الحاج شرقى أو المهندس حسن كى يستمع إلى حديثهما مع الحاج سليم لعل أذنه تلتقط اسم الشيء المطلوب أومعلومة عنه فيربطها مع شكله فى ذاكرته حتى صار بمرور الوقت يحفظ أسماء كل الأشياء الموجودة باليارد رغم صعوبتها فقد كانت كل الأسماء بالإنجليزية، ويستطيع أن يفرق بين أشكالها وأحجامها وأماكن تخزينها وإحضارها بسرعة فاستراح له الحاج سليم وأخذ يعتمد عليه بالتدريج حتى جعله مساعدا له فاعتمد عليه فى إيجاد المعدات فى الدفاتر بعد أن كتب الاسم الإنجليزى لكل قطعة بحروف عربية حتى يقرأها عبد الله وكذلك اعتمد عليه فى الإشراف

على العمال وهم ينقلون المعدات بعد أن يحددها لهم على الأرض ولذلك أعفاه من أعمال التحميل والنظافة والرشم والدهان.

كان عبد الله يعلم أن من يحدد تلك الطلبات هو الخواجة "باتريك" الذى كان واحدا من الخبراء الأجانب الموزعين على العمل فى كل الإدارات، كان باتريك هو المنسق بين الشركة وطاقم البريمة وهو المسئول عن توفير كل ما تحتاجه البريمة التى تؤجرها الشركة لأعمال الحفر وتدفع فيها آلاف الدولارات كإيجار، لذلك كانت طلبات الحفار أوامر يجب تلبيتها بأقصى سرعة كى تنجز أعمالها فى أقل وقت ممكن، أحيانا كان الخواجة يأتى مع المهندس حسن إذا كان الطلب أكثر استعجالا، كان وجود الخواجة فى اليارد إشارة للجميع أن هناك مشكلة فى البريمة وأنهم لابد أن يتحركوا بسرعة لتوفير المهمات المطلوبة بشكل عاجل ما يوتر الحاج سليم والعمال إلا أن عبد الله كان يسعد بتلك الحالة.

ذات يوم بعد أن أنهى مهمة كلف بها وكان الحاج شرقى جالسا فى مكتب الحاج سليم، قال عبد الله موجها حديثه للحاج سليم:

- أى أوامر تانية يا بوى؟
- الله ينور يا عبد الله، أقعد عايزينك.
- خير يا عمى، الحاج شرقى عاوز حاجة تانى؟
- لا يا بنى، الحاج شرقى جايب لك بشارة.

أشرق وجه عبد الله ونظر بابتسامة عريضة إلى وجه الحاج شرقى الذى أبلغه أنه رشحه لنيل ترقية وحصل على موافقة المهندس السمرى وأن موافقة الإدارة أرسلت اليوم بالتليكس. هتف عبد الله:

- الله أكبر، تعيش يا حاج شرقى، متشكرين يا حاج سليم.
- إنت من النهارده هتبقى ريس العمال اللى شغالين فى اليارد يعنى مسئول عنهم وعن شغلهم واحنا عارفينك سداد، بس برضه عارفين إنهم كلهم قرايبك وخايفين تحرج منهم و...
- من الناحية دى ما تقلقش، هما خابرينى زين، أنا فى الشغل ماعرفش أخوى، إطمن يا حاج.
- على بركة الله، يالله قوم شوف شغلك يا ريس عبد الله، الحاج سليم ها يبلغهم، مبروك يا بنى، شد حيلك.
- ع الله، على فكرة أنا مش ناسى حكاية البترول اللى إنت وعدت تكملها لى.
- وأنا عند وعدى، أنا نازل بكرة، الوردية الجاية لينا قعدة.

عندما عاد الحاج شرقى من الأجازة، تركه الليلة الأولى ليستريح وفى الليلة الثانية ذهب إليه فى مسكنه بمعسكر المديرين الذى كان جزءا منفصلا فى المعسكر الكبير الذى يضم مساكن الجميع، أعد عبد الله الشاى وجلسا وحولهما بعض زملاء الحاج شرقى ومن بينهم كان المهندس السمرى مدير القطاع والرئيس المباشر للحاج شرقى، سلم عليه عبد الله وشكره على الترقية، كان رجلا هادئا وتبدو فى نظرته علامات الجد والتحدى:

- أهلا يا عبد الله، ياريت تكون قد الكلام اللى بيقوله عنك الحاج شرقى.
- يارب يا با شمهنس بس ع الله الحاج ما يكونش بيبالغ.
- احنا يا عبد الله عايزين نتعلم بسرعة عشان نتخلص من الخواجات ونعتمد على نفسنا، الموضوع جديد علينا كلنا وكلنا بنتعلم، إتعلم يا عبد الله على قد ما تقدر وبأسرع ما يمكن واحنا بنقدر الكفاءة وتحمل المسئولية.

أعجبه كلام المهندس لكنه أدخله فى منطقة لم تكن تخطر على باله، كان تفكيره منصبا حول نفسه ومستقبله الشخصى، أن يتعلم صنعة ويتقنها ويرتقى فى درجاتها فيزيد دخله وتنفتح أمامه أبواب مغلقة لا يدرى هو نفسه ما وراءها لكنها تعده بحياة أحلى وأوسع مما يفكر فيه الناس من حوله، فإذا بكلام المهندس يجعله جزءا من قضية كبيرة لا يعلم حدودها أو دوره فيها، استعاد جملة "نعتمد على نفسنا"، فأخذ يفكر فيها، من نحن، هل يقصد العاملين بالشركة أم أن الموضوع أكبر من ذلك؟، أخذته الحيرة لكنه قرر أن يتعامل مع الأمر كما يفهمه، فقط المطلوب منه أن يتعلم بسرعة، ذلك هو المهم أما غير ذلك فسوف يفهمه بمرور الوقت. بعد الشاى، سأل الحاج شرقى:

- قلت لى الأمريكان هما اللى عرفوا البترول بس ما قلتليش إزاى.

قال له إن العمال هناك كانوا يعملون فى استخراج الملح من البيارات المحتوية عليه عندما ظهر لهم سائل أسود لزج كان يضايقهم ويفسد الملح، وأن صيدليا فى المنطقة علم بذلك فأخذ عينة من السائل وقام بتحليلها فوجدها تشتعل وتضئ فصاروا يستعملونه بدل الشمع ومع الوقت عرف أنه يمكن أن يستخدم كبديل للفحم أيضا، ونظرا للأهمية التى حظى بها أنشأت شركة خصيصا للحفر بحثا عنه. استولت الحكاية على اهتمام عبد الله فنظر لوجه محدثه يشجعه على استكمالها، قال الرجل أن موظفا بالشركة اسمه "ديريك" كان هو المسئول عن حفر أول بئر بنفس طريقة حفر آبار الملح، أحضر ديريك ماسورة وثبت فى طرفها متقاب وقام بتشغيله باستخدام محرك يعمل بالفحم أخذ يدق به الأرض حتى وصل الدقاق للطبقة التى يوجد فيها الزيت، هتف عبد الله سعيدا باكتشافه:

- عشان كده البتاع اللى ع البريمة اللى بيدخلوا فيه المواسير مسمينه ديريك.
- أيوة يا عبد الله وبعد عشر سنين اتحفر أول بير فى مصر، كانوا بيدوروا على الكبريت فى جمسة جنب راس غارب ولقوه طالع مع الكبريت فحفروا بير وطلع إنتاج سنة 1910 وبعد سنة واحدة الإنجليز عملوا مصنع التكرير عندكم فى السويس.

عرف عبد الله أن طريقه قد تحدد وأن الله قد رسمه له عندما بدأ العمل فى يارد مهمات الحفر ثم أسمعه حكاية اكتشاف البترول من فم الحاج شرقى. استأذن الحاج سليم والحاج شرقى أن يذهب للبريمة فى

الأيام التى لا يكون لديه عمل فى اليارد، كانت خطته أن يرى تلك الأشياء التى تخزن فى اليارد وهى تعمل ويسأل العاملين على البريمة عن الفروق بينها وتأثير تلك الفروق فى مراحل العمل المختلفة وعن توقيت وسبب استعمال كل منها، كان أخوه الكبير محمد قد اكتسب خبرة ومهارة وفهما لأعمال الحفر بالبريمة إبان عمله السابق لذلك كانت الشركة المالكة للبريمة تصر على وجوده واطلاعه على أعمال الحفر تقديرا لخبرته وحرصا على أن تكون الشركة المنتجة ممثلة فيه وشريكة فى كل القرارات التى يتوجب اتخاذها بشكل عاجل مع سير العمل، كان محمد يرحب بأخيه ويشرح له مراحل الحفر حتى صارت لدى عبد الله مع الوقت خبرة كبيرة بتفاصيل عمل البريمة ساعدته فى أن يربطها بالمعدات المستخدمة فى الحفر والتى كان يجهزها فى اليارد من قبل دون أن يعرف سبب الحاجة إليها وساعده ذلك أن يناقش الحاج شرقى والمهندس حسن والخواجة باتريك فى تفاصيل المعدات التى يطلبونها ويبدى رأيه على استحياء فى البداية ثم بثقة بعد ذلك فى أنسبها لأداء مهمة معينة.

8

كان وجود الخواجة فى اليارد حدثا يوتر الجميع عدا عبد الله الذى كان يعتبره فرصة ليصبح ندا للخواجة يناقشه ويحاججه عن طريق المهندس حسن الذى يترجم لكل منهما ما يقوله الآخر، كان يرى نظرة الاندهاش والإعجاب فى عينى الخواجة من معرفته بتفاصيل

الحفر ووظيفة كل قطعة فى اليارد وبعد أن يتفقا على تحديد المهمات المطلوبة كان الخواجة ينهى الحوار برفع إبهامه لأعلى قائلا بلكنته الإنجليزية "تمام" فيضحك عبد الله قائلا "تمام يا خواجة".

كان إذا سمع عن وصول معدات جديدة، يترك ما فى يده ويسرع إلى المخزن الرئيسى ليشارك عماله فى فتح الصناديق القادمة من بلاد الخواجات وإخراج الأوراق التى بداخلها ورؤية تلك المعدات وهى جديدة تلمع، يجلس على أرضية المخزن والعمال ينقلون القطع المستلمة إلى أماكنها بالمخزن فيفرد الورق دون أن يفهم الكلام المكتوب بالإنجليزية لكنه يتأمل الرسومات التى تصف المعدة الصماء فتعطى لها الحياة، هنا كان عبد الله يسترجع كل الخبرة التى تعلمها ويعمل خياله فى الرسم ليكتشف وظيفة كل قطعة وكيفية إصلاحها إذا تعطلت ويتوصل إلى التعديلات التى أجراها الخواجات عليها ليتحين الفرصة فيما بعد لسؤال أخيه الكبير محمد الذى كان حجة فى الحفر وبقية عمال البريمة عن ضرورة التعديلات وفائدتها مستغلا مكانة أخيه لديهم وقد كانوا كلهم يرحبون به ويسألونه بدورهم عن المعدات الموجودة باليارد أو مخزن المعدات الجديدة وقطع غيارها.

مع الوقت، صار عبد الله حجة فى مجاله فاكتسب احترام رؤسائه ومديريه وطاقم البريمة وذاع صيته بين العاملين بالشركة وتوطدت علاقته أكثر بالحاج شرقى الذى ترقى وأصبح مديرا لقطاع الحفر بالموقع بدلا من المهندس السمرى الذى انتقل للمركز الرئيسى للشركة فى القاهرة بعد ترقيته مديرا عاما لإدارة الحفر.

قضى عبد الله بعض الوقت مسئولا عن اليارد بعد خروج الحاج سليم على المعاش (التقاعد) حتى جاء يوم اقترح فيه على الحاج شرقى إنشاء إدارة جديدة تكون مسئولة عن كل ما يتعلق بعملية الحفر من مهمات ومعدات تخزينا وصيانة وتسجيلا ودعما فنيا أثناء عمليات الحفر التى زادت لتوسع الشركة فى التنقيب فى الأرض الواعدة.

لم يكن عبد الله يعرف أن الشركة تقوم بدراسات وأبحاث عن وجود البترول فى مياه خليج السويس إذ كانت حقول البترول حتى ذلك الوقت حقولا برية ولم تكن قد عرفت بعد الحقول البحرية التى كان يتطلب العمل فيها حفارات خاصة تناسب العمل فى عرض البحر، كان هذا هو سبب اهتمام الحاج شرقى بفكرة عبد الله، فمع إزدياد الطلب على لوازم الحفر ودخول الشركة عصر الإنتاج البحرى كان وجود إدارة خاصة تعنى بالأمر كله فى جميع مراحله شيئا ضروريا، أرسل الحاج شرقى الاقتراح لإدارة الشركة فجاءه الرد بطلب القدوم للقاهرة لحضور اجتماع موسع لمناقشة الاقتراح ووضع خطة لتنفيذه إذا تمت الموافقة عليه وثبتت فائدته، سافر الحاج شرقى للقاهرة وعاد دون أن يخبر عبد الله بما دار هناك.

بعد أيام تلقى عبد الله استدعاء رسميا لمقابلة المدير العام بالقاهرة فى أجازته القادمة، كان يتبقى على نزوله من الموقع خمسة أيام قضاها قلقا مشغول البال ولم يستطع خلالها أن يعرف أي معلومة عن سبب الاستدعاء حتى بعد أن حاول محاولات مضنية مع الحاج شرقى الذى أنكر معرفته تماما لكنه طمأنه بمحبة المهندس السمرى له وإعجابه بكفاءته وذكائه.

بعد نزوله الأجازة قضى أول ليلة مع زوجته وأولاده واستيقظ مبكرا فى الصباح التالى للسفر إلى القاهرة.

قابله المهندس السمرى فى مكتبه الواسع الفخم، سلم عليه بحرارة واهتمام كبيرين فتخفف عبد الله قليلا من القلق الذى اعتراه، لم يكن قلقه خوفا من اللوم أو العقاب من خطأ يكون قد ارتكبه أو وشاية من أحد حاسديه، لكن قلقه كان من أن يكون سبب الاستدعاء هو تقصيره فى واجبات عمله وعدم رضا المدبر العام عن أدائه، كان هذا شعورا مرعبا بالنسبة إليه فقد كان مخلصا لعمله ومتقنا له حتى جعلته كرامته واعتزازه بنفسه وثقته فيها حساسا تجاه أي احتمال أن يكون أداؤه موضعا للوم أو عدم الرضا، لكن هواجسه راحت تتبدد كلما استمر المهندس السمرى فى الحديث فقد حياه المدير على اجتهاده وذكره بكلامه عن ضرورة أن نتعلم بسرعة حتى يكون فى مصر جيل يستطيع تحمل مسئولية الصناعة الجديدة بدلا من الخبراء الأجانب وأشاد بأنه عمل بالنصيحة بأحسن ما يكون، تأثر عبد الله بإطراء الرجل له فشكره قائلا:

- كتر خيرك يا با شمهندس، بس أكيد ده مش سبب الاسندعا.
- لا طبعا، أنا استدعيتك عشان نتكلم على راحتنا بصراحة وراجل لراجل.
- خير إن شاء الله.
- بصراحة الحاج شرقى بعت لى اقتراح إننا نعمل إدارة مختصة بكل أمور الحفر من أول طلبات شرا المهمات لحد تخزينها

وصيانتها وكمان تقديم الدعم الفنى ومساعدة طقم البريمة فى حل المشاكل.

- أيوة ده اقتراح كويس بس تنفيذه عايز شغل كتير.
- بس الحاج شرقى ما عندوش تصور كامل للموضوع، إنت رأيك إيه يا عبد الله؟

ثم استدرك:

- عبد الله أنا عارف إنك بتحب شرقى بس عايزك تقول لى بصراحة، الاقتراح ده بتاعك إنت والا لأ.
- أيوة اقتراحى أنا، فكرة فكرت فيها وكلمته عنها بس ما يهمش هى فكرة مين المهم نعمل الصالح.
- طيب أنا عايز أسمع تفاصيل فكرتك وأعرف رأيك إيه الاحتياجات المطلوبة عشان تتنفذ.

شرح عبد الله فكرته باستفاضة أدهشت الرجل الذى كان رغم علمه بمهارة عبد الله لم يكن يتصور أن هذا العامل الذى يقرأ ويكتب بالكاد، قد توصل بفطرته وبدافع من حبه لعمله إلى فكرة مطلوبة بشدة ولم يسبقه إليها كل المتعلمين بالشركة ومنهم المديرون والمشرفون والمهندسون ومنهم هو شخصيا.

استدعى المهندس السمرى كل الطاقم الذى يعمل معه إلى مكتبه فقدم لهم عبد الله وقدمهم له، كان عبد الله يعرف بعضهم فقد كانوا يسافرون من وقت لآخر للموقع ليرتبوا لدخول البريمة ويشرفوا على توفير احتياجاتها ويرتبوا مع طاقمها مواعيد الأعمال المقررة

كأعمال الوير لاين والطَفلة وصب الأسمنت فى جوانب البئر وحقن المواد الكيميائية المانعة للصدأ وغيرها من أعمال يتطلب أداؤها شركات متخصصة ومعدات خاصة.

جلسوا جميعا حول طاولة الاجتماعات بالمكتب وأصر المهندس السمرى أن يجلس عبد الله على رأس الطاولة وجلس هو على الناحية الأخرى مقابله، بدأ المدير العام حديثه:

- يا جماعة انتم عارفين إن الشركة داخلة على مرحلة جديدة، الحفر البرى بيتوسع وكمان هيبدأ الحفر البحرى قريب وده هيكون أول مرة يحصل فى مصر، عبد الله قدم لى اقتراح بإنشاء إدارة جديدة فى الحقول هتساعد كتير فى تنظيم الشغل وسرعته، اتفضل يا عبد الله اشرح فكرتك للمهندسين.

استمر الحوار عدة ساعات وانتهى على تحديد خطة للعمل تنفذها مجموعات صغيرة كان عبد الله مسئولا عن إحداها بالتنسيق مع الحاج شرقى والمهندس حسن وتعهد المهندس السمرى بعرض الأمر عند التوصل لكل التفاصيل على رئيس الشركة ومجلس الإدارة والخواجات الذين يمثلون الشريك الأجنبى لإقرار الاعتمادات المالية المطلوبة للعمل وأكد لهم أن الموافقة مضمونة. بعد الاجتماع وهو يسلم عليه قبل ذهابه شد المدير العام على يده وقال له قبل أن يصل لباب المكتب:

- ابقى عدى ع الخزنة فى الحقول لما ترجع، أمرت لك بمكافأة.
- تعيش يا باشمهندس، السلام عليكم.

عند عودته للحقول، تجاهل عبد الله فتح الموضوع مع الحاج شرقى حتى بادره هو بالكلام:

- ما قولتليش المهندس السمرى كان عايزك فى إيه؟
- كان عايز يستفسر عن شوية تفاصيل فى فكرة الإدارة الجديدة، على فكرة أنا عايز المهندس حسن يشتغل معايا فى الموضوع ده واللى هنعمله هنعرضه عليك.
- وماله يا عبد الله رتب معاه وابدأوا على بركة الله.

فى الأيام التالية كان عبد الله يترك أمر الإشراف على سير العمل لأبو بكر ويقضى معظم اليوم فى مكتب المهندس حسن يتناقشان فى الاحتياجات المطلوبة لتنفيذ الفكرة، كان من ضمنها تعيين دفعة من المهندسين والإداريين الجدد واختيار منطقة لإنشاء مخزن للمهمات الخاصة بالإدارة ومكاتب وورشة كبيرة مجهزة بالماكينات المطلوبة للعمل وشراء روافع وسيارات للتحميل والنقل. كتب المهندس حسن كل ذلك فى تقرير وعرضاه على الحاج شرقى الذى وافق عليه وأرسله للمدير العام بالقاهرة.

كانت أسعد أيام عبد الله وهو يرى حلمه يتحقق على الأرض وعندما كانت المنشآت الجديدة تتشكل شيئا فشيئا والماكينات والتجهيزات تصل للموقع واحدة تلو الأخرى كان يشعر أنه يغرس جذرا فى هذه الأرض وسوف يترك بصمته فى تلك الصحراء التى عمرت به وبزملائه وإخوته بعد أن كانوا كما مهملا فى أقاصى الصعيد لا يشعر بهم أحد وأن هذا المكان صار جزءا منه ومن تاريخه فها هو أطلق الفكرة فإذا بالعشرات وربما المئات يعملون عليها لتصير

واقعا ملموسا وستصير جزءا من مستقبل هذه الصحراء حتى بعد أن يغادر العمل وأيضا بعد أن يموت.

وصلت دفعة المهندسين والموظفين الجدد ووزعوا على مواقعهم، ضمت الإدارة الجديدة إلى قطاع الحفر بالحقول برئاسة الحاج شرقى ونائبه المهندس حسن وتولى عبد الله الإشراف على الورشة والمخزن واليارد ورقى رئيسا للقسم الجديد الذى استحدث بعد التطوير، كان المهندسون الجدد يحبونه ويحترمونه فهو من علمهم رغم عدم معرفته بالإنجليزية أسماء المعدات ووظيفتها وطريقة عملها وكانوا يعودون إليه إذا صادفتهم مشكلة فنية فى العمل ويطلبون منه مصاحبتهم للبريمة إذا ظهر لهم ما يستدعى وجود خبير مثله.

كان عبد الله يبتعد بالتدريج عن مجال أقاربه من الأشراف والصعايدة الذين يعملون بالحقول، لم ينفصل عنهم فقد كان يراهم أينما ذهب وظل محتفظا بالود وما تمليه القرابة عليه من التواصل وكان فى جلساته معهم يسمع منهم أوجه المعاناة والقصور التى يعانون منها ويطلبون منه أن يفاتح المشرفين والمديرين من معارفه لحلها لكنه كان يؤجل الأمر للوقت المناسب وحتى لا يفهم الأمر على أن الغرور أصابه فصار يتدخل فيما لا يعنيه فضلا عن اعتقاده أن تلك الأمور لا تحل بهذه الطريقة وأن تلبية مطالب الناس تحتاج لسلطة أعلى من سلطة المديرين بالموقع وأن ما يحتاجه الناس يحتاج لموافقة الكبار فى القاهرة، كان بعضهم قد صنع سمعة طيبة كأخويه محمد وأبو بكر وغيرهما بفضل اجتهادهم وإتقانهم وأخلاقهم وصارت لهم قيمتهم لدى الرؤساء والمديرين، لكن ما يحدث معه كان شيئا آخر، لقد وجد

نفسه وقد صار ينتمى لمجال آخر لم يكن يتوقع الانتماء إليه هو شبه الأمّي الذى لا يحمل أي شهادة والذى كان أقصى طموح له أن يتقن صنعته ويحقق حياة مريحة يتمتع فيها هو وأهله بمستوى من الرفاهية يناسب وضعه ويضمن لأولاده حياة مريحة وشهادات عليا تجعل مهمتهم فى الحياة أسهل من مهمته، ألا يذوقوا مرارة الاغتراب وتعب الغربة الذى يعانيه هو ومن على شاكلته.

فتحت له علاقته بالمديرين وخاصة المهندس السمرى أبوابا لم يكن يحلم بولوجها، صار مدعوا دائما فى استقبال الزيارات التى يقوم بها مجلس الإدارة للحقول والحفلات التى تقام فى كل مناسبة سعيدة تمر بها الشركة فى صعودها، بدء الإنتاج فى بئر جديد أو الحصول على حق امتياز التنقيب فى منطقة جديدة أو انتهاء مشروع كبير كمشروع التوسعات فى مناطق المعالجة والتخزين وغيرها من المناسبات التى تشعر الجميع بروح التحدى والنجاح وسعادة أن تكون الشركة جزءا من روح التطور والنهوض السارية فى البلاد وكانت أول المناسبات التى دعى إليها هى بدء الإنتاج من البئر البحرى فى خليج السويس بمنطقة بلاعيم والذى كان أول عهد مصر بإنتاج البترول من داخل الماء. فى تلك المناسبات كان عبد الله يقدم على أنه أحد الكوادر العمالية الوطنية المتميزة والمشهود لها بالتفانى والإتقان وأنه النموذج الذى تسعى إدارة الشركة لتكراره لتكوين جيل تتوافر فيه الدراية والخبرة اللازمة لتطوير العمل وتقليل الاعتماد على الخبرات الأجنبية.

كان يتذكر هذه الكلمات ويستشعر معانيها عندما يستمع لخطب الزعيم عبد الناصر ويربط بينها وبين حلم الزعيم بأن تكون

مصر بلدا كبيرا متقدما ودولة قوية تمتلك إرادتها وتقود أمتها، لم تكن السياسة يوما من اهتماماته لكنه كان يحب عبد الناصر كما أحبه كل من حوله، كانت أمه وغيرها من أهله وأقاربه يحبون عبد الناصر لأنه صعيدى مثلهم ولأن أصله كان مثل أصلهم فهو من بنى مر بأسيوط وهى قبيلة عربية هاجرت واستقرت بمصر كما فعل أجدادهم ولأنه كما تقول آمنة (راجل من ضهر راجل)، وتراه رجلا لا يحب الميوعة، ماهر فى السياسة لكنه حاد ومستقيم ومباشر لا يلاوع ولا يداهن و"يقول للغولة عينك حمرا" وكانوا يحبون فيه صلابته وعناده فى الدفاع عما يعتقد أنه الحق وتمسكه الدائم بخيار المقاومة، كانوا يتذكرون المواويل التى صحبتهم وظلت فى الحفظ والصون داخل أرواحهم حتى بعد أن عاشوا فى المدن، تلك المواويل التى تتحدث عن الرجل الأصيل السبع الذى لا يطأطأ رأسه ولا يرضى بالذل مهما تكالبت عليه الضباع الأندال ثم هو قبل كل ذلك نصيرهم وسندهم، هم الفقراء الذين لم يرثوا أرضا ولا مالا ويعتمدون على عافيتهم فى كسب قوتهم، كانوا يشعرون بالأمان فى وجوده وفى كلماته ونبرة صوته ويشعرون بعاطفته نحوهم فى خلجات الصوت التى تأتيهم عبر الراديو، كانوا يصدقونه ويصدقون أنه يعمل من أجلهم حتى يعيشوا هم وأبناؤهم بكرامة مرفوعى الرأس.

كان عبد الله يحبه كغيره لهذه الأسباب ولكن كان لديه سبب إضافى يخصه فقد اعتقد أنه لم يكن هو أو غيره من "جماعتهم" ليصعد فى عمله ويصبح محط اهتمام الكبار لولا عبد الناصر الذى كان ابن موظف بسيط من عوام الناس لكنه صدق حلمه ووضع

كفنه على يديه وتحدى الظلم دون أن يبالى بالعواقب، كان يرى فيه القدوة فى التمرد وتحدى الظروف هو الذى لم يفعل فى حياته سوى أنه رفض أن يبقى حيث وضعته الظروف وقرر أن يتحرك ويحرك عائلته كلها معه.

بمرور الوقت لم تعد علاقة عبد الله بالمهندسين والمديرين فى حدود العمل فحسب لكن مشاعر صداقة وود وتقارب شخصى نشأت بينه وبين بعضهم خارج نطاق الشركة، فاجأها يوما بطلبه أن تصحبه لفندق بلير للقاء المهندس السمرى الذى سيقضى يومين فى السويس وهو فى طريقه لأبو رديس، سألته:

- طيب وانت عايزنى معاك ليه؟
- أصل مرته هتكون معاه هنا وهترجع على مصر لما يكمل هو على الجبل.
- وهما نازلين فين؟
- فى فندق بلير.

فى المساء صحبها للفندق فالتقيا بالرجل وزوجته فى كازينو الفندق حيث قضوا السهرة، فى طريق عودتهما قالت فاطمة:

- لطيفة مرات المهندس السمرى وباين عليها بتحبه.
- أنا برضه لاحظت كده، بصراحة هو راجل محترم وعنده ضمير ومتواضع.
- بس شكله بيحبك يا عبده ومقتنع بكفاءتك.
- الحمد لله، أنا برضه بحبه عشان راجل حقانى ومخلص لشغله.

خلال السهرة تبادلت فاطمة وسوسن زوجة المدير العام الحديث عن الحياة فى السويس والقاهرة وهموم الأولاد، إشتكت فاطمة من عدم وجود زوجها باستمرار معها ومع الأولاد لسفره للصحراء فردت سوسن أن زوجها لا يسافر ولكنه يقضى معظم الوقت فى المكتب ويعمل أحيانا فى الأجازات واتفقتا على أن من واجبات الزوجة أن تساند زوجها وتقوم بدوره فى غيابه حتى لا تتأثر تربية الأبناء.

- عبد الله، مدام سوسن عزمتنى إننا نزورهم فى مصر وأنا كلمتها تقنع الباشمهندس أنهم يقضوا معانا أجازة هنا فى السويس، هى عاجباها البلد ونفسها تتفسح فيها.
- وماله هابقى أأكد على الباشمهندس، لكن زيارتهم فى مصر صعبة، هنسيب العيال إزاى.
- هاشوف طريقة بإذن الله.

تبادلت الأسرتان الزيارات على فترات متقطعة، عند سفرها للقاهرة كانت فاطمة تعهد بالأولاد لأبلة أنيسة حتى عودتها فى نهاية اليوم حيث يقضى الكبار وقتهم فى اللعب مع ابنتها وابنها ويكون الصغير أمجد فى رعاية الأبلة إذ أن الصغير يعرفها ويسعد بوجوده معها وكانت هى تحبه ولا تكف عن تقبيله وتدليله.

كان المهندس السمرى يمر عليهما بصحبة زوجته ليقلهما من باب الحديد بالسيارة إلى وسط البلد، يجلسون لتناول الجاتوه والشاى فى جروبى أو الأمريكين ثم تنطلق الزوجتان للتمشية والشراء فى الشوارع القريبة، فؤاد وعماد الدين وسليمان وقصر النيل حيث محلات

الملابس والأحذية الراقية وأكشاك الآيس كريم والمخبوزات بينما يبقى الرجلان يتسامران حتى عودة امرأتيهما لينطلقوا حينها إلى أحد المطاعم القريبة لتناول الغداء والمشروبات فيطلب الرجلان بيرة ستلا بينما تطلب المرأتان القهوة أو الشاى والعصائر بينما أحاديثهم تجرى عن أحوال البلد أو العمل أو أحدث الموضات والتقاليع إذا قررت الزوجتان إطلاع زوجيهما على مشترواتهما من الفساتين والأحذية والإكسسوارات من محلات شيكوريل وجاتينيو وريفولى وبعد الغداء يدورون على دور السينما المنتشرة حولهم بعد إلحاح من الزوجتين ليشاهدوا الأفلام الرومانسية خاصة أفلام فاتن حمامة وليلى مراد، أحيانا كان ينضم إليهم بعض أصدقاء المهندس السمرى ومدام سوسن فينطلقون إلى حديقة الحيوان أو الأورمان أو جنينة الأسماك، وأحيانا منتزه المريلاند بمصر الجديدة الذى كانت فاطمة تحب قضاء اليوم به لتتمكن بعد الغداء من التمشية مع صديقاتها فى الحى الراقى ومشاهدة العمائر والبواكى والكنائس بطرازها المعمارى الفريد، وكان أبو بكر إذا تصادف وجوده فى أجازة يصحب أخاه وزوجته حتى صار عضوا غير منتظم فى الشلة.

كانوا يحبون القاهرة ويستمتعون بقضاء تلك الأيام بها فقد كانوا قد تعودوا على السويس المدينة الصغيرة الهادئة، مدينتهم التى يشعرون فيها بالأمان والراحة أما القاهرة فكانت تمثل لهم الرفاهية والإثارة وكسر الملل. تعود عبد الله وفاطمة فى نهاية يوم الفسحة أن يعرجا على أحد محلات الحلوى الشهيرة والمعروفة بجودة الجاتوه أو التورتة بها فيشترون علبتين، واحدة يهدونها لأبلة أنيسة والأخرى للأولاد وكان

عبد الله يشترى أحيانا علبة ثالثة يهديها لأمه عند زيارته لها التى كان يحرص عليها فى بداية ونهاية كل أجازة.

حرصت فاطمة أن تدفع زوجها لدعوة السمرى وسوسن ومعهما أقرب أصدقائهما لزيارة السويس وقضاء اليوم معها هناك، كان الضيوف يأتون من القاهرة فينطلقون بهم إلى بور توفيق أو أحد الكازينوهات على الكورنيش فيقضون بعض الوقت ثم يعودون للبيت حيث تكون فاطمة فى اليوم السابق قد جهزت أصناف الطعام بمساعدة أبلة أنيسة وعند عودتهم كانت النساء تجتمع فى مطبخها الصغير لتسخين الطعام أو تسويته، وكانت هى تحرص على إظهار مهارتها فى الطبخ خاصة فى الأصناف التى لا يعرفها أهل القاهرة كالملوخية بالجمبرى أو صوانى السمك الصيادية وأنواع سمك البحر الأحمر التى كانت تشتريها من حلقة السمك فى الغريب وتتفنن فى طرق إعدادها فتحظى بعد الغداء بإشادة الجميع.

اتسع العالم أمامهما وأصبحا جزءا من الحياة الراقية وصار لهما أصدقاء من الطبقة العليا فصارا أكثر اهتماما باقتناء أحدث الملابس والموضات وأكثر حرصا على هندام أولادهما وتجديد فرش بيتهما كلما سنحت الظروف.

ساعدها انشغالها بأطفالها وبأيام الفسح فى السويس والقاهرة وزياراتها لأهل زوجها على التغلب على إحساسها بالوحدة التى استبدت بها بعد رحيل أهلها إلى الإسكندرية حيث مكثوا قرابة أربع سنوات لم تر فيها منهم سوى أبيها الذى زارها مرات نادرة وولد

خلالها أخوها الأصغر الذى يصغر راوية ببضعة أشهر والذى سماه أبوه "أبو العباس" تبركا باسم القطب المبارك.

9

بتدفق البترول فى الصحراء الغربية تطلب الأمر إنشاء معمل لتكريره فى الإسكندرية القريبة من مناطق إنتاجه حيث يصل إليها عبر شبكة من الأنابيب التى مدتها شركة الأنابيب التى يعمل فيها أبوها فقررت الشركة نقل بعض العاملين للفرع الجديد وكان الريس عبد المطلب ضمنهم. كانت فاطمة تعرف أخبارهم فى تلك الغربة من الخطابات التى كان أبوها يحرص على إرسالها إليها حتى يطمأنها عليهم ويطمئن عليها من ردودها عليها.

فترة وجود أهلها فى الإسكندرية كانت هى أصعب أوقاتها منذ أن تزوجت، كان عبد الله معظم الوقت فى عمله بالجبل، ولم يعد لأبلة أنيسة نفس الحضور الذى كانت تشعر به فى بداية زواجها فالمرأة أيضا لها بيتها وزوجها وأولادها ومشاغلها، لم تنقطع عنها ولا خفت لديها مشاعر الحنان التى تحيطها بها ولكن الوقت المتاح لدى كل منهما أخذ يضيق شيئا فشيئا.

كانت زياراتها لحماتها وسلايفها نظاما ثابتا خلال فترة وجود زوجها بأبو رديس فهى تحبهن وتحرص على ألا يشعرن أنها تأخذه بعيدا عن أهله وناسه بل تعمدت أن تصنع معهن علاقة حميمة مباشرة دون وساطته وفى غير وجوده. كانت تفاجئهن فى زياراتها

إليهن بأصناف الحلويات التى تجيدها فتعد لهن ولأطفالهن أنواع الكيك بالفانيليا أو البرتقال أو الشيكولاتة وأنواع البسكويت بالنشادر أو البيتى فور التى تبرع فى تزيينه بعد لصق قطعتين منه بقليل من المربى ليصيرا قطعة واحدة تأخذ شكل الصدفة وكانت أحيانا تعد لهن "السلاقة" التى تعلمتها من أمها فتعجن الدقيق بقليل من الماء حتى تصير العجينة صلبة قليلا فتفردها بالنشابة (أسطوانة خشبية ناعمة الملمس يشكل طرفاها ليصبحا مقبضين) ثم تطويها عدة مرات حتى تصير شريطا من العجين تقوم بتقطيعه بشكل مائل إلى شرائح رفيعة، تضع حلة مملوءة بالماء على النار وتضع فوقها مصفاة وتسد الفرق بين حافة الحلة والمصفاة بالعجين حتى لا يتسرب البخار ثم تضع شرائح السلاقة فى المصفاة وتغطيها بغطاء محكم وعندما تنضج السلاقة على البخار الساخن تخرجها فى حلة نظيفة وتضع فوقها السمن البلدى والسكر المطحون، وفى العيد الصغير كانت تعد البسكويت والكعك والغريبة التى كانت تتميز فى صنعها لدرجة أن صار طعم مخبوزاتها مميزا بين معارفها الذين كانت تهديهم بعضا منها أو تساعدهم فى إعدادها حتى صارت لها وصفتها المعروفة باسم "وصفة فاطمة" تحدد فيها المواد المطلوبة للخبز ومقاديرها وطريقة العجن والتسوية فى الفرن تكتبها النساء وتعود إليها عاما بعد عام وتظل هداياها ومهارتها مصدر حكى بينهن إذ كانوا يبررون ذلك كله بأنها عاشت حياتها كلها فى المدينة بينما جئن جميعهن من الصعيد.

كانت تشعر بالراحة عندما ترى السعادة على وجه آمنة أثناء زياراتها، كانت حماتها تعجب بأصناف الطعام التى تطبخها وبأنواع

الحلوى التى تهاديهم بها ولكن عجبها الأكبر كان من أن هذه الفتاة الصغيرة استطاعت أن تفعل ما لم تستطع هى أن تفعله مع ولدها، كانت ترى أن عبد الله بحر هائج متلاطم الموج وفاطمة هى الشاطئ الذى ألجم جموحه وتتذكر يوم ولدته وصدمت بلونه الأسود فتسبح الله الذى يقسم الرزق فيعطى لولدها الأسود زوجة بيضاء جميلة وهادئة الطبع كأنها خلقت من أجله.

لكن زياراتها لبيت أهلها كانت هى عيدها.

عاد أهلها للسويس بعودة والدها لعمله فى عجرود، لم تتكاسل عن زيارتهم كما كانت تفعل أحيانا قبل محنة هجرتهم للإسكندرية فكانت تخصص لزيارتهم يوما كل أسبوع من الثلاثة التى يقضيها زوجها فى الجبل وفى أسبوع وجوده كان يوصلها بالحنطور إليهم دون أن ينزل منه ثم يذهب لمقابلة أصحابه على المقهى ويعود بعد ساعات ومعه أكياس الفاكهة حتى لايدخل خاوى اليد على "بيت نسايبه" فيسلم على أهل البيت ويجلس مع حماه فى الصالون يشربان القهوة ويدخنان وهما يتحدثان عادة عن آخر أخبار الشركات وعن مستقبل البترول فى مصر وعن عبد الناصر الرجل الذى أنصفهم وفتح لهم مجالات الرزق وأشعرهم بالكرامة.

كانت تصنع لأهلها نفس الأصناف التى تهديها لأهل زوجها ولكنها لا تجرؤ على الدخول عليهم بالسلاقة، كانت تدرك أن مهارتها مهما بلغت فهى لا تستطيع مقارنة سلاقتها بسلاقة أمها التى كانت كأنها تملك أسرار هذا الصنف أو ربما هى التى اخترعته. فى

زياراتها للقاهرة كانت تشترى بعض الإكسسوارات أو قطع الملابس الصغيرة، بلوزة أو إيشارب أو فستان بيتى من أجل أختيها عزة وهالة، أخطأت ذات مرة فجاءت لهما ببعض أدوات الماكياج فخاصمتها أمها شهرا لأنها تفتح عينيهما على ما لا ينبغى أن تعرفه البنت قبل الزواج، أما الصغيران محمد وأبو العباس فكانا يحبان علب العصير والمربى التى تحضرها أختهما خصيصا من أجلهما.

كانت تأتى لبيت أهلها فى الصباح وتتلكأ بعد الظهر فى العودة لبيتها حتى ترى أباها عند عودته من عجرود، عند ظهوره لدى الباب، ينطلق أحفاده إليه فيأخذهم واحدا واحدا فى حضنه وهو يربت عليهم بحنان بالغ ويخرج من جيبه قطع النقود فيعطيها لهم حتى يشتروا "حاجة حلوة" ما يجعل دموعها تكاد تترقرق فى مآقيها وتتمنى أن يأخذها هى أيضا فى حضنه ويملس على شعرها ويقبل خدودها، لكنه لم يكن يفعل، كانت تشعر أنها لم تشبع منه ولم يتسن لها الوقت الكافى لتظل تنعم بحنانه الذى تحسه فى نظرة عينيه إلى أحفاده، أبنائها، وكان هو يشعر بما يعتمل فى نفسها ويفهم معنى لمعة عينيها بالدموع فهى ابنة قلبه التى عرف معنى الحياة عندما أخذها لحمة حمراء بين يديه، كان يتمنى أن يفتح لها ذراعيه على اتساعهما لترتمى بينهما وترتوى من حضنه، فقد زوجها وهى لم تزل طفلة لأنهم اعتادوا على ذلك ولا يستطيعون تغييره، لم تكتف من حنانه وإحساسها بمتعة حمايته لها ووجودها فى مجاله، ولأنه لا يصح وقد صارت زوجة وأما أن يحضنها ويقبلها فقد كان يبث حنانه الذى يكاد يبكيها ويبكيه فى

أطفالها الذين هم قطع حميمة منها لعله يصل إليها من خلالهم فتدرك أنها المقصودة به.

- إتغديتى يا فاطنة انت وعيالك؟
- أيوة يا بابا، ادخل غير هدومك وأنا هحطلك الغدا.
- لا يا بوى اقعدى وخللى عزة والا هالة تجيبه.
- لا يا بابا أنا عايزة أخدمك زى زمان.
- حبيبة أبوكى يا فاطنة.

ثم يسرع للحمام قبل أن ترى دموعه التى لم يستطع أن يبقيها داخله.

قبل زواج أختها عزة من أحد أقاربهم فى البطاطخة، قضت معهم أسبوعا وهى تساعد أمها وأختها فى تجهيز ملابس العروس وجهازها لكنها لم تستطع السفر معهم فالمدة التى كان مقررا أن يقضوها هناك طويلة، كان عليهم أن يكملوا التجهيز للزواج من خبز الكعك والشريك (الفايش) والبسكويت وشراء غرفة نوم العروسين والفرش والقطن من قنا ثم تنجيد المراتب والضرابية (اللحاف وملحقاته) والترتيب للفرح ثم القضاء أسبوعا بعد الدخلة للاطمئنان على العروس وإرسال "العشاء" إلى أسرة زوجها خلاله كما تقضى الأصول، كما أن بيت جدها عاشور لن يستوعب عددهم الكبير خاصة انه سيكون مليئا بالناس والحركة، إحتار فكرها فلم تستطع ترك الأطفال أو أخذهم معها فاستأذنت من والديها ألا تسافر فوافقا بل أيداها حتى تراعيهم وحتى لا يشعر عبد الله بالضيق رغم أنه ترك لها حرية اتخاذ القرار،

عندما ودعتهم احتضنت أختها وهى تبكى وأهدتها علبة كبيرة تحوى مجموعة كاملة من أدوات الماكياج وأفاضت فى شرح طريقة استعمال كل نوع منها وكذلك أهدتها عددا من قمصان النوم وأروابها كان بينها طاقم أحمر اقترحت على أختها أن ترتديه فى ليلة الدخلة هامسة لها:

- إسمعى كلامى ده متجرب وسره باتع.

ضحكت الأختان من خلف دموعهما ضحكة ذات دلالة دون أن تخشيا خصام أمهما فقد كبرت عزة ولم يتبق عليها سوى أيام وتتفتح عيناها على تلك الأمور المحرمة على البنات.

10

فى جلساته المسائية فى سكنه بعد أيام العمل الشاق كان عبد الله يتذكر دائما يوم قدومه من الصعيد وحلمه آنذاك بأن يصير واحدا من أهل المدن ويبتسم حين يدرك أن ما تحقق هو أكبر من حلمه، لم يصبح عبد الله واحدا من أهل المدن بل صار واحدا من وجهائها بمظهره ورشاقته وتوافر المال فى جيبه ومستوى الحياة الذى تعيش فيه أسرته والمكانة التى يحظى بها فى عمله التى كانت ترتفع يوما بعد يوم مع اتساع أعمال الشركة وتوافد المهندسين والموظفين الجدد إلى الحقول.

ذات يوم كان عبد الله جالسا فى سكنه مع بعض زملائه فأقبلت مجموعة أخرى من الزملاء الذين ينتمون جميعا للأشراف لمح من بينهم

محمود وأبو بكر، بعد السلام جلسوا جميعا وكان يبدو فى هيئتهم أن هناك أمرا محددا يريدونه فيه، بادر محمود:

- يا عبد الله، الجماعة كلمونى أنا وأبو بكر فى موضوع يخصك وجايين لك يفاتحوك فيه.
- خير إن شاء الله.
- خير يا خوى، دلوقتى التقديم لانتخابات النقابة هيبدأ بعد أسبوعين واحنا عايزينك ترشح نفسك.
- ربنا يكرمكم على الثقة الغالية دى، بس والله الموضوع ما خطرش على بالى قبل سابق.
- يا عبد الله الناس شايفة إنك أكتر واحد ممكن يعرف مشاكلهم ويقدر يتكلم فيها مع الكبار، إنت ما شاء الله تعرفهم وكلهم بيحبوك وبيسمعوا منك وبعدين النجاح مضمون الناس كلها هنا قرايبك وعارفة أصلك وفصلك.
- الحمد لله بس الموضوع عايز تفكير، ما أنا عشان أسد لازم أشوف ظروفى ووقتى لكن جيتكم وثقتكم على راسى من فوق.
- فكر وإن شاء الله ربنا هيهديك للصالح، الناس عشمانة فيك ودى نعمة كبيرة من ربنا.

سمع عبد الله من الجميع خلال تلك الأمسية كلاما مشابها لما قاله محمود، كان على قدر سعادته بثقتهم ورغبته ألا يرد طلبهم قلقا أن يشغله هذا الأمر عن التركيز فى عمله صاحب الفضل عليه فى تلك المكانة التى يتمتع بها بينهم.

فكر كثيرا فى الأمر وأخيرا اهتدى لفكرة ربما تبعث الطمأنينة إلى قلبه من تلك الناحية، إستدعى أبو بكر لمكتبه وبادره:

- إزيك يا خوى، أنا عايزك فى موضوع مهم وياريتك تطمنى.
- خير يا عبد الله رقبتى سدادة.
- شوف أنا علمتك كل اللى أعرفه وأنا شايف إنك بقيت تمام وبتتحسن مع الوقت.
- ربنا يخليك إنت معلمى وفضلك على راسى.
- بلاش كلام فاضى، إنت خوى يا واد، أنا من ساعة ما جيتولى فى موضوع النقابة ده وأنا حيران، من ناحية عايز أعمل اللى انتم طالبينه ونفسى أخدم ناسى وأهلى بس من ناحية تانية قلقان على الشغل والوضع اللى بنيناه على يدك بالتعب والعرق.
- إيه اللى قالقك يا عبد الله؟
- إنت عارف النفوس، أخاف انشغل بموضوع النقابة وأسهى عن الشغل وألاقى حد بيتنطط ماحدش خالى من الحساد والكارهين يا خوى.
- عندك حق، بس أنا هنا دراعك وعينك وضهرك، ما تخافش يا عبد الله.
- هو ده بالظبط اللى عايز أسمعه منك، لما أسهى إنت بدالى وخللى عينك فى وسط راسك، إتفقنا.
- إتفقنا، ها أكلم ناسنا نقعد الليلة مع بعض نرتب للانتخابات.
- على بركة الله.

تقدم عبد الله بطلب الترشح لعضوية النقابة ممثلا للعاملين بالحقول، بعد انتهاء فترة التقديم أعلنت أسماء المرشحين وكان من بينها اسم "حربى النجار" من العاملين فى إدارة المطافى وهو من الأشراف القبلية وكانت جماعة المخادمة تعرفه وتعرف أقاربه الموزعين على عدة إدارات بالحقول ونربطهم علاقات الود فهمم جميعا أقارب وينتمون لأصل واحد. ذهب مجموعة من الأشراف لحربى لإقناعه بالتنازل عن الترشيح حتى لا تتفتت أصواتهم بينهما ويصب ذلك فى مصلحة بقية المرشحين من "الفلاحين"، كان رده:

- وليه هو ما يتنازليش.

قال أحدهم وكان من الشيخ عيسى:

- يا حربى إنت عارف إن الباش ريس عبد الله مش قريبى وإنكم انتم الاتنين واحد عندى، لكن الحق أنك أنت اللى لازم تتنازل لأنه هو فرصته أكبر وهو بصراحة هيخدمنا أكتر.
- مش بتقول أنه فرصته أكبر خلاص يورينا والناس تحكم وأنا هاكون فى خدمتكم لو نجحت، الحكاية مش حكاية صحبية للكبار، وبعدين هو حد عارف هو مصاحبهم ليه.

عندما حكوا لعبد الله ما حدث، لامهم أنهم ذهبوا إليه وصغروا أنفسهم أمامه لأنه يعرفه "جاحد ولا يصون المعروف وشرانى"، لم يشغل باله كثيرا أمر منافسة حربى فهو يعرف أن الناس لا تحبه ولا تثق فيه وأنه سوف يكتسحه وساعتها سيعرف مقامه.

بدأت الدعاية الإنتخابية وبدأت معها الاجتماعات الليلية والجولات النهارية لعبد الله، كان عبد الله لا يستريح لخوض الانتخابات اعتمادا على انتمائه للأشراف فذلك عكس ما كان يؤمن به خاصة بعد أن توطدت علاقته بمن يسمونهم الفلاحين واتسعت رؤيته للعالم والناس، أليس المهندس السمرى والحاج شرقى والحاج سليم والمهندس حسن وغيرهم من أصحاب الفضل عليه فلاحين، كان يطرح رؤيته للنقابة والدور الذى يعد الناخبين بالقيام به بعيدا عن فكرة أنه سيكون مندوبا للأشراف ولكنه سيكون مندوبا لكل العاملين وسوف يكون صوت الجميع فالجميع لديهم نفس المشاكل والمطالب والأحلام ولكنه كان يغض الطرف عما كان يقوم به أبو بكر ومحمود وبقية أقاربه من حشد الأصوات على أساس نعرة الأشراف وكان يعتبرها جزءا من لعبة السياسة التى تورط فيها وأن غرضها هو إنجاحه وهو ما سوف يحقق صالح الجميع فقد كان يعتقد أن لديه الأفكار والمقترحات والأسلوب المناسب لتحقيق مطالب العمال أشرافهم وفلاحيهم.

قبل موعد إجراء الانتخابات بنحو عشرة أيام وبينما كان فى ذروة انشغاله بالتربيطات مع مجموعات العمال والحصول على وعودهم بانتخابه، جاءه من يبلغه أن الحاج شرقى يريده حالا فى المكتب، استأذن عبد الله من الزملاء وأسرع لمقابلة الحاج شرقى الذى بادره قبل أن يجلس على الكرسى المقابل للمكتب:

- عندنا مشكلة كبيرة يا عبد الله.
- خير لا سمح الله.

- يارب يكون خير، بس لجنة الجرد اكتشفت عجز فى عهدة المخزن وطلبت منى أشوف الموضوع قبل ما ترفع تقريرها للإدارة.
- والعجز ده إيه بالظبط؟
- تلات دقاقات جديدة وعشرين قطعة غيار وشوية علب بوهية.
- ياه ودول راحوا فين؟
- مش عارف يا ابنى بس .لازم تراجع الدفاتر وتسأل أمين المخزن والعمال وبسرعة.
- حاضر يا حاج هاشوف وهابلغك لو وصلت لحاجة.

ذهب عبد الله لمكتبه على الفور ليفكر قليلا فى الأسلوب الأنسب للتعامل مع هذا الموقف الذى يتعرض له لأول مرة، شعر بمرارة إذ استنتج بحدسه أن هذا الأمر مدبر وليس عفويا فالنظام الذى يعمل به فى استلام وتسليم المهمات نظام محكم ومجرب لسنين فماذا حدث كى تختفى هذه الأشياء، كان احتمال سرقتهم بعيدا فمن ذا الذى يجرؤ على السرقة وهو إن كشف سيقطع عيشه ويطرد من العمل وربما يدخل السجن؟

ذهب للمخزن، جاءه أمين المخزن الأستاذ محسوب النوبى مطأطأ الرأس وعلى وجهه تعبير خجل صادق، نظر إليه عبد الله متفحصا واستبعد أن يكون هذا الرجل الطيب سارقا أو متآمرا عليه، كان محسوب رجلا تقيا لا يترك فرضا وكان يحبه ويوده فكيف يؤذيه وهو من اختاره من بين العاملين بإدارة المهمات ليضمه للإدارة الجديدة

ويسجل اسمه دائما فى كشف المكافآت الخاصة التى تصرف للمتميزين الذين يبذلون جهدا أكبر من غيرهم فى العمل وكان يستشعر إخلاصه له وتفانيه لإرضائه عندما يواصل أحيانا الليل بالنهار إذا كان هناك ضغط عمل لتوفير احتياجات الحفارات التى أصبحت تعمل تقريبا دون توقف لكثرة عدد الآبار، سأله:

- تفتكر يا محسوب إيه اللى حصل والحاجات دى راحت فين؟
- والله أنا مش عارف أقول لك إيه يا باش ريس بس أنا شاكك إنهم اتسرقوا وقت صلاة الجمعة اللى فاتت.
- شاكك فى مين وليه يوم الجمعة؟
- الواد دسوقى اللى بيشتغل معايا حاله متغير اليومين دول ولونه مخطوف، وبعدين أنا رجعت المخزن بعد صلاة الجمعة على طول وكان فاضل لسه نص ساعة فى وقت الراحة لقيته راجع المعسكر عرقان ومتوتر ولما سألته إنت ليه ما رجعتش معانا تتغدى وتصلى قال لى كان عندى مغص وإسهال وما قدرتش أرجع إلا دلوقتى.
- طيب ما يمكن صادق فى اللى بيقوله؟
- يمكن، بس برضه إحساسى إنه كداب وليه يد فى اللى حصل.

كان دسوقى ولدا فقيرا من إحدى قرى الفيوم يعمل بنظام اليومية ضمن العمال الذين يحضرهم مقاول الأنفار ليعملوا مساعدين لعمال الشركة فى النظافة والتحميل أو حتى عمل الشاى والقهوة فى أماكن

العمل وقد تم توزيعه كنصيب لإدارة مهمات الحفر من عمال اليومية ففضل عبد الله أن يرسله للمخزن ليساعد محسوب فى أعمال النظافة وترتيب المهمات على الأرفف والاعتناء بإزالة الغبار عن القطع الثمينة التى يمتلئ المخزن بها وقد أثبت الولد أمانته والتزامه فكان عبد الله يعطف عليه دوما ويمنحه "ما فيه النصيب" من جيبه الخاص لأنه كان يعول إخوته الأيتام وأمه المريضة، فكر عبد الله هل يعقل أن يعض دسوقى اليد التى تمتد إليه بالخير وهل يكون الفقر سببا فى أن يرتكب الفقير حماقة تجعل فقره يدوم دون أملٍ فى أن يتخلص منه يوما.

سأل عبد الله محسوب:

- عندك دليل على كلامك ده يا محسوب، أصلى ما قدرش أقول للحاج شرقى أو لجنة الجرد إن محسوب حاسس.
- بصراحة ما عنديش دليل وإلا كنت كشفته، يعنى أنا عاجبنى كسوفى قدامك، يا باش ريس إنت صاحب فضل وما تستاهلش إلا كل خير نقوم نأذيك، أستغفر الله العظيم، حسبى الله ونعم الوكيل فى اللى عملها.

ثم أخذ يبكى كطفل صغير.

دخل عليه أبو بكر فى المكتب فوجده مهموما ومطفأة السجائر أمامه مملوءة بالأعقاب، نظر إليه بانكسار قائلا:

- على مهلك على نفسك يا باش ريس، صحتك يا خوى.
- هى دى وصيتى ليك ورقبتك السدادة؟

- والله الشغل ماشى زى الساعة بس دى فلتت منى غصب عنى، عليَّ بيمين ما تطلع غير من النجس اللى إسمه حربى.
- بلاش ناخد حد بالظن يا بكر، ربنا كبير.

فى المساء اجتمع لديه إخوته جميعا، جاء محمد من السويس قبل موعد عودته بيومين وجاء محمود وحسين من الوردية مباشرة ولم يفارقه أبو بكر طوال اليوم، أخذوا يتباحثون فيما يمكن فعله، كانوا يشعرون أنهم أمام مصيبة أصابتهم جميعا وأنهم لابد أن يواجهوها معا وكانوا واثقين أن الله لن يخذلهم أبدا، إقترح محمد أن يحاول أبو بكر وحسين التحدث مع جماعة الأشراف القبلية لعل أحدهم يقع بلسانه بكلمة تكشف لهم سر ما حدث، وأن يذهب هو ومحمود للتحدث للحاج شرقى بحكم علاقتهما القديمة به لتأجيل إبلاغ القاهرة يومين أو ثلاثة فربما ينكشف الأمر قبل مرور هذه المهلة وأن يبدأ عبد الله ومعه محسوب فى مراجعة الكشوف فربما يكون أحدهم قد استلم الأشياء الضائعة ولم يوقع بالاستلام وأنها موجودة هنا أو هناك.

بدأوا فى تنفيذ الخطة فذهب محمد ومحمود لمقابلة الحاج شرقى الذى أبلغهما أن الأمر صار أكبر من سلطته وأنه اضطر إلى إبلاغ المهندس سيد مدير عام الحقول قبل أن يعرف عن طريق لجنة الجرد فيسوء الموقف أكثر فطلبا منه الذهاب معهما للمهندس سيد لطلب مهلة اليومين، كان لحسين زميل فى الوردية من جماعة الأشراف القبلية وكان يحبه ويشاركه الحديث والطعام وشرب الشاى فى الاستراحات، ذهب إليه ومعه أبو بكر وحاولا استكشاف معرفته بواقعة اختفاء المهمات من مخزن الحفر فراوغهما كثيرا وبدا حريصا كمن أوصى

بالحذر فخرجا من عنده وهما موقنان أن الموضوع لن يخرج عن كونه مكيدة نسجها حربى وبعض جماعته لتشويه صورة عبد الله والتأثير على موقفه فى الانتخابات أو شطب اسمه من سجل المرشحين.

اجتمع الأخوة مرة أخرى فى مسكن محمد. الذى أبلغهم بموافقة مدير الحقول على تأجيل إبلاغ القاهرة يومين وحكى أبو بكر عما دار مع قريب حربى وزيادة شكه هو وحسين فى أنها لن تخرج عن حربى وجماعته وأبلغهم عبد الله أنه راجع كل الكشوف وأرسل من يسأل فى البريمة وطلب من المهندس حسن أن يسأل الخواجة باتريك دون فائدة.

فى اليوم التالى بلغهم أن حربى يدور بين العاملين مرددا:

- أهو الزعيم بتاعكم طلع حرامى، يالله دخلوه النقابة عشان يخربها.

بعد انتهاء مهلة اليومين، تم استدعاء عبد الله ومحسوب وأبو بكر للتحقيق أمام الشئون القانونية بالقاهرة، سافرت بهم سيارة بسائق من سائقى الحقول فى فجر اليوم الثالث.

حكى أبو بكر ومحسوب للمحقق شكوكهما وأسبابها وعندما جاء دور عبد الله قال للمحقق:

- أنا مابتهمش حد، أنا المسئول ومستعد لأى حساب.

أعجب المحقق بشجاعته وثقته بنفسه وتحمله للمسئولية، أدرك أنه أمام رجل حر يواجه قدره بنبل ولا يتملص من مسئوليته فيلقيها على من هم أقل مكانة منه كى ينقذ نفسه وكان قد سمع باسمه يتردد فى

مكاتب الشركة وعن سمعته الطيبة وسمعة إخوته جميعا فقرر ألا يتعجل فى إدانته وأن يوسع من دائرة الشهود، أرسل فى طلب حربى والعامل دسوقى للإدلاء بأقوالهما ومواجهتهما بادعاءات الشهود ضدهما.

انتهت نتيجة التحقيق بإدانة حربى والعامل دسوقى الذى كان السبب فى كشف المؤامرة بعد أن ضيق المحقق عليه الخناق فانهار واعترف بكل شيء وأبدى ندمه على خسته مع الباش ريس عبد الله الذى كان جزاء إحسانه إليه أن يشارك فى إيذائه ومحاولة تلويث سمعته وطلب من المحقق أن يسمح له بالعودة للحقول حتى "يبوس يده" لكن طلبه قوبل بالرفض وتمت تسوية الموضوع إداريا دون إبلاغ النيابة بإنهاء عمل دسوقى وإبلاغ المقاول ألا يرسله للعمل فى أى موقع للبترول وذلك بعد أن دلهم على مكان الأشياء المسروقة التى ألقوها فى حفرة كبيرة بالصحراء أخذهم إليها عرباوى (بدوى) من معارف حربى بعد أن حملوا المسروقات فى السيارة التى يتنقل بها عمال إدارة مكافحة الحريق التى أخذها حربى بالحيلة وقت صلاة الجمعة، أما حربى فقد أجبر على تقديم استقالته مقابل ألا تبلغ النيابة بالسرقة والتآمر والإضرار بصالح الجهة التى يعمل بها، خاف حربى من السجن والفضيحة فتقدم بالاستقالة صاغرا وعندما وصلت تلك الأخبار للحقول عمت الفرحة جموع العاملين الذين توافدوا لتهنئة عبد الله فكان كان يرد عليهم:

- اللى عايز يبارك لى يدينى صوته.

اكتسح عبد الله الانتخابات فحصل على أكبر عدد من الأصوات بفارق هائل عن أقرب المنافسين وصار عضوا فى النقابة لتبدأ مرحلة جديدة فى صعوده السريع.

ليلة إعلان النتيجة، زاره فى سكنه مجموعة كبيرة من زملائه الذين يمتون بصلة قرابة لحربى من الأشراف القبلية ليأكدوا له أنهم انتخبوه لثقتهم فيه وفى أصله فهو ليس غريبا عنهم إذ الجد واحد والدم واحد وليتبرأوا مما فعل قريبهم ونفر قليل من الأشراف القبلية دون علمهم بعد أن عشمهم حربى ببعض المكاسب الصغيرة إذا فاز فى الانتخابات، وأخبروه أنه استغل فقر الولد الغلبان دسوقى وحاجته لإدخال أمه المستشفى فمنحه 50 جنيه ليخون الباش ريس ووعده بمثلها عند نجاحه.

شعر بمرارة رغم تأكده من النجاح، كان يكره الخيانة ويشعر بالغضب على دسوقى الذى لم يقصر معه فى شيء وكان على استعداد لحل مشكلة المستشفى لأمه وكان ينوى أن يسعى لدى المديرين ليعين فى الشركة لكنه تعجل واستسلم للفقر فسمح له أن يفسد روحه وقبل أن يكون السكين الذى يطعنه به حربى، غير أنه فى الوقت نفسه أشفق عليه وتألم لما حدث له فقد كان دسوقى اليتيم يذكره دائما بنفسه وبأخوته وبالفقر الذى كانوا يغالبونه ويغالبهم، الفقر الذى غلب دسوقى لكنه لم يغلبهم.

11

كبرتْ راوية وصارت قرة عين أمها وجدتها آمنة ومحط اهتمام أعمامها خاصة عبد الرحيم الذى كان يحلم أن تكون له ابنة مثلها، وكانت اللعبة الجميلة المفضلة لزوجات أعمامها نصرة وغالية ونعمة أيضا قبل رحيلها المفاجئ من البيت، كانت راوية بيضاء البشرة وناعمة الشعر هادئة ورقيقة ويتميز جمالها الطفولى بمسحة آسرة من الرقى والألق، كانوا ينتظرون زيارات فاطمة ومعها راوية لبيت الهويس ليداعبوها فيشعروا أن شيئا طريا يخفف جفاف حياتهم وكان عبد الله يقول لفاطمة:

- عارفة انت واخدة حتة من قلبى، بس البنت دى واخدة قلبى كله.

- ربنا يخليها لك يا عبده وتشوف ولاد ولادها.

كانت فاطمة تتأمل وجهها الجميل وتراقب قامتها التى تطول يوما بعد يوم وتحلم بيوم دخولها المدرسة الذى اقترب، كانت تريد أن تمنحها الفرصة التى حرمت منها، أن تتعلم وتحصل على شهادتها العليا وترطن باللغات الأجنبية فتحصل على وظيفة محترمة وتتزوج رجلا متعلما مهذبا تعيش معه أيامها وتصنع معه قصة حياة جميلة وأن ترى أحفادها منها ومن إخوتها يملأون عليها حياتها صخبا وتدليلا. أحيانا كانت تشعر بغيرة لذيذة من علاقة ابنتها بأبيها، قبل حلول موعد أجازته بأيام، كان أول ما تنطق به الطفلة قبل أن يزول النعاس من عينيها وجسدها المتثائب:

- ماما هو النهارده إيه؟

- النهارده السبت يا راوية.

تفرد الصغيرة يدها الصغيرة وتعد على أصابعها:

- سبت، حد، اتنين، تلات، أربع، يعنى فاضل خمس أيام وبابا ييجى.

- أيوه يا حبيبتى، ربنا يجيبهولك بالسلامة.

عندما تسمع خبطته على الباب، كانت راوية تقفز حتى تفتحه فتكون هى أول من يراه، تتعلق فى رقبته فيأخذها فى حضنه وهو يجاهد كى يضع حقيبته الثقيلة على الأرض. بعد السلام والأحضان تستأذنه فى فتح الحقيبة التى تتلهف على معرفة محتوياتها، كان عبد الله كغيره من العاملين يتسلم وجباته من المعلبات التى كان بعضها يفيض عن حاجته فيعود بها للبيت، كانت راوية تبحث بين علب البلوبيف والعصير والمربى عن علبة الكمبوت وتتمنى أن يكون النوع هذه المرة كمبوت الخوخ الذى تفضله عن الأناناس، بعد الفراغ من أمر الحقيبة كانت تلاحق أباها أينما حل لتسمعه حكاياتها التى إختزنتها طوال فترة غيابه، كانت تحكى عن آخر تطورات أختها الصغيرة نهى وعن شقاوات أخيها خالد وعن مغامراتها مع قطط السلم وأنواع الحلوى التى صنعتها أمها أو أهدتها لهم "طنط أنيسة" وعن خروجها مع "أبلة فوزية" و"أبيه أنور" إبنى طنط أنيسة إلى شارع النمسا حيث يشترى لها "أبيه" شيكولاتة كورونا ويتمشون فى الشارع ويمرون أمام الفاترينات المضاءة بالنيون ثم يعرجون على "راتب" لتناول الأرز باللبن قبل عودتهم بالحنطور، وكذلك زيارتهم لتيتة آمنة التى تنادى عليها كثيرا

لتسمع منها كلمة "تيتة"، وتأخذها أحيانا إلى شاطئ الكورنيش القريب من بيتها حيث تنزل الماء قريبا من الشط وتلعب فى الرمال وهى تنادى عليها كى لا تترك الشط إلى داخل الماء، ولعبها عند عودتها مع أبناء أعمامها هدى وليلى وهاشم ثم خروجها مع "عمو عبد الرحيم" وأصحابه الذين اصطحبوها مرة لاستوديو التصوير لتأخذ صورة معهم ثم زيارتهم لتيتة سرية التى تصنع لها الحلاوة التركى (سد الحنك) التى تحب أن تأكلها وهى تلعب وترسم مع "خالو محمد" و"خالو عباس" وعن تفاصيل التسريحة الجديدة التى سرحتها لها "خالتو عزة" و"خالتو هالة".

فى الليلة الأولى وبعد أن يكون الشوق قد بلغ مداه بعبد الله وفاطمة، كانت راوية بعد أن تتعب من الحكى تغالب النعاس وتظل تغسل وجهها بالماء البارد لطرده حتى وقت متأخر من الليل دون أدنى استجابة لإلحاح أمها عليها أن تذهب للنوم مثل بقية إخوتها حتى تستيقظ مبكرا لترى أباها قبل نزوله مشوار، كانت ترد:

- أنا هاظبط المنبه وهاصحى بدرى، عشان خاطرى يا ماما سيبينى شوية، بابا واحشنى.

كان عبد الله يبتسم من وراء البنت وينظر لفاطمة نظرة ماكرة فتبادله النظر وهى تكاد تموت من الخجل لأنها لا تستطيع مداراة لهفتها لعناقه وقبلاته ومداعبات يديه العارفتين وهما تجوسان فى تفاصيل جسدها ثم ولوج لحمه فى لحمها وشهقاتها المتصاعدة وهى تصعد نحو ذروتها.

فى يوم مشئوم، كانوا فى زيارة لبيت جدها عبد المطلب، خرجت راوية وخالاها محمد وأبو العباس ومعهم أخوها خالد ليلعبوا أمام باب الشقة ويطاردوا قطط السلم، فجأة انقبض قلب فاطمة عندما سمعت صوت ارتطام تبعته جلبة ونحيب. كان الأولاد يولولون ويهرولون هابطين على السلم، عندما نظرت فاطمة لأسفل وجدت بنت قلبها وفرحة دنياها ملقاة على أرضية "بير السلم" بلا حراك فأخذت تولول وعندما وصلت إليها وجدتها وقد فارقت الحياة.

أفاقت بعد يومين كانت تهذى فيهما باسمها وتجأر أحيانا:

- بنتى، أنا عايزة بنتى.

بعد موت راوية لم يعد العالم كما كان.

فى غيبوبتها، كانوا قد غسلوا الجسد الغض ولفوه بالكفن وواروه التراب فى الروض وأقاموا العزاء فى بيت الهويس وظلت سرية وأبناؤها مع فاطمة فى بيتها، عندما أفاقت وجدت كل العائلة فى البيت، جلس الرجال فى الصالة والصالون وتحلقت النساء حول سريرها وبينهن أبلة أنيسة التى كانت فى زيارة لأهلها بالشرقية وعندما وصلت عرفت الخبر فجاءت من فورها بملابس السفر، ربتت على يدها وقبلتها فى جبينها دون أن تنطق، ألجمتها صدمتها فى الطفلة التى تحبها كأنها حفيدة لها، فى الليل عندما عادت إلى شقتها بكت كما لم تبك من قبل، كانت تبكى الطفلة الراحلة وتبكى أمها الذاهلة عن الدنيا، وكذلك جاءتها سوسن مع زوجها المهندس السمرى لكنهما لم

يبقيا طويلا حتى يعودا للقاهرة قبل حلول الظلام، كانت الدموع تملأ عيون الجميع ولم يكن غائبا سوى الأطفال، سألت عنهم فقالوا لها:

- لما تشدى حيلك هنجيبهم لك.

كانت الغيبوبة كأنها برزخ عبرت منه فاطمة من حال إلى حال، زاغت عيناها وهى تتلفت باحثة عن طيف راوية ظانة أنها ستظهر لها من خلف باب أو من تحت غطاء سرير وربما ستدق الباب بيدها الصغيرة وتحكى لها ماذا فعلت مع جدتها على الشاطئ وكيف أفزعت تيتة آمنة عندما ادعت أن شيئا قرصها فى رجلها فهبت تيتة من جلستها ولما اكتشفت لعبتها الخادعة نهرتها ثم مالبثت أن صالحتها وقبلت خديها وهى تقول:

- إخص عليكى يا راوية وأنا اللى بقول عليكى عاقلة.
- يعنى أنا مجنونة يا تيتة؟
- لا يا عين تيتة انتي ست العاقلين، بس ما تخلعنيش (لا تخيفينى) عليكى تانى.
- حاضر يا تيتة أنا آسفة.

كانت تقف بالساعات أمام دولابها تقلب فى قطع الملابس الصغيرة وتتذكر شكل فرحة راوية وتعليقاتها البريئة على كل قطعة منها، أو تظل تقلب فى صندوق اللعب فتخرج عرائسها التى كان أبوها يشتريها لها فى زياراته للقاهرة وعندما تستيقظ من نومها يطلب منها أن تغمض عينيها ثم يظهر لها العروسة فتطير فرحا بها وتغمر وجهه بقبلاتها، وتتذكر أيام عيد ميلادها والتورتات التى كانت تعدها

لها وكيف كانت تلهو معها فى المطبخ وهى تزوق التورتة وتتخاطف حبات الكريز من عليها، وفى المساء ترتدى الفستان الجديد المخصص لعيدها وتتزين بقطع الذهب التى تحفظها فاطمة فى علبتها الصغيرة بين طيات ملابسها ويأتى الضيوف ومعهم أطفالهم فتعزف لهم على البيانو الصغير الذى يستأجرونه للمناسبة آخر ما تعلمته من أبلة فيولا ثم تتلقى من المدعوين هداياها التى تظل الأيام التالية تتفحصها وتتذكر أسماء من أهداها لها وهى تمتدحهم وتوصى أمها بتذكر أعياد ميلاد أبنائهم حتى يقدموا لهم الهدايا كما فعلوا.

كانت تسمع فى خيالها صدى ضحكاتها ونداءاتها على إخوتها وملاعباتها لأبيها وحكاياتها معه وإلحاحها اللذيذ عليها ليزوروا تيتة آمنة وتيتة سرية أو السماح لها بالخروج مع أبناء أبلة أنيسة.

عاشت فاطمة ذاهلة فى عالمها الوهمى الذى كانت خيالات راوية كائناته وفضاءه، أرضه وسماءه، وتشتت عبد الله بين حزنه العظيم على طفلته التى خلا منها عالمه ولهفته على امرأته التى تخطو سريعا نحو الجنون الكامل، كان يشفق على أمومتها التى ضربها الموت مرتين استطاع إنقاذها فى المرة الأولى أما تلك المرة فهو نفسه يحتاج لمن ينقذه. باخت فرحته بنجاحه الذى فاق أقصى طموحاته ولم تعد لديه رغبة فى رؤية أحد أو التحدث مع أحد، كان يشعر بصدق تعاطف الأهل والأصدقاء مع أحزانه لكنه يتعجب عندما يمرح أحد منهم فى حضوره أو يبتسم وكأن الأمور يمكنها أن تعود لطبيعتها بينما راوية ملقاة فى حفرة من الأرض وفاطمة عالقة فى متاهة الجنون.

بمرور الوقت عادت فاطمة شيئا فشيئا للعالم الحقيقى، إجتازت مرحلة الجنون لكنها ولجت باب الحزن الواسع، عندما مات سميح ظنت أنها صعدت جبل الحزن حتى قمته العالية وتصورت أنها فى حياتها لن تحزن مثل حزنها عليه لكنها بموت راوية اكتشفت أن لجبل الحزن قمم أعلى لا يراها المرء إلا وهو واقف على ذؤاباتها. كانت تمكث أياما .وليالى وحيدة فوق قمتها تفكر وتجادل نفسها، كانوا يقولون لها أن هذا امتحان من الله فتسائل نفسها وتسائل الناس فى خيالها، لقد امتحننى الله مرة واجتزت امتحانه فلماذا يكررها؟ ألا يجد الله غيرى ليمتحنه؟ هل عارضت مشيئته فى المرة الأولى حتى يلقننى الدرس مرة أخرى؟ ألم أستجب لطاقة الحب التى منحنى إياها زوجى؟ ألم أنس أحزانى فى انصهار لحمى بلحمه حتى تحركت نطفته فى أحشائى فكانت راوية تعويض الله لى وجزاء اجتيازى لاختباره؟ فلماذا إذن ينزع جائزته منى؟ ألأنه أعطانى بعدها خالد ونهى؟ ومتى كان الله يعامل عباده هكذا؟ عندما كانت تذهب بعيدا بأفكارها تلك كانت تفيق وتقول لنفسها هل أساءت الأدب مع خالقها؟ هل اقتربت من حدود الكفر؟ هل تجاوزت حدودها ومنحت نفسها الحق فى محاسبة الله؟ هل تغضبه وهي التى لا تحتاج لشيء قدر احتياجها لرحمته وعونه؟ عندها كانت تقوم فتتوضأ وتغيب فى صلاة طويلة ملؤها النحيب حتى يغلبها النعاس.

فى لحظات صفاءها العابرة كان خالد يأتيها فيربت على كتفها قائلا:

- ما تعيطيش يا ماما، تيتة سرية بتقول إن راوية راحت لربنا وهى مبسوطة معاه.
- أيوة يا حبيبي تيتة كلامها مظبوط، هى دلوقتى مبسوطة وبتلعب فى الجنة.
- طيب انتي ليه زعلانة بقى؟

تصمت عندها وتضمه فى حضنها ضمة قوية حتى يشعر أنه لا يستطيع التنفس فينفلت من حضنها ليلاعب أخته نهى أو يبحث عن شيء فى المطبخ ليأكله.

استيقظت آمنة ذات صباح، صلت وشربت الشاى ثم إرتدت حبرتها فوق جلباب الخروج وغادرت، نادت على طفل يلعب أمام باب البيت وطلبت منه أن يستدعى لها حنطورا من الموقف القريب.

صعدت الحنطور قائلة لسائقه:

- زرب يا وليدى.

فتحت لها الباب هالة أخت فاطمة التى أصر والداها أن تقيم معها حتى عودة عبد الله لترعى الأطفال وخاصة الصغيرة نهى، وكانت معها فوزية بنت أبلة أنيسة، سلمت عليهما آمنة وسألتهما عن أبويهما وحملتهما أمانة السلام، ثم قبلت حفيدها خالد الذى جرى إليها من داخل الشقة عندما رآها ودخلت لتقبل الرضيعة نهى وهى تسبح الله الذى استرد وديعته البيضاء الجميلة التى تشبه بنات الخواجات وأبقى تلك السمراء التى تشبههم.

كانت فاطمة تجلس على السفرة وفى يدها عروسة من عرائس راوية، بدت كأنها تهدهدها وكانت بقايا دموع لا تزال تترقرق فى عينيها، لم تشعر بحماتها ولم تنظر إليها وظلت فى مكانها كأنها صورة ثابتة على جدار. جلست آمنة قبالتها وربتت على يدها فتنبهت:

- أهلا يا نينة، انتي هنا من إمتى؟
- من هبابة (شوية) صغيرة يا حبيبتى.
- أعملك شاى والا قهوة؟
- إعملى قهوة لِيَّ وليكى، عايزاكى فى كلمتين.

صبت فنجانى القهوة وجلست، بادرتها آمنة:

- إسمعينى يا بنيتى، يمكن دى أول مرة نتكلم فيها لوحدينا، دايما بشوفك وسط البنات والعيال والهيصة لكن فهمتك يا فاطنة وحبيتك وشايلالك جميل إنك خليتى ولدى يحس بطعم الدنيا اللى كان نفسه يعيشها، أنا دايما بقول لنفسى ولغيرى إن عبد الله عامل زى البحر الهايج وإنك الشط اللى خلاه يهدى وإنك شديتيه معاكى لفوق وخليتيه راضى ومبسوط بعد ما كان بيرازى طوب الأرض.
- وأنا كمان يا نينة بحبك وعارفة إنك ست عظيمة بس أنا أول مرة أعرف عن عبد الله كده.
- عبد الله يا فاطنة هو الوحيد فى عيالى اللى ماليش كلمة عليه، يمكن يكون أكتر واحد بيحبنى فيهم بس دى حاجة وإن كلمته من راسه حاجة تانية.

تطلعت فاطمة إلى حماتها وودت ان تحتضنها وتقبلها، شعرت أنها لم تكن قريبة قدر قربها منها تلك اللحظة وأدركت أن الجزء الأهم فى حديثها لم تقله بعد، نظرت إليها نظرة تدعوها لاستكمال حديثها فاستدركت آمنة:

- إنت عارفة أنا كنت بحب راوية كيا، فى الأول كنت باكره خلفة البنات لكن لما جات هدى وليلى وراوية ربنا فتح قلبى وألهمنى إن خلفة البنات كلها خير وإنهم زيهم زى الولاد هيجيبوا ذرية هاشم أبو زيد اللى هتمد نسله ليوم القيامة إن شاء الله، راوية كانت نور عينى وخبر موتها عصر قلبى وبكانى بدل الدموع دم.

توقفت آمنة بعد أن تحشرج صوتها وسالت دموعها لتذكر الطفلة الراحلة، ولدهشتها لم تبك فاطمة بل قالت بصوت كأنه يأتى من مكان سحرى:

- وهى كمان يا نينة كانت بتحبك وكانت عارفة إنك بتحبيها وما بتبطلش تتكلم عنك.
- مش هاقولك يا بنيتى زى الناس ما بيقولوا الحى أبقى من الميت، لا، ساعات الميت بيبقى أكتر ميت مرة من الحى، بس هاقولك ما هو الحى ده برضه يبقى ضناك، مش اللى بره دول ولادك زى ما راوية بتك، ليه تضيعيهم يا فاطنة؟
- أضيعهم؟ وهو أنا ليَّ غيرهم دلوقتى؟

- أيوة هتضيعيهم زى مانا كنت هاضيع ولادى وجوزى فى يوم من الأيام.

حكت لها قصة موت ابنها أحمد الذى ولدته قبل عبد الله وكيف ذهلت عن العالم وغاصت فى الحزن حتى ظنها الناس ممسوسة من الجن فأهملت أولادها وابتعدت عن زوجها ولم تكن تطيق نفسه بجوارها حتى لقنها الله الدرس الذى أعادها لرشدها، ثم عقبت:

- ما تغلطيش غلطتى يا فاطنة، ما تعانديش ربك يا بت الناس، عمك هاشم لما يئس منى وافتكر إنى كرهته خلاص راح اتجوز عليَّ من وراي لحد ما عرفت بالصدفة وخليته يطلقها غصب عنه.
- بس إزاى عبد الله ماحكاليش الحكاية دى.
- لما حصلت ماكانش لسه اتولد بس طبعا لما كبر عرف بيها ويمكن نسيها، المهم يا حبيبتى أنا عرفت أخليه يطلقها عشان كانت مرة غلبانة مالهاش حد وما لهاش فى كيد النسا، كانت عزبة جوزها الأولانى مات وساب لها عيلين كانت عايزة تتعكز على حد عشان تربيهم ووقعت فى عمك هاشم ولما طلقها سكتت وما عملتش حاجة، لكن انتي عارفة مين اللى هيقع فى جوزك؟

إنتبهت فاطمة على جملة آمنة الأخيرة وتذكرت تلميحا غامضا لمحت لها به أبلة أنيسة وهى تنصحها بمقاومة حزنها، سألت باندهاش:

- هو عبد الله ممكن يتجوز عليَّ يا نينة؟

- أنا عارفة أنه بيحبك وعارفة أنه هيموت م الزعل على بته وعليكى، بس ده راجل يا فاطنة يقدر يتحمل يعيش من غير مرة شوية لكن لحد ميتى، وانتي عارفة أن مركزه زين ومعاه فلوس وبيروح هنا وهناك؛ مش يمكن واحدة من بنات مصر ولا حتى واحدة من اللى بتتفسحوا معاهم هناك تلوف عليه؟

إبتسمت آمنة ابتسامة صغيرة وأردفت:

- سمعت إن أبو بكر لاف علي واحدة فلاحة هنا فى السويس وكان هيتقدم ليها.
- يا خبر، وغالية عرفت حاجة؟
- لا، عرفت بعد ما أنا نهيت الموضوع معاه وهددته لو عملها هارجع المخادمة وأعيش لحالى (وحدى) هناك، أنا أقدر على أبو بكر وبقية ولادى لكن عبد الله عمرى ما قدرت عليه.

صمتت آمنة ريثما تكمل فنجان القهوة ثم قالت:

- إزعلى يا فاطنة، راوية يتزعل عليها العمر كله، بس ما تخربيش بيتك وتضيعى جوزك وعيالك، عايزة لما آجى من الحجاز ألاقيكى رايقة وصابرة وواخدة بالك من بيتك وأنا هدعيلك يا بنيتى فى الكعبة وقدام شباك النبى.
- انتي قلتى إيه يا نينة؟ انتي نويتى تحجى؟
- أيوة يا فاطنة رايحة أنا وخيك محمد إن شاء الله.
- مبروك يا نينة ده خبر حلو قوى، ربنا يقبل ويرجعك انتي ومحمد بالسلامة، هو جى إمتى من الجبل عشان أبارك له؟

- بعد بكره، ابقى باركى له لما تاجى الجمعة الجاية.

سرحت فاطمة فى كلام حماتها المجربة وتحذيراتها لها، ثم تنبهت عليها وقد قامت وارتدت حبرتها فأسرعت إليها، إحتضنتها طويلا وقبلتها ثم انفجرت المرأتان فى النشيج.

12

قضى عبد الله الأيام التى تلت موت ابنته وهو لا يدرى ماذا يفعل، لم تكن لديه أدنى رغبة فى العمل أو الحديث، جاءه إخوته كلهم ليعزوه ويعزوا فاطمة بعد أن أفاقت من غيبوبتها، بدا عليهم الألم على ابنتهم الجميلة وعلى ما صار إليه ذلك البيت السعيد الذى كانوا يقضون فى زياراتهم إليه أوقاتا إستثنائية بين مضايفة فاطمة لهم بأكلاتها الحلوة وطريقتها فى تقديم المشروبات وبين روقان عبد الله وهو يشاركهم سماع الراديو ومشاهدة التليفزيون الذى كان أول من اشتراه منهم وبين ملاعبة الأطفال الذين تحرص أمهم دائما على نظافتهم وعلى ألا يقابلوا الضيوف حتى لو كانوا أعمامهم وزوجاتهم وأولادهم إلا بملابس الخروج، كانوا يغادرون البيت وقد تملكتهم راحة ومتعة أن لهم بيتا كهذا حتى لو لم يكن بيت أحدهم فكل بيوت أبناء هاشم وآمنة هى بيوتهم وكل الأطفال هم أبناء الجميع، هكذا غرست فيهم آمنة وهكذا تعلموا أن يكونوا.

بقى أبو بكر هو أكثرهم مداومة على زيارته والاطمئنان على فاطمة ومحاولاته أن يضفى على بيتهما طابعا من المرح قدر ما يقتضيه

الحال، وعندما عاد عبد الله لعمله ظل حريصا على البقاء معه أكثر أيام ورديته ومبادرا بإنهاء المشاغل اليومية للعمل حتى يقصر انشغال عبد الله فى الأمور التى لا يستطيع وحده الاضطلاع بها.

ساعده وجود أبو بكر ومداومة إخوته والقريبين منه على زيارته ومبادلته الحديث وتوصيته بالصبر على تجاوز أحزانه فعاد إلى طبيعته بمرور الأيام والشهور.

عندما شعر زملاؤه بتحسن حالته ذهبوا إليه كى يحدثوه بصفته عضو النقابة الممثل لهم فى متابعة نشاطه فى النقابة ومعرفة مصير مطالبهم من إدارة الشركة التى كان عبد الله قد أبلغ بها الإدارة فى الاجتماعات التى كان يسافر خصيصا لحضورها بالقاهرة. كانت مطالبهم تتعلق بتحسين أوضاعهم فى العمل، أن تشرع الشركة فى شراء المعدات والأدوات التى تسهل لهم أداء أعمالهم وتقلل المجهود البدنى الشاق الذى يبذلونه فيقطم ظهورهم، كانوا يحملون الأشياء الثقيلة لتحميلها على السيارات أو السير بها لمواقع العمل التى تستخدم فيها ولم تكن ورشهم مجهزة بالعدة الحديثة التى تنجز العمل بمجهود أقل ووقت أقل، وأن تدرس الشركة اقتراحاتهم بتخفيض مدة بقائهم فى الصحراء قبل نزولهم الأجازات حتى لا يبقوا أياما طويلة بعيدين عن أسرهم فيمرض فيها من يمرض ويموت فيها من يموت دون أن يحضروا غسلا أو دفنا أو جنازة ثم عزاء، وأن توفر لهم الشركة رعاية صحية أفضل بدلا من الصيدلية الصغيرة والممرض الذى لا يعرف فائدة الأدوية المرصوصة فوق رفوفها فإذا تعب أحدهم حمله زملاؤه فى سيارة نصف نقل ليذهبوا به إلى أبو رديس بحثا عن طبيب أو يقطعوا

به أكثر من مئة كيلو متر للطور حتى يكشف عليه أطباء المستشفى الصغير هناك وكانوا فى أغلب الأحيان يعودون كما ذهبوا أو يضطرون لإرساله فى سيارة مخصوص للسويس التى تبعد عنهم حوالى مائتى كيلو متر ماجعلهم يطالبون بإنشاء عيادة حديثة وتعيين أطباء دائمين بالموقع ولكنهم أجلوا طلبهم بشراء سيارة إسعاف حتى لا يثقلوا على الشركة بطلباتهم جملة واحدة، وأن تتعاقد الشركة مع مورد للأغذية يستقدم طباخين ليطبخوا لهم وجبات ساخنة بعد أن جفت بطونهم من أكل البلوبيف واللانشون والسردين المعلب.

كان عبد الله يجتمع بهم فى مساءات الأيام الطويلة يستمع إلى شكاواهم ويناقشهم فى أفكارهم ثم يطرح عليهم تصوراته عن حلول تلك المسائل حتى يستطيع تقديم اقتراحات محددة تستطيع الشركة حساب تكاليفها والوقت اللازم لتنفيذها، فى الاجتماعات التى استطاع حضورها بالقاهرة قبل موت راوية كان عبد الله يقدم تلك الاقتراحات فيتلقى الوعود الطيبة بدراستها والشروح الطويلة لاحتياج هذه المطالب لميزانيات ينبغى موافقة الشريك الإيطالى عليها وأن هذا لن يكون متاحا إلا عند مناقشة ميزانيات السنوات القادمة فيحاججهم عبد الله أن الناس تعبوا ولم يعودوا يحتملون أكثر ويقترح عليهم محاولة توفير الأموال اللازمة للمطالب الصغيرة حتى يشعر العاملون بأن الشركة تراهم وتشعر بهم وتعمل على راحتهم فيقبلون على أعمالهم بهمة وحب ما سوف ينعكس على صالح العمل.

عندما حدثه بعضهم أنهم يرغبون فى مفاتحة الشركة فى زيادة البدلات والحوافز حتى تتحسن مرتباتهم ليستطيعوا الوفاء بزيادة

مصاريف العيال وغلاء الأسعار كان يرد عليهم بأن مطالبهم فى تحسين أوضاعهم فى الموقع هى الأهم الآن وعندما يتم تنفيذها يستطيع فتح موضوع زيادة المرتبات وأن الأمر ليس بهذه السهولة التى يظنونها فللشركة قواعد وقوانين وميزانيات لكن بعضهم لم يكن يقتنع بكلامه ويظن أنه يتهرب من احتياجاتهم، كان أبو بكر يعقب بعد انصرافهم:

- معلهش يا باش ريس اللى ميعرفش يقول عدس.
- معلهش يا بكر، والله الناس دى ما حاسة أنا بعمل إيه فى مصر، دانا خايف الناس هناك يزعلوا منى.
- ويزعلوا ليه إنت بتدور على مصالح زمايلك اللى انتخبوك وفوضوك تنوب عنهم.
- صح، بس أنا باتحمق على المديرين والموظفين وساعات باتعصب عليهم، ماهم برضه معقدين الدنيا وكل حاجة عنديهم الورق والإمضا.
- بقولك إيه، مش فيه زيارة لرئيس الشركة قريب؟
- أيوة وأنا عامل حسابى أنزل وآجى المرة الجاية على ميعاد الزيارة، بتفكر فى إيه يا بكر؟
- ما تخليهم يواجهوه ويطلبوا منه اللى هم عايزينه واحنا كمان عايزينه.
- آه، دى عايزة ترتيب يا ود أبوى.
- فكر وانت هاتلاقى ميت طريقة.

شغلته فكرة أبو بكر فأخذ يفكر فى طريقة لتنفيذها، كان يعرف من حضوره للزيارات السابقة أن برنامج الزيارة المعتاد يبدأ بزيارة

ميدانية لمناطق المعالجة والورش والآبار البرية ثم تناول الغداء وبعده يعقد اجتماع فى غرفة الاجتماعات بمبنى الإدارة يحضره مع الضيف المهم مدير عام الحقول وكل مديرى القطاعات لمناقشة سير العمل والمشاكل المعوقة والتعرف على الأنظمة والسياسات التى تسعى الشركة لتطبيقها من أجل تطوير العمل ثم المبيت لزيارة الآبار البحرية والعودة بعد ذلك للقاهرة. رأى عبد الله أن اجتماع الرئيس بالمديرين هو الفرصة المواتية للمواجهة، عندما عاد من الإجازة كان متبقيا على الزيارة ثلاثة أيام رتب خلالها كل شيء دون أن يشعر أحد، مر على كل الإدارات والتقى برؤساء العمال والمشرفين بها حيث اتفق معهم على الخطة وأوصاهم بكتمان الأمر.

بدأت الزيارة وسارت فى ترتيبها المعتاد، وعندما انتهى اجتماع رئيس الشركة مع المديرين فوجئ الحضور بمجموعة من العاملين تزيد عن ثلاثين فردا تقف خارج باب الغرفة، تقدم عبد الله فسلم على رئيس الشركة وقدم له نفسه واستأذنه فى عقد اجتماع بهم فى نفس الغرفة على أن تكون مقتصرة عليه وعليهم، رحب رئيس الشركة وجلس على رأس المائدة وجلس عبد الله فى وسطها الأيمن حتى يستطيع النظر للرئيس بشكل مريح، بادر عبد الله:

- أنا يا باشمهندس زى ما قولت لسيادتك عضو النقابة عن العاملين بالحقول، الناس ليها مطالب وأنا عملت اللى عليَّ وطالبت بيها فى كل اجتماعات النقابة فى مصر لكن لحد دلوقتى مفيش حاجة اتعملت، لما الزملا عرفوا إنك هتشرفنا بالزيارة أصروا يقابلوك، طبعا دول مش كل العاملين دول

الريسا والمشرفين جايين يتكلموا معاك، إحنا طبعا لحم كتافنا من خير الشركة اللى فاتحة لنا بيوتنا وخلت لنا قيمة وسط الناس، بس احنا تعبنا يا ريس، شلنا الشركة واستحملنا الظروف الصعبة وكانوا بيوعدونا إن الظروف هتتحسن وهنستريح لما الإنتاج يزيد، هو لسه الإنتاج ما زدش يا باشمهندس؟ عايزين تعليماتك للموظفين اللى فى مصر، قول لهم يا ريس إن احنا أهم من الورق اللى بيحترموه وناقص يصلوا له، الناس أهى قدامك ووراهم ناس كتير نفسهم يقابلوك ويشتكولك، طمنهم يا ريس إن الشركة مش هتاكلهم لحم وترميهم عضم.

- والله أنا سعيد بترتيبكم ده للاجتماع ومبسوط إنى موجود بينكم، إنتم رجالة الشركة ورجالة مصر ومن غيركم الشركة مش هيكون لها وجود، الخير اللى احنا فيه بفضلكم وبفضل شقاكم وعرقكم، أنا عارف إن معظمكم صعايدة والصعايدة دايما رجالة، أنا يا ريس عبد الله هشوف محاضر اجتماعات النقابة وهاشكل لجنة تراجعها وتحط لى خطة بتاريخ تنفيذ كل طلب من طلباتكم ولو المسألة محتاجة موافقات سريعة أنا هاكلم الخواجات.

تناهت الأصوات من المجموعة التى تحلقت حول المائدة جلوسا ووقوفا:

- أهو ده الكلام الزين.
- الله يكرمك يا ريس يا ريتنا قابلناك من زمان.

- واحنا رقبتنا سدادة يا ريس وهنشتغل بايدينا وسنانا عشان الشركة تكبر أكتر وأكتر.

أشار إليهم عبد الله بالصمت فلما صمتوا علق قائلا:

- هو ده عشمنا فيك يا ريس، الناس دى مخلصة ومستعدة تعمل أي حاجة عشان الشركة بس يحسوا إن ليهم قيمة فى نظرها بالفعل مش بالكلام.
- مظبوط يا عبد الله، خد دى نمرة تليفون مكتبي كلمنى فى أي وقت وبعد أسبوعين تجيلى عشان أديك نسخة من تقرير اللجنة اللى هيكون فيه مواعيد التنفيذ.
- متشكرين يا باشمهندس، معلهش عطلناك.
- أنا هنا عشان أشوفكم وأطمن عليكم وعلى أحوال الشركة وانتم النهارده أسعدتونى.

ترددت أصواتهم شاكرة وداعية له بالتوفيق، غادر الريس الغرفة محييا ومودعا بعد أن وجه نظرته لعبد الله قائلا:

- مستنيك بعد أسبوعين، اتصل واحجز ميعاد.

وهكذا واصل عبد الله صعوده فكانت خطته فى توريط الرجل بمواجهة العمال قد تسببت فى تعرف الرجل الكبير عليه ودعوته لاستقباله فى مكتبه والتزامه بتنفيذ مطالبهم.

لم يكن هذا النجاح يساوى شيئا بمجرد دخول عبد الله باب بيته، كان يشم رائحة الحزن فى كل مكان وتستغرقه ذكرياته مع طفلته

الغائبة حتى يتوه عن نفسه فيلمح كائنا ضائعا آخر يسبح أيضا فى ذكرياته يرى فيه ملامح غائمة من وجه فاطمة الجميل.

لجأ عبد الله لمدينته الحبيبة كى تنسيه أحزانه، كان يضطر للسفر إلى القاهرة لحضور اجتماعات النقابة والمناسبات التى يدعى إليها بصفته العضو الممثل للعاملين بالحقول بها، لم تعد أيامه فى العاصمة تسعده كما كانت فرغم حبه للمهندس السمرى ومتعته بصحبته وصحبة الأصدقاء الذين عرفهم عن طريقه إلا أن السحر الذى كان يلف أيامه كان قد ضاع، أدرك أن فاطمة هى التى كانت سر السحر وأن كل ما حققه كانت هى التى تمنحه معناه.

حاول معها أن يستعيدا جولاتهما ونزهاتهما فى الحدائق والشواطئ والكازينوهات، عرض عليها أن يسافرا معا للقاهرة ليستعيدا ذلك الإحساس بالرقى والصفاء أو حتى السفر للإسكنندرية للتعرف على أجوائها والسهر على بحرها، رفضت فاطمة كل محاولاته رغم تمزقها لألمه ورغبتها فى أن تتجاوب معه غير أن حزنها أفسد عليها حياتها وألقاها داخل ذاتها تجتره كلما أحست أن الحياة يمكن أن تعود لطبيعتها، كانت فى أعماقها تشعر بالذنب وتحمل نفسها مسئولية موت وليديها، فسميح تركته حتى ذبل من الهزال وتأخرت فى طلب المشورة والعلاج له وراوية ماتت على بعد خطوات منها ولم تتحسب هى الكبيرة للخطر المحدق بصغيرتها كى تحذرها منه وتمنعها من الاقتراب من حافته، لكن حديث حماتها الأخير معها كان يتردد فى مخيلتها فتفزع من احتمال فقدها لحب زوجها وتألم لإهمالها لطفليها خالد ونهى، بعد إحدى محاولاته معها لإخراجها مما هى فيه قالت:

- عارفة يا عبد الله إنى طولت عليك، بس معلهش إدينى شوية وقت، مش عارفة قد إيه بس والله بحاول مع نفسى وقريب إن شاء الله هاتحسن وهنرجع زى الأول وأحسن.
- طيب يا فاطنة على راحتك، خدى وقتك وأنا مستنيكى.

فى الإجازات كانت السويس هى تسليته ريثما تعود إليه حبيبته، عاد للسهر مع أصدقائه فى كازينو فندق بلير وكازينو سمر بالاس والتجول بالحنطور أو مشيا على الكورنيش وكان يمضى الصباح فى قهوة جحا يشرب الشاى ويقرأ الجرائد ويتبادل الحديث مع معارفه من زبائنها أو يذهب لفرع الشركة كي يطمئن على سير أمور النقابة ويتلقط آخر أخبار الحقول، وفى الصحراء كان العمل هو تسليته وعلاجه، عاد للتركيز فى تفاصيله وعقد جلسات طويلة مع أبو بكر ليطلعه على ما غاب عنه وأكثر من زياراته للبريمة والمشاركة فى حل المشاكل التى كانت تقابل العاملين بها واجتهد فى ترتيب المخزن والورشة واليارد وخصص أوقاتا ثابتة لتدريب العاملين تحت رئاسته وتوزيع مسئوليات العمل عليهم حتى شعروا بأن روحا جديدة تسرى فيهم وزادت قيمته فى نظرهم إذ أكبروا فيه رغبته فى رفع شأنهم وعدم استئثاره بما تعلمه بجده واجتهاده، لم يشغله ذلك عن الاجتماع بزملائه ليستمع منهم عن أحوالهم ودرجة رضاهم عن الإمكانيات الجديدة التى وفرتها الشركة لهم بفضل وفاء رئيسها بوعوده لهم فى اجتماعه بهم الذى دبره عبد الله مؤخرا.

عندما رأى ابتسامتها خلف الباب الذى فتحته له فأشرق عن وجهها الجميل، أحس أن الله يكافئه على صبره وعلى الخير الذى لم

تمنعه أحزانه عن فعله أو الذى فعله مغالبة لها. وجد روحا جديدة تسرى فى البيت ورأى تعبيرا جديدا يتراءى على وجهى خالد ونهى الصغيرة، كأن روح أمهما الجديدة سرت فيهما، أكل بشهية افتقدها منذ الواقعة التى زلزلتهم واستمتع بخروشة الراديو ووشيش التليفزيون اللذين أعادت فاطمة تشغيلهما بعد أكثر من عام من موت راوية، وأنارت وجهها الملابس الملونة التى عادت لارتدائها بدلا من سواد الحداد، عندما نام الطفلان ودخلا غرفتهما للنوم احتضنها هامسا:

- حمد الله ع السلامة.
- الله يسلمك يا عبده.

تعجل فقرب فمه من فمها لكنها أشاحت بوجهها قليلا ففهم الرسالة، تمددا على السرير فوضعت ذراعها فوق صدره فاحتضنها بحنان وراحا فى النوم.

قضى فى أجازته تلك أسعد أوقاته بعد أن أهلكه حزنه وحزنها، لم ينسيا راوية لحظة وكانا يتحدثان عنها ويتذكران ما كانت تفعله أو تقوله ولكن بلا مرارة، صارت ذكراها شيئا رائقا يجعل قلبيهما يخفقان بل أحيانا كانا يبتسمان إذا تذكرا موقفا مضحكا لها، كانا يشعران أن روحها الطاهرة تملأ فضاء البيت وأنها سعيدة لأنهم عادوا لحياتهم وللاهتمام بأخويها اللذين كانت تحبهما وتعطف عليهما كما ينبغى للأخت الكبرى أن تفعل، أخرجت فاطمة صورة لابنتها الغائبة من صندوقها فذهب عبد الله إلى ستوديو التصوير ليصنع منها نسخة مكبرة وضعوها فى إطار وعلقوها فى غرفة الصالون، اقترح عليهما

المصور أن يضع شريطا أسود أعلى يسار الصورة كما يفعلون بصور الموتى لكنهما رفضا لأن راوية مازالت حية فى قلبيهما ولأن الشريط الأسود لم يكن أبدا يليق بوجهها الطفولى وبسمتها الخجولة الرائقة والانطلاق المرح الذى كان يطل من عينيها العسليتين.

فى اليوم الأخير من أجازته، عاد عبد الله آخر النهار بعد أن خرج ليشترى السجائر والأغراض التى يحتاجها هناك، فتح له خالد وعاد ليلعب فى غرفته مع أخته نهى وكانت فاطمة فى المطبخ، سمع دندنتها:

يمامة بيضا ومنين أجيبها
طارت يا نينة عند صاحبها
وخطفها البلبل وطار وياها
أصله يا نينة يعرف لغاها
تروح وتجينى قاصدة تسلينى
لا أحلف بدينى لأطير وياها

انقبض قلبه عندما سمع المقطع الأخير من الأغنية الحزينة رغم انبهاره بصوتها وإحساسها الذى أعطى للكلمات البسيطة معان عميقة، كانت طريقة غنائها آسرة الرقة تتجسد فيها لوعة الفقد ويتجلى فيها الوجد والشجن وكذلك الرضى الموجع بغياب اليمامة البيضاء دون أى ملمح للمرارة أو الاعتراض، كان الاستسلام التام ينساب فى الكلمات عبر موسيقى صوتها ناعما كانسياب سرب طيور بيضاء فى السماء.

وضع عبد الله أشياءه على السفرة وتوجه للمطبخ فانتبهت على وقع أقدامه وتلفتت، كان وجهها مبتلا كله بالدموع لكنها ابتسمت

له فرسم وجهها لوحة تأخذ العقل من جمالها وعذوبتها، كان لأول مرة يرى وجهى الحياة فى مشهد واحد بديع ما جعل صدره يجيش بمشاعر متناقضة أطلقت دموعه العصية، هرولت إليه وارتمت فى حضنه وهى تنهنه فاختلطت دموعها بدموعه، ظلا فى حضنهما الطويل حتى هدأت فجفف لها دموعها ونادى على خالد ونهى وعندما أقبلا احتضنتهما، كان تعبير وجهها ينبئ أنها كانت قد نسيت وجودهما وأنها فرحت بهما فرحة من وجد شيئا عزيزا كان قد ضاع منه ثم نسيه مع مرور الزمن.

13

قبل حلول موعد السفر للحجاز بنحو شهر، بدأت وفود الزائرين تتوافد على بيت الهويس لتبارك لآمنة ومحمد اللذين صار الناس منذ لحظة الإعلان عن نية السفر للحج ينادونهما "الحاجة" و"الحاج" حتى توارى اسماهما بمرور الوقت ونشأت أجيال من أشراف المخادمة وغيرها فى السويس من معارفهم لا تعرف الاسم الحقيقى لكل منهما.

كانت فكرة الحج حلما يراود آمنة منذ زمن ولكنه أخذ يلح عليها منذ أن شعرت باستقرار أحوالهم فى السويس بعد أن وجد أبناؤها الخمسة فرصة للرزق فى "الشركة" وسارت أحوال ولدها السادس وابنتها الوحيدة سيرا حسنا وتزوج الجميع فبدأت ذرية هاشم فى القدوم للحياة بغزارة ملأت نفسها رضى يتوجب معه إكمال العبادة شكرا لله على نعمته وفضله. عندما أبدت رغبتها لمحمد

وجدت لديه حماسا لم تتوقعه إذ أبلغها أنه كان ينوى الترتيب للأمر ومفاجئتها به لولا أنها سبقته بفتح الموضوع، وبدأ مباشرة فى السؤال عن ترتيبات الرحلة واستخراج الأوراق المطلوبة وحجز تذاكر الباخرة.

كان الحج أيامها شيئا عزيزا نادرا ينظر له الناس بإكبار وإجلال ومناسبة تستحق أن تقام لها الأفراح والاحتفالات التى كانت بيوت الحجاج تعيش فيها أجواء استثنائية لا تكاد تخرج فيها وفود حتى تدخل وفود أخرى من الزائرين لأن المكان لم يعد يتسع لبقاء الجميع، وكان دليلا على الوضع المالى المتميز للأسرة التى يحج أحد أفرادها والذى يسمح بتحمل التكاليف الباهظة للرحلة الطويلة كما كان رحلة محفوفة بالمخاطر تستحق التهنئة عند العودة منها بأداء الفريضة أولا وبالنجاة من أخطارها ثانيا. كانت المرأة تطلق زغرودة بمجرد دخولها للبيت الذى ينوى أحد من أهله زيارة الأراضى المقدسة وكان الضيوف يعاملونه كأنه صار مباركا فيوصونه بالدعاء لمريض أمضه المرض العضال حتى يبرأ أو زوجة ينفر منها زوجها حتى يعود إلى عشه راضيا أو بنت "بايرة" فاتها أو كاد قطار الزواج لتجد العدل أو عاقر جربت كل الحيل لتحبل دون فائدة كى يأذن الله فيتردد فى بيتها صراخ الوليد ويندفع اللبن فى ثدييها بعد ان أوجعهما الحنين.

جرى ذلك مع آمنة فكان بيتها قبلة الزائرات من نساء الأشراف اللاتى كن يأتين جماعات ترتدى الكبيرات منهن الحبرات وترتدى الصغيرات الملاءات السوداء اللامعة فوق ثياب الخروج، كان وقت الزيارة ينقضى فى الحديث الذى يقطعه كل فترة ذكر النبى محمد الذى ستحظى الحاجة بزيارة قبره فى المدينة المنورة أرض أجدادهن، وتتخلله

طلبات الدعاء وتفاصيل الحالة التى تستدعيه كمحاولة من طالبة الدعاء أن تثبت الأمر فى ذاكرة الحاجة وتؤكد الضرورة الملحة للدعاء الذى يؤمن أنه سوف يكون هو العلاج الناجع لمواجعهن، وتبكى بعضهن من استعادة تلك التفاصيل الموجعة وشوقا لأن يكتب الله للواحدة منهن زيارة بيته الحرام وقبر نبيه الكريم قبل انقضاء الأجل، لكنهن سرعان ما يكسرن حالة الحزن التى لا تليق بفرحة أداء الفريضة والوقوف أمام شباك النبى محمد فتبدأ الصغيرات منهن فى الطبل والغناء بمشاركة كنات الحاجة وأحفادها بينما تكتفى الكبيرات بالتصفيق وإطلاق الزغاريد:

رايحة فين ياحاجة
يام شال قطيفة
رايحة أزور النبى
والكعبة الشريفة

عند باب النبى
فرشوا غطاهم
فج نور النبى محمد
ريح المسك جاهم

فى نهاية وقت الزيارة التى يسرع فى إنهائها قدوم فوج جديد، تخرج كل منهن من صدرها منديلها الصغير وقد صرت فيه النقوط فتقدمه للحاجة التى تتقبله شاكرة بعد تمنع لا يدوم طويلا وهى تدعو لهن بزيارة بيت الله ودوام الصحة والسعادة.

أما الحاج محمد إذا كان فى أجازة، فكان يستقبل زواره من الرجال أمام باب البيت حيث رصت بعض الكراسى حتى يترك البيت "للحريم"، لم يكن الأمر يختلف كثيرا عما يدور فى مجلس النساء، حديث يدور عن فضائل الحج ورجاء بالدعاء عند رؤية الكعبة وصلاة على النبى وتقديم النقوط، وفى فترة وجوده بالجبل كان الزائرون يأتون إلى سكنه بعد انتهاء العمل لتهنئته وسؤاله إن كان يحتاج أى مساعدة فيشكرهم ويدعو لهم أن يكتب الله لهم الزيارة كما كتبها له وكان الأشراف منهم يتنحون به جانبا ليقدموا له النقوط لأن مواعيد عملهم لن تسمح بزيارته فى بيته بالسويس.

قبل موعد السفر بنحو أسبوع، عاد محمد من الجبل ليكمل الاستعدادات الأخيرة لرحلة الحج، وكانت آمنة قد أشرفت على كناتها عند إعدادهن للزوادة التى ستعينها وولدها على قضاء فترة الحج، خبزت النساء الخبز الشمسى والقراقيش والفايش، ومَلّحنّ لحم الجدى -الذى ذبحه عبد الله على السطوح- حتى لا يفسد وأعددن الملوخية والويكة المجففتين وبعض المعلبات التى أحضرها أزواجهن من الجبل. اشترى محمد حقيبتين كبيرتين لملابس السفر ومنها ملابس الإحرام التى اشتراها محمد من محل المانيفاتورة بشارع النمسا، وأحضر عبد الرحيم بعض الكراتين من الدكان لتوضع فيها مكونات الزوادة.

يوم السفر كان الجميع فى وداع الحاجين، الرجال أبناء آمنة وأخوة محمد والنساء والأطفال وبعض الأقارب الذين جاءوا من البراجيلى وكفر عقدة وغيرها من أحياء المدينة، جاءت السيارات التى استأجروها لتوصيل الحاجين والمودعين لميناء السويس حيث تقف

السفينة الكبيرة فى انتظار راكبيها للتوجه بهم لميناء جدة حيث سيستقلون الأتوبيسات إلى مكة المكرمة ليبدأوا مناسك الحج. سار الركب فى شوارع المدينة حيث أمسك الرجال الرايات البيضاء التى أخرجوها من أبواب السيارات فظلت ترفرف بفعل الهواء معلنة للعابرين عن الموكب المبارك، وعندما وصلوا للميناء أخذوا يسلمون على الحاجين ويوصونهم بالدعاء ويتمنون لهما العودة بالسلامة، ذغردت النساء ولوح الرجال بينما الحاجة آمنة تمسك بيد ولدها الحاج محمد وهما يرتديان الملابس البيضاء التى منحت لهما مظهرا ملائكيا يتهاديان نحو البوابة التى تبدو السفينة العملاقة من خلفها ككائن أسطورى.

بعد أيام أحضر أبو بكر الخطاط ليدهن واجهة البيت وحوائط المدخل ويرسم رسومات الحج، رسم الخطاط جملا وسفينة كبيرة وكعبة يطوف حولها حجاج بملابس الإحرام وكتب على الحوائط الآية القرآنية ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ والحديث النبوى "من زار قبرى وجبت له شفاعتى"، وبعض العبارات مثل "يا داخل هذا الدار ... صلى على النبى المختار" و"حج مبرور وذنب مغفور"، كانت هذه طريقتهم للاحتفال والإعلان بأن من ساكنى البيت الذى تزينه تلك الخطوط والرسومات من حج لبيت الله وزار قبر رسوله ووقف أمام شباكه.

عند العودة، اجتمعت قبيلة آمنة فى الشقة الكبيرة للسلام على الحاجين وانطلقت الزغاريد والأغانى اللائقة بالمناسبة وتكررت الزيارات

المهنئة بسلامة العودة والداعية أن يتقبل الله سعى الحاجين لنيل المغفرة وإتمام أركان الإسلام وأيضا لتلقى الهدايا التى كان لابد للحاج أن يقدمها لكل من نقط قبل الزيارة ومعها جراكن صغيرة تحوى ماء زمزم ليتبرك الناس بها وبغيرها من الأشياء التى جاءت من الأرض الطاهرة، أرض النبوة والحرم. ظل الحاجان فترة طويلة يحكيان لزوارهما عن تفاصيل مناسك الحج ومشاهداتهما للمشاعر المقدسة ومهابة الكعبة التى تجعل من يراها يبكى من فرط التأثر والشوق بينما يعلق الضيوف بالصلاة على النبى ومصمصمة الشفاه والتمتمة بالدعاء بأن يجعل لهم نصيبا فى تلك الرحلة المباركة قبل انقضاء الأجل أو ذهاب العافية.

مع عودة الحاجين من الحجاز، عادت فاطمة لسيرتها الأولى تزور حماتها وسلايفها وتصنع لهم أصنافها التى عرفوها باسمها وصارت علاقتها بآمنة أكثر حميمية من ذى قبل فكانت تنفرد بها بعد أن تطمئن على طفليها خالد ونهى وتوصى خالد أن يرعى أخته وتحذره من ترك الشقة أو الوقوف فى البلكونة أو الشبابيك، كانت تأتى بلعبهما فى حقيبة كبيرة من القماش ليلعبوا بها مع أولاد أعمامهما معتمدة على غالية فى متابعتهم والاعتناء بهم ونهرهم إذا خالف أحد منهم تعليماتها الصارمة.

كان حديثها مع آمنة يذهب بهما إلى الماضى فكانت آمنة تحكى عن ذكرياتها مع هاشم وعن بيتهم فى الشويخات قبل زواجها وعن أختها "عائشة" الملقبة بالبسطاوية نسبة إلى جدهما بسطاوى وكيف تزوجت البسطاوية رجلا أبيض وسيما "أحلى" منها ورغم ذلك لم تحبه وكانت تتشاجر معه دائما لأتفه الأسباب، وعن ابنتها خديجة

التى جاء عمها أحمد من المخادمة خصيصا ليطلب يدها لولده أبو زيد رغم صغر سن البنت إذ اتفقوا على أن يتزوجا وتبقى خديجة مع أبو زيد دون دخول حتى تبلغ سن الزواج وكيف رفضت خديجة أن يقترب منها عندما كبرت وصارت صالحة للمعاشرة فتم الطلاق الذى أثر على علاقة أبو زيد بأبناء عمه لفترة لم تدم طويلا، وعن الطقوس التى كانوا يحرصون عليها فى المناسبات المختلفة كمناسبة "البلابيصا" و"اختناق القمر" و"المحمل" وطقوس طهارة الأولاد (الختان) وطريقة احتفالهم بالزواج و"فطام الأرض"، حدثتها آمنة عن أصل المخادمة والبطاطخة وغيرهما من قرى الأشراف وكيف هاجر أجدادهم الأوائل فى الزمن القديم ولماذا يحافظون على نسلهم من النطف الغريبة جيلا بعد جيل، كانت فاطمة تستمتع بتلك القصص التى لا تعرفها هى التى عاشت عمرها كله فى السويس ولم تر تلك الأماكن التى تتحدث عنها حماتها سوى مرات قليلة سافرت فيها طفلة مع أبويها إلى البطاطخة لا تتذكر منها سوى مرة وحيدة كانت جدتها وأقاربها هناك يعاملونها كأميرة وكانت تلهو مع الأولاد والبنات فى دروب القرية ويأخذها خالها "على" إلى أرضه فتستمتع بمنظر الحقول الخضراء الممتدة والبهائم التى ترعى فيها وطيور أبى قردان البيضاء بمناقيرها الطويلة أو يذهب بها للجنينة التى كان لها سور طينى وتظللها أوراق العنب فتشعر فيها بالطراوة الندية بينما الشمس مستعرة خارجها، كانت تقول لآمنة:

- تصدقى يا نينة لسه حلاوة طعم العنب الأسود اللى كنت باكله من إيد خالى فى بقى من ساعتها.

فى إحدى جلساتهما الطويلة حكت لها آمنة عن صديقتها "مريدة" التى كانت تكبرها بسنوات كثيرة والتى ساعدتها فى التعرف على ناس المخادمة وخففت عنها صعوبات بداية الزواج والحياة فى بلد لا تعرفها وكانت بمثابة أم لها وكانت علاقتها بها كعلاقة فاطمة بأبلة أنيسة، قالت لها آمنة أن أهلها لم تكن لهم علاقة بأرض أو زرع لذلك فقد أحبت صحبة مريدة التى كان أهلها وأهل زوجها مزارعين أبا عن جد فكانت تقضى معها أوقاتا ممتعة فى الأرض حيث تمتد الخضرة على "مدد الشوف" ويمتلأ الهواء بروائح الزرع الزكية وكان أجمل يوم فى السنة هو يوم فطام الأرض الذى تتم فيه آخر سقيا للأرض قبل الحصاد، أعجبت فاطمة بالتسمية التى تنتمى لمفردات الأمومة فتصور الأرض كأنها طفل يرضع حتى يأتى موعد فطامه فى هذا اليوم من العام، حكت آمنة أن اليوم كان يبدأ بتجمع النساء والأطفال والبهائم أمام البيوت استعدادا للسير نحو الأرض المزروعة التى يكاد الرجال ينتهون من سقياها، تكون النسوة قد انتهين من تزيين البهائم التى عملت فى الأرض طوال العام وكأنه يوم عرسها فتلف حول رقبة كل بهيمة "حردة" (إيشارب صغير) زاهية اللون وتلف حول جذعها "صرافية" (فستان لامع مطرز بالترتر)، عندما تصل الجموع للأرض يهلل الرجال الذين كانوا بانتظارها، وتتوجه التجمعات الصغيرة نحو الساقية لتلتقى جموعا أخرى وصلت من النواحى الأخرى فتتعالى صيحات الفرحة والتهنئة وعبارات السلام والدعاء بالخير وينصهر الكل فى شعور عارم بالسعادة فقد كدوا وتعبوا وآن لهم أن يستريحوا حتى موعد الحصاد حيث يتزوج من جاء دوره فى الزواج وتعمر البيوت

بأطايب الطعام وتشترى كسوة السنة من الأسواق وتسدد الديون، يقود الرجال مواكب الفرحة بداية من الساقية، وتتلألأ زينة البهائم وحبات العرق فوق جباه الناس فى شمس الضحى صانعة غيمة من الضياء بينما الحناجر تغنى بحماس:

اللّه اللّه يا ليل

فطمت على خير

عندما ينتهى المسار لحدود البلد، تبدأ الجموع فى الانسحاب واحدا إثر آخر حيث تودع كل عائلة بقية العائلات بصيحات "كل عام وأنتم بخير" داخلة لدربها حيث يهجع الرجال فى السقائف والبهائم فى الأحواش وتشرع النساء فى تجهيز الغداء.

كانت أوقاتها فى بيت الهويس وحكايات حماتها تسليتها الوحيدة فى غياب عبد الله فلم تكن تستطيع زيارة أهلها فى بيتهم الذى شهد مصرع راوية.

كان أهلها فى زياراتهم لها يعتبون عليها لأنها لا تزورهم فتعتذر لهم بحجج واهية ولا تفصح أن السبب الحقيقى هو عدم تصورها نفسها تخطو داخل مدخل بيتهم وتمر على البقعة التى شهدت آخر أنفاس فقيدتها الغالية فتتذكر تفاصيل المأساة التى عجنتها بالحزن وغيرت نظرتها للدنيا، تنبهت أمها ذات، مرة ولامت نفسها أن ذلك لم يخطر على بالها من قبل هم الذين كانوا يغيرون الشقق لأسباب أتفه كثيرا من تلك المأساة التى ألمت بهم جميعا وذلك عندما كانوا يلاحظون مثلا أن دهان الحوائط صار حائلا بفعل الوقت أو أنهم ملوا من وجودهم فى نفس الشقة لمدة طويلة خاصة أن لافتات الشقق الخالية

حولهم كانت من الكثرة بحيث لا تخطئها عين فى ذهابهم وإيابهم وكان أصحاب البيوت "يدللون" عليها ويبخرونها لتحل البركة عليها فيجدون لها مستأجرين مقابل بضع جنيهات كل شهر، طلبت سرية من زوجها أن يبحث لهم عن شقة فى بيت بعيد عن البيت الذى شهد المأساة وبعد أسبوع كانت الأسرة قد انتقلت إلى شقة جديدة من بيت لا يمر طريق الذاهب إليه بالبيت القديم وقد اختاروا الشقة الجديدة فى الدور الأرضى حتى تطمئن فاطمة على أطفالها فعادت ابنتهم المكلومة لزيارتهم دون أن تفتح الموضوع مع أحد واكتفت بنظرات أمها التى قالت كل شيء.

14

ظل عبد الله يتنقل بين السويس والقاهرة وأبو رديس يصنع مجده ويوالى أسرته وفى القلب منها حبيبته فاطمة، كانت التجربة الأليمة التى مرت بها قد زادتها رقة على رقتها وكساها الحزن بطابع من الهشاشة ورهافة الإحساس حتى بدت أنها جاهزة لذرف الدموع لأقل الأسباب كما أورثتها التجربة إحساسا عميقا بالقلق فصارت تجرى على الطبيب عند أدنى إرتفاع فى حرارة أى من الطفلين أو بمجرد أن يشتكى أحدهما من الألم حتى لو كان ألما خفيفا وكان قلقها الأكبر عندما يتأخر عبد الله فى عودته من سهراته مع أصدقائه أو عن موعد عودته المعتاد من الصحراء، وعندما كان يسافر للقاهرة لم تكن تهدأ أو تنام إلا عندما تسمع صوت تكة مفتاحه فى كالون الباب، إعتاد

الجميع على قلقها ففهم خالد أنه ينبغى أن يكتم شكواه إذا أحس بألم عابر وصاروا يتحفظون فى تصرفاتهم أمامها وحاول عبد الله قدر إمكانه ألا يتأخر حتى لا يثير قلقها الذى يوتر أعصابها ويفسد لياليه معها بعد أن يكون قد خطط تفاصيلها وهو يتمنى أن يكون مزاجها ملائما ليروى ظمأه من مائها الرقراق.

ذات ليلة، كان ساهرا مع صديقين له فى كازينو سمر بالاس وكان هواء البحر يخفف من وطأة الحر التى أرهقتهم طوال النهار وأول المساء، أكثر عبد الله ليلتها من الشراب، شعر بأن طعم البيرة وتأثيرها عليه أروع من كل مرة، سرح خياله منفصلا عن صديقيه اللذين كانا يتجادلان فى المفاضلة بين فريقى الزمالك والترسانة، لم يكن له اهتمام بالكرة فانتحى بكرسيه جانبا وتراءى له وجه حبيبته، رآها وهى بوجهها المحمر تلعب مع صديقاتها أمام بيتها ورآها فى الكوشة بفستانها الأبيض القصير والخجل باد على ملامحها من نظرات أقاربه الذين لم يعتادوا على تلك الموضات ورآها وهى تنظر إليه نظرات الوله والشوق محاولة إقناع راوية بالنوم حتى تمتلك وحدها ليله الطويل، شعر بحنين جارف أن يضمها إلى صدره وكاد يشم رائحة أنفاسها العطرة تعبق نسمات الهواء اللطيف الآتية من البحر وجرى فى لعابه طعم لعابها وهى تقبله قبلاتها التى تعلمتها فيه، لم يعد يطيق صبرا فنهض فجأة مودعا صديقيه ومتجها إلى باب الكازينو بينما أحدهما يصيح فى ظهره:

- رايح فين يا عبد الله لسه بدرى، تعالى يا عم هانبطل نتكلم فى الكورة.

أشار للتاكسى وركب فى الخلف، كان الهواء يلفح وجهه مع سرعة السيارة بينما صوت أم كلثوم يتردد فى داخله:

قربك نعيم الروح والعين
ونظرتك سحر والهام
وبسمتك فرحة قلبين
عايشين على الأمل البسام

انتشى بالليل وطراوة الهواء وصوت الست فى خياله وعاوده وجه فاطمة فشعر بالندم على تلك الأوقات التى كانت تضيع وهى بعيدة عنه فلا تكون ملء عينيه وحضنه ودون أن يتنسم عطر وجودها أو يستمتع برقتها وحنانها.

قبل أن يتوجه للبيت، مر على محل عم خليل البقال فاشترى عشاء خفيفا كانت تحب تناوله مع كوب الشاى بالحليب واشترى ثلاثة قطع كبيرة من الشيكولاتة ومر على مقلة الحاج لمعى فاشترى بعض اللوز والكاجو والبندق الذى كانت تتسلى بتقشيره بكسارة البندق وهى جالسة على السفرة عصرا تستمع إلى مسلسل خمسة وربع فى الراديو.

عندما أرهفت السمع لصوت المفتاح فى الباب، خفق قلبها اطمئنانا وفرحة لعودته المبكرة التى منعت القلق من زياراته الليلية إليها وزفرت زفرة ارتياح. مس قلبها اهتمامه بمفاجئتها بالأشياء التى تحبها، خبأت قطعة شيكولاتة فى دولابها حتى تأكلها على مهل ووضعت الأخريين على الكمودينو بين سريرى خالد ونهى حتى يبدآ يومهما الجديد بفرحة المفاجأة، جهزت الشاى بالحليب لها والسادة له

وتعشيا، ذهب إلى الحمام ليغتسل فدخلت غرفة النوم، عندما دخل الغرفة وجدها قد أعدت مفاجأتها الخاصة، كانت ترتدى قميص النوم الأحمر، ذات القميص الذى ارتدته ليلة فرح أبو بكر وغالية.

تصاعدت شهقاتهما وعندما اقتربت لحظة انعتاقها من ألم اللذة نحو ذروتها كان جسدها يتماوج كموجة عفية، رفعت يدها لأعلى، كانت مغمضة العينين لكنها رأت السماء بعين خيالها قريبة حتى تكاد تلمسها، عندما دفقت ماءها شعرت كأنها بحر يرتاح على شاطئه بعد السفر الطويل بينما كان هو يتدفق كنهر يصطخب بين الصخور ثم ينساب رائقا فى مجراه.

استيقظت فى الصباح وهى تشعر بنفس الشعور الذى أتاها منذ سنين بعد ليلة كليلتها تلك عندما داعبته فى الخنطور فى طريق عودتهما من فرح أبو بكر وغالية، كان شعورا مريحا بالامتلاء والصفاء يجعل جسمها مسترخيا كأنه لم يعرف التعب قط وذهنها رائقا كصفحة نهر طيب، ومثلما حدست يومها أن جنينا سوف يتشكل فى رحمها فجاءت راوية بعد تسعة أشهر من تلك الليلة لتعوضها عن سميح، أيقنت تلك المرة أيضا أن الله سيعوضها عن راوية عما قريب.

صدق حدسها، عرفت بعد مرور شهر أن كائنا جديدا يتكون فى حشاها. لم تعرف لماذا فكرت فى آمنة فى ذات اللحظة التى تأكدت فيها من الحمل، رغبت أن تكون آمنة هى أول من يعرف الخبر، ابتسمت لنفسها وهى تكتشف أنها تأثرت بها وصارت أكثر فهما لدوافعها فى أن يكون أولادها وزوجاتهم وأبناؤهم كتلة واحدة رغم ما

بينهم من اختلافات فى طريقة التفكير ونمط الحياة وحتى طريقة التعامل مع الأطفال، فكرت أن حماتها تدرك ذلك كله وتراه طبيعيا لكنها لا تتسامح فى أى سلوك أو فكرة يمكن أن تؤثر فى تماسكهم، علمت منها أنها لامت محمود ونعمة أشد اللوم عندما انفصلا دون أن يتفقا مع عبد الله وفاطمة فبديا كأنهما يهربان أو يتآمران أو كأن بين أعضاء قبيلتها من يشك فى أن الآخرين لا يحبون له الخير لكنها سعدت عندما علمت أن المياه عادت لمجاريها بين الأربعة خاصة بعد موت راوية.

عصر يوم علمها بالخبر السعيد، تركت فاطمة الطفلين فى رعاية أبلة أنيسة وإبنتها فوزية وذهبت للهويس، عند عبورها الباب تنبهت آمنة واعتدلت من اضطجاعتها على الكنبة وتلفتت فوجدت وجه فاطمة تلفه ابتسامة عذبة، ابتسمت لها وهبت واقفة وهى تهتف:

- مرحب يا فاطنة، تعالى يا بنيتى.

مالت فاطمة عليها وقبلت وجنتيها وهى تنهج قليلا من صعود السلم، ردت:

- إزيك يا نينة، من فرحتى ما قدرتش أستنى لبكره وجيت أقولك.

- إستنى يا فاطنة أنا اللى ها قول، إنت حبلى، صح؟

- صح يا يامنة، إنت مش حماتى إنت الساحرة الطيبة بتاعتى.

اندهشت آمنة رغم سعادتها بتلك الحميمية فى تعامل كنتها معها فقد كانت تلك هى المرة الأولى التى تتباسط فيها فاطمة معها لهذه

الدرجة وتذكرت عبد الله فى لحظات صفائه معها عندما يناديها باسمها المجرد دون ألقاب، ضحكت:

- يامنة، والله عال ما هى عيلت، مبروك يا فاطنة ألف مبروك، عبد الله جاى ميتى عشان يفرح؟
- جاى بعد أسبوع، كان نفسى يكون هنا النهارده.
- ياجى بالسلامة ويفرح العمر كله بإذن الله.

فجأة ودون توقع أطلقت آمنة زغرودة طويلة جعلت كل من فى البيت يسرع إلى حيث مصدرها.

هاج البيت بفرحة عارمة، لم يكن هناك رجال، كان محمد وأبو بكر وحسين فى الجبل وعبد الرحيم فى الدكان حيث ألقت عليه فاطمة التحية عندما مرت عليه، غمرت النساء فاطمة بالقبلات والأحضان وهاص الأطفال دون أن يدركوا سبب الفرحة الطاغية التى أخرجت الكبار عن وقارهم الصارم، أقبل عبد الرحيم بعد أن تناهى إليه صوت الجلبة وعندما عرف سببها تحولت سمات الغيظ التى بدت على وجهه إلى السعادة وبارك لفاطمة التى يحبها وكان حزينا من أجلها ومن أجل الطفلة التى كان متعلقا بها بشدة، إصطحب هاشم وبعض الأطفال معه إلى الأسفل وعاد الصغار بعد قليل حاملين كمية كبيرة من الملبس والطوفى وزجاجات السيكو والسباتس تحية ومشاركة من عبد الرحيم فى الاحتفال. قضت فاطمة وقتا رائعا أحست فيه أن يدا كبيرة حنونة تغسل أحزانها وتعيد إليها بهاءها وإشراقها ورغبتها فى الحياة وغمرتها مشاعر الامتنان نحو ذلك الجمع الذى أحاطها بكل

هذا الحب الدافئ فأدركت كم هى محظوظة بالانتماء لتلك القبيلة الصغيرة، قبيلة آمنة.

عند مغادرتها مدت آمنة يدها بقفة صغيرة غطت ما بها بقطعة من القماش، قالت:

- خدى يا فاطنة، شوية شريك (فايش) تفطرى بيهم مع الشاى لو ما لكيش نفس للوكل (الأكل).

سلمت على الجميع وشكرتهم، كانتِ آمنة آخر من سلمت عليه، قبلتها هامسة:

- بحبك يا يامنة.

- يامنة تانى، إمشى يا منزوعة (المعنى فاسدة أو منحرفة وفى السياق قيلت على سبيل التفكه).

أتبعت جملتها بقهقهة رائقة ظل صوتها يرن فى أذن فاطمة طوال الطريق.

تعجبت فاطمة كيف لم تفكر فى إبلاغ أمها قبل حماتها، جاوبت نفسها بأن أمر حملها وإن كان حتما يسعد أمها لكنه بالنسبة لآمنة قضية حياة، رغم ذلك أحست بوخز الضمير فلم تشأ أن تعود لبيتها دون أن تمر على بيت أهلها، وهى فى طريقها فكرت أن أمها كانت تحمل فى أوقات متقاربة لحملها فولدت أخاها أبو العباس بعد قليل من ولادتها سميح وأختها "آمال" فى وقت قريب لولادة خالد وأخاها "حسان" فى وقت قريب من ولادة نهى وكان أهل زوجها وسلايفها يتندرون على الأم وابنتها اللتين تتسابقان فى الحمل والولادة، لكنها

هذه المرة تحمل وحدها بعد أن أنهت أمها مهمتها بولادة حسان آخر العنقود.

فتحت هالة الباب فقبلتها فاطمة وسألت عن أمها فأخبرتها أنها مريضة بالداخل، إنزعجت فاطمة وهرعت لغرفة نوم الأم، سلمت عليها وبادرتها بالسؤال عما تشتكى، أخبرتها أنها بخير ولكنها متكدرة من الأخبار السيئة التى وصلتها عن عزة، سألتها بلهفة:

- مالها عزة؟
- بلغنى إنها تعبانة فى عيشتها فى البلد وجوزها بيدور على شغل ما لاقيش.
- ما تزعليش يا أمى، كل حاجة وليها حل بإذن الله، أقولك خبر يفرحك؟ أنا حامل يا أمى.

تهلل وجه سرية وترقرقت عيناها بالدموع، قامت من السرير وقد استردت عافيتها فاحتضنت ابنتها طويلا ودعت لها كثيرا ورجتها أن تنتظر حتى يعود أبوها لتبلغه الخبر المفرح بنفسها ووعدتها أنه سيوصلها لبيتها، رضيت أن تبقى رغم قلقها على خالد ونهى وقد غابت عنهما مدة طويلة.

عاد عبد الله من الصحراء، فتح له خالد الباب فتعلق برقبته قائلا:

- ماما بتقول إن ربنا هيدينا ولد وأنا عايز أسميه أمجد.
- الله ده اسم حلو خالص، أنا موافق بس مش يمكن تاجى بنت، هى فين ماما؟

ذهب عبد الله ليطمئن على فاطمة وعلى الصغيرة نهى ثم نادى على خالد ليفتح الحقيبة ويرى ما فيها. أكدت له خبر حملها من خلف دموع فرحتها فهنأها. بعد الغداء جلسا يدردشان فتذكرت موضوع أختها عزة، وعدها:

- هاعمل جهدى وإن شاء الله خير.

فى اليوم التالى، عاد من الخارج فأبلغها أن ترسل لخليفة ليقدم ورقه فى فرع السويس بعمارة عبود وسوف يسهل له إجراءات التعيين. تم كل شيء وانتقلت عزة وزوجها للسويس حيث أجّرا غرفة بجوار بيت أهلها وانتظم خليفة فى عمله بالشركة. جاءتها عزة ومعها ابنها الأول الذى لم تكن قد رأته من قبل، لاحظت فاطمة كبر بطن أختها فمازحتها:

- مش قلت لك القميص الأحمر ده سره باتع.

لم تجاوبها عزة وبدت مهمومة، ردت:

- قميص إيه يا فاطنة هو أنا كنت عارفة أغسل وشى حتى.
- ليه يا عزة العيشة هناك كانت صعبة قوى؟
- بيت عيلة يا فاطنة، من قبل الفجر لآخر الليل ما تقعديش على حيلك.
- الحمد لله ربنا يسهل لخليفة ويعوضك عن التعب.

ولدت عزة ولدها الثانى بعد شهرين من استقرارها بالسويس وولدت فاطمة "أمجد" بعدها بأربعة أشهر، عندما رأته آمنة تذكرت ولدها أحمد الأبيض البض الذى كان موته وهو رضيع سببا فى زواج

هاشم عليها والذى رفضت أن تسمى عبد الله باسمه، كان أمجد أول حفيد لها لا يولد على يديها.

عندما بدأت فاطمة تشعر بقرب الطلق أرسلت إليها أخاها محمد الذى كان يأتى إليها كل يوم بناء على تعليمات أمه ليطمئن عليها ويشترى لها طلباتها حتى يعود عبد الله من الجبل، طلبت منه أن يذهب ليبلغ أمه بعد إبلاغ حماتها، جاءت آمنة وهى تتمتم بآيات القرآن وتحاول التغلب على شعور القلق الذى تسرب إليها، غدت حساسة تجاه كل ما يخص فاطمة التى ابتلاها الله بفقد إثنين من أبنائها والتى لن تحتمل صدمة أخرى لا قدر الله، وجاءت سرية وهى تدعو الله طوال الطريق أن يكتب الفرحة لابنتها التى تعذبت كثيرا، عندما نزل ماء الجنين وطال الوقت قبل ظهور أى بادرة لنزول الجنين بينما الوالدة تتألم وتغرق فى عرقها تبادلت المرأتان نظرات لها معنى أن هناك شيئا ما ينذر بالخطر واتفقتا أن فاطمة بحاجة ماسة لمساعدة من طبيب أو على الأقل حكيمة، أوصت سرية محمد أن يأخذ الحنطور سريعا إلى بيت الست نبيلة الحكيمة جارتهم وأن يبقى الحنطور منتظرا حتى تأتى معه فى الحال، أخذت تدعو أن يجدها فى البيت وألا تكون فى نبطشيتها بالمستشفى الأميرى حتى لا يضيع مزيد من الوقت فتقترب فاطمة وجنينها من الخطر الداهم.

جاءت الحكيمة ففهمت وضع الوالدة من الكلمات القليلة التى سمعتها من آمنة، وضعت يديها فى الرحم الذى يجاهد كى يخرج ثمرته فاصطدمتا بشيء لم يكن هو الرأس كما تعودت فى كل الولادات التى أجرتها من قبل، كانت قدما الجنين هما اللتان فى المقدمة بينما الرأس

هناك فى الخلف، كان هذا أصعب اختبار لخبرتها فى التوليد التى تزيد عن عشرين عاما، كان تصحيح وضع الجنين قد تأخر وقته جدا فلم يكن أمامها سوى أن تحاول إخراجه على هذا الوضع الشائك الذى كان يهدد الأم والجنين، بعد نحو الساعة حدثت المعجزة، استطاعت الحكيمة بصبر عظيم أن تخرج الرجلين والمقعدة ثم الجذع واليدين مضموتين إليه ثم أخيرا خرجت الرأس بعد أن كادت روح فاطمة أن تزهق وهى تدفع جنينها خارجها، كان الجميع قد أنهك من التوتر والترقب لمصير تلك الحياة التى جاهدت جهادا مجيدا ضد الموت الذى كان يحوم حولهم والذى شمت رائحته آمنة وتخايلت بخيالاته مرات لكن إرادة الله نفذت ونفذت فاطمة ووليدها من ذلك الشق الرفيع الذى أخذ يتسع شيئا فشيئا بعد أن ضاق عليها وكاد يخنقها ووليدها لولا أن نجاهما الله.

نامت فاطمة بقية اليوم وهى لا تدرى من أمرها شيئا، عندما استيقظت ظلت فترة حتى استوعبت ما حدث، جاءوا لها بوليدها فبكت بكاء الفرحة والشكر وتمنت أن ترى عبد الله الذى تبقى على عودته أكثر من أسبوع، فى الصباح التالى جاءها حسين وعبد الرحيم ومعهما نعمة وغالية وكاملة فباركوا لها على سلامتها وعلى الوليد وأخبرها حسين أنه سيمر على الشركة للاتصال بعبد الله حتى يحاول النزول قبل موعده ليكون بجانبها ويفرح بوليده الجديد "أمجد".

كان "أمجد عبد الله هاشم أبو زيد" البطن الخامسة لفاطمة عبد المطلب عاشور والابن الثالث لها من الباقين منهم على قيد الحياة والحفيد السادس عشر لآمنة مصطفى عبد الباسط، جاء إلى الحياة

بمعجزة كانت تفاصيلها هى القصة المفضلة لأمه التى كانت تداعبه دوما بقولها:

- من يومك وإنت الدنيا مش لازماك، ده أنت جيتها بالمقلوب.

15

كأن الدنيا تلعب معها لعبة الميلاد والموت.

مثلما أنساها ميلاد راوية أحزانها على موت سميح، أنساها ميلاد أمجد أحزانها على موت راوية، شدتها الحياة شدا كي تنسى، تمثلت لها من جديد فى كائن يعتمد عليها اعتمادا كليا كي يحيا،أن يتغذى ويخرج ويستحم ويلبس ويناغى، لم يكن لها أن تتخلى عنه ولم يكن لها ألا تفرح به وكان عليها كى تستمر أن تبعد طيف راوية عن مخيلتها، هل خانتها عندما استسلمت لنداء الحب والرغبة وطارت فرحا عندما جاءتها بشارة الطفل الجديد أم أن راوية الآن سعيدة فى جنتها من أجلها، فى لحظات لعبها مع أمجد كانت تتذكر ذات اللحظات التى كانت تلاعب فيها راوية وهى لم تزل رضيعة وتكتشف الشبه بينهما. كان يهاجمها الكابوس الذى يذهب النوم من عينيها، ماذا لو تمادت الدنيا فى لعبتها معها فمنحتها بعد أمجد طفلا واثنين ثم عاد الموت واختطفه من حضنها، كانت تصحو فزعة من نومها وهى تشعر بالجفاف المر فى حلقها فتشرب دورق المياه الموضوع على الكمودينو جانب سريرها دون أن ترتوى، كانت تستغفر الله وتستعيذ به من الشيطان الرجيم ثم تحاول العودة للنوم.

توالت أيامها بين رعاية رضيعها والاهتمام بأخويه والاحتفال بوجود عبد الله المتقطع بالبيت، كانت زياراته للقاهرة تستقطع جزءا كبيرا من أجازاته وأحيانا كان يعود من أبو رديس مبكرا عن موعده من أجل حضور اجتماع أو مناسبة رسمية للشركة فى القاهرة، أحب عبد الله الصغير وكان يلاعبه فى أوقات فراغه النادرة، كان الصغير مفعما بالحياة شرها للرضاعة حتى تكاد تشعر أنه يمتصها امتصاصا، جربت أن ترضعه ماء الأرز بالحليبَ دون فائدة، سألت أبلة أنيسة وكان عمره قد بلغ ستة أشهر فنصحتها أن تجرب المنتج الذى كان يعلن عنه فى التليفزيون، عندما تذوق الرضيع "ريرى" كان كمن وجد ضالته، أراح ريرى صدرها قليلا من شراهته فصارت ترضعه مرة وتطعمه ريرى مرة، مع الشبع بدأ جسده فى الامتلاء وظهرت ثنيات اللحم وتكورت خدوده وتوردت بشرته حتى صارت آمنة كلما رأته تبكى لأنه يذكرها بولدها أحمد الذى فقدته رضيعا ثم تعود فتنسى مع بسمات الطفل ومناغاته ومشاكساته التى كانت تدغدغ قلبها حتى أحبته وأصبحت لا تستطيع أن تمر أيام دون أن تراه. صارت زياراتها المتكررة لزرب مادة لتندر كناتها من خلف ظهرها، أدركن أن أمجد صار حفيدها المفضل و"الأفيونة" التى تعدل مزاجها إذا تعكر، عندما كن يزرن فاطمة كانت تشرح لهن أن أمجد يذكر نينة بوليدها الأبيض الجميل الذى راح وأنها تستعيد شبابها وذكرى زوجها الراحل فى الأوقات التى تقضيها مع الولد، ثم تعابثهن بالتفاخر بأن ولدها جميل كالقمر وأنهن يغرن منه ومنها وعندها كانت تتلقى ضرباتهن اللينة فتجرى من أمامهن مهددة:

- والله لأقول لنينة آمنة على كل حاجة.

فى غمرة التضاحك والهزل كانت ترتسم على وجوههن للحظة قسمات الرعب من أن تكون فاطمة جادة فى تهديدها لكن سرعان ما كن يطمئن عندما يتأكدن أن الأمر كله لا يعدو المناكفة واللهو، كن هن أيضا يعشقن الطفل ويقضين وقتا طويلا فى ملاعبته وإطعامه وجبة الريرى وتغيير كافولته إذا ابتلت، ويغمرنه حنانا وتقبيلا حتى صار كأنه ابن لهن جميعا مع حرصهن ألا ترضعه إحداهن من صدرها حتى لا يصير أخا لبناتها فى الرضاعة ويحرم زواجه منهن، كان هذا الحرص المعتاد مع كل أطفال العائلة حسب توصيات مشددة من آمنة التى كانت تحلم بزواج بنين العائلة ببناتها ليصير النسل الجديد نقيا خالصا.

صار أمجد مركز الاهتمام ومناط البهجة، عندما أكمل عامه الأول كان قد تعلم المشى فصار يتنقل بين غرفة أمه والصالة والمطبخ وغرفة إخوته طوال النهار ولا يترك شيئا على حاله، كان خالد ونهى يعتبرانه لعبة جديدة أحضرتها لهما أمهما فانصرفا عن ألعابهما القديمة وصارا يتنقلان معه من مكان لمكان ما جعله يرتبط بهما ويقلدهما فى كل شيء، لم يكن يتذكر أمه إلا عندما يقرصه الجوع أو يضايقه البلل، وعندما التحق خالد بالمدرسة كان ينتظره فى موعد عودته عند الباب ما جعل الجميع يتعجب كيف يستطيع ضبط الموعد كل يوم دونما خطأ ويتهلل وجهه عندما يرى أخاه الذى يحضر له كل يوم شيئا مما يباع أمام باب المدرسة، كان يترك نهى التى مل من اللعب معها طوال فترة الصباح ويجلس هادئا بجوار خالد حتى ينتهى من الواجب وعندما

يراه يضع الكتب والكراريس فى الحقيبة كان يدرك أن أخاه قد فرغ له فتبدأ الجلبة والركض ولا تكف فاطمة عن نهرهما حتى لا ينزعج الجيران دون جدوى، عندما أنهى خالد السنة الدراسية وأخذ "المسامحة" عادوا لسيرتهم الأولى حتى أن فاطمة كانت تشعر بالقلق فتظل تدور عليهم حتى تجدهم فتبتسم وتهز رأسها عجبا ورضا وهى تدعو الله ألا يحرمها من رؤيتهم سعداء متحابين.

قبل أن يكمل أمجد العامين من عمره وقعت الواقعة.

عندما قامت الحرب وانكسر ظهر من كانوا يظنونه كالطود الشامخ، كانت غالية قد ولدت ولدها الرابع "مصطفى" وكانت زينب زوجة عبد الرحيم حاملا فى الشهر الأخير من حملها الأول، رأوا عينيه المهزومتين فى شاشات التليفزيون وسمعوا صوته المختلج انكسارا عبر الراديو وهو يلقى خطاب التنحى، أحسوا أن الأرض التى ظنوها راسخة تميد تحت أقدامهم وأن العالم الذى ظنوه نهائيا وأبديا يتهاوى فوق رؤوسهم.

وقعت الواقعة وهاج الناس وهم يتخبطون محاولين رغم تشتت الذهن وزيغ البصر أن يجدوا طريقا للنجاة من الدمار والموت والصراخ الذى أخذ يملأ فضاء المدينة حولهم، عندما عاد عبد الله من الصحراء إلى بيته تلك الليلة باكيا كان أكثر ما يشغله سؤال ظل يتردد فى جوفه بإلحاح "ماذا أفعل"، زلزله السؤال حتى شعر بدبيب الشيخوخة يسرى فى جسده وتلافيف مخه، كان يفكر فى نفسه كشخص خدعته أحلامه فارتفعت به لعنان السماء والآن تلقى به من حالق فيرتطم

بالقاع ارتطاما لا يتردد صداه سوى داخل نفسه، أحزنه أن سقوطه كان مبتذلا يحدث دون احتفال ودون خصوصية، كان الكل يسقط والكل منشغل بسقوطه الخاص، لكنه كان يرى أن سقوطه هو أعظم وأعمق معنى من سقوط غيره، كان يظن أنه أكثر الناس التصاقا بحلم الزعيم وأكثرهم تصديقا أن المستحيل قد غدا ممكنا، أحزنه أنه كان قد اطمأن إطمئنانا تاما أن الزعيم يرعى كل شيء وكانت تأتيهم إشاراته أن كل شيء على ما يرام وأن عليهم فقط أن يعملوا ويعيشوا ويستمتعوا بحياتهم ويصدقوا حلمه وحلمهم وألا يشغلوا بالهم بغير ذلك، فهو الأب الذى يتحمل مسئولية الحماية وهو الحائط الصلد الذى يستطيعون أن يرتكنوا إليه دونما خوف أو قلق.

وكان يفكر كزوج وأب مسئول عن أسرة صار مصيرها ومستقبلها الآن معلقا بما سوف يقرره هو، وكان يفكر كمسئول نقابى من واجبه الحرص على مصالح من ينوب عنهم والمحافظة على حقوقهم فى تلك الأيام الصعبة والتى لا يعلم إلا الله متى تنتهى، وكان يفكر كإبن لعائلة كبيرة اعتادت دوما أن تواجه الحياة كتلة واحدة وتقرر مصيرها بعد مشاورة وأخذ ورد فلا يشرد واحد منها عما قرروه معا، فهل تغير الوضع وتفكك ما كان يظنه عصيا على التفكك؟ عندما هاجمته الهواجس قرر أن يستطلع الأمر فذهب من فوره للهويس.

لحظة خطت قدمه باب البيت ولفته ظلمة المدخل سمع جلبة عظيمة كانت خليطا متداخلا من أصواتهم ونداءاتهم على بعضهم البعض وأصوات سرائر تجر على الأرض ودواليب تفتح وصراخ أطفال وزعيق نساء، كانت كل الأبواب مفتوحة وكان الأطفال هابطين

صاعدين من دور لدور ومن شقة لأخرى. عندما وصل الدور الأخير وجد أمه واقفة فى وسط الصالة شبه الخالية واضعة يدها فى وسطها وتبدو عليها آثار البكاء، ارتمى فى حضنها فبادرته:

- شد حيلك يا عبد الله، كفاية بكا كى (مثل) النسوان وشوف هتعمل إيه.
- إنتم ماشيين والا إيه؟
- أيوة وهو فيه حل تانى يا ولدى؟
- وفين إخواتى؟
- بيدوروا على عربيات تاخد العفش وشيالين ينزلوه.
- أنا مش هامشى يامه؟

خبطت آمنة على صدرها وسألت ملتاعة:

- يا مرى أمال هتقعد لما اليهود يموتوك ويموتوا مرتك وعيالك؟
- الأعمار بيد الله يامه، أنا ماعملتش ده كله عشان أول ما تحصل حاجة أجرى، وبعدين أنا لازم أطمن على وضعنا فى الشركة وهنعيش إزاى ومنين قبل ما أروح قنا.

نظرت إليه كأنها تزن كلماتها قبل أن تنطق بها:

- براحتك يا عبد الله بس أمانة عليك أول ماتطمن خد بعضك وهات عيالك وتعال على طول.
- حاضر يامه، سلمى لى على اخواتى.

كانت زوجات إخوته وبينهن نعمة التى جاءت بطفليها للسفر مع الجميع قد تناهت لأسماعهن أصداء الحوار فأتين ليسلمن عليه

ويحملنه أمانة السلام لفاطمة والقبلات للأولاد، نظر إلى غالية التى ولدت منذ أيام وهى تهدهد وليدها حتى يكف عن الصراخ، كان يرى الوليد للمرة الأولى، تمنى أن يأخذه فى حضنه ويقبله لكنه لم يستطع، كانت الدموع قد بدأت تتجمع فى عينيه من جديد فخشى أن تراها النساء والأطفال فتهيج أحزانهم التى تكاد تنطق فى نظرات عيونهم، خرج عبد الله إلى الشارع، كان الليل أكثر إظلاما ونفسه أكثر غربة، وقلبه كأنه يتفتت بين يدى حزنه القاسيتين، آلمه شعور اللوعة على نفسه وعالمه وعلى مدينة أحلامه التى ذهب عنها بهاؤها وصارت فى طريقها لتكون مدينة للخراب.

آلمه أنهم غدوا فى طريقهم لهجرة جديدة وغربة جديدة كأن الهجرة صارت قدرهم الدائم، سائل نفسه لماذا وقد حطوا رحالهم ودقوا أوتادهم وبدأوا فى غرس جذورهم فى أرض جديدة واعدة تلفظهم الأرض كأنهم نبت غريب لا تحتمله، كان كل طموحهم أن يسعوا على رزقهم ورزق أولادهم ويبذروا بذورهم الطيبة فى انتظار مواسم حصاد تبدو الآن كأنها تأبى أن يحين أوانها.

بينما الحنطور يتهادى على الكورنيش تذكر عبد الله تلك الليلة الساحرة التى تفجر فيها ينبوع الحب فى قلبه نحو فاطمة وتعجب على تقلب الأيام، انطفأت المصابيح التى كانت أنوارها تتلألأ على طول الطريق واختفى العشاق الذين كانوا يجوبون الكورنيش جيئة وذهابا وصمتت أصداء الضحكات الرائقة التى كانت تتناهى من الكازينوهات المنتشرة على طول الكورنيش واختفت أصوات العصافير التى تعشش فى الأشجار الباسقة ليحل محلها نعيق الغربان الذى تردد صداه

الكئيب فى هدأة الليل، أيقن عبد الله أن حلمه السريع ذهب أدراج الرياح وأن عليه أن يواجه قدره كما ينبغى أن يفعل الرجال.

عاد لبيته فوجد فاطمة قلقة على غيابه والهواجس تكاد تذهب بعقلها، كان الأولاد قد ناموا وظلت هى مؤرقة تبكى أحيانا وتستمع للراديو أحيانا علها تسمع خبرا يطمئنها أو يخفف من قتامة الدنيا التى أظلمت فجأة، عندما رأته سألته:

- كنت فين يا عبد الله وإيه اللى أخرك كده؟
- كنت باسلم على الجماعة فى الهويس.
- ليه هما مهاجرين؟
- بكره من الفجر.
- واحنا هنعمل إيه يا عبد الله؟
- والله محتار يا فاطنة ومش عارف أفكر.
- طيب مانهاجر ع الزقازيق مع أبلة أنيسة والباشمهندس عزيز.
- خلينى أروح الشركة الصبح وأعرف هيعملوا معانا إيه وبعدين نفكر.

جافاهما النوم تلك الليلة وقبل أن تشرق الشمس سمعا خبطا على الباب، فتح عبد الله فوجد عمه عبد المطلب أمامه:

- صباح الخير يا عبد الله.
- صباح الخير يا عمى، إزيك وإزى أم محمد والولاد؟
- كلنا بخير يا ولدى، فكرت هنعمل إيه؟

- والله يا عمى أنا كنت رايح الشركة النهارده وبعدين كنت هاجيلك.
- أنا هاخد العيال وأروح على قنا، تعالوا معانا يا عبد الله.

جاءت فاطمة بعد أن غسلت وجهها وارتدت الروب على قميص النوم، سلمت على أبيها وجلست، قال عبد الله:

- الست أنيسة عايزانا نهاجر معاهم ع الشرقية.
- بلادنا أولى بينا يا ولدى، ليه نتبهدل ف بلاد الناس.
- وإحنا عندينا إيه ف بلادنا يا عمى؟
- عندينا أهلنا وناسنا هيتحملونا وعمرهم ما هيبصولنا بصة عفشة، مين عالم فى البلاد التانية هيعاملونا إزاى والا هيبصوا لحريمنا إزاى، إحنا صعايدة يا عبد الله وأشراف وإن شا الله ناكل عيش حاف بس كرامتنا تفضل محفوظة.
- عندك حق يا عمى بس أنا هاستنى شوية أطمن الشركة هتعمل إيه معانا.
- يبقى فاطنة والعيال ياجوا معانا وإنت لما تخلص مشاغلك تجيب عفشنا وعفشك وتحصلنا.

فكر عبد الله قليلا، كان قبوله باقتراح حماه يعنى اعترافه باكتمال الهزيمة أما سفرهم للزقازيق فكان يظنه حلا وسطا يستطيع معه أن يتحين أى فرصة للعودة دون أن يدرى متى وكيف، عندما وجد أن المصيبة أكبر من أن يتمادى فى خداع نفسه بتجاهلها، قال بصوت لن تنسى فاطمة نبرته ما حيت:

- تمام، على بركة الله.

أشاح عبد المطلب بنظره بعيدا عن وجه عبد الله حتى لا يرى دموعه التى بدت بوادرها ونظر لفاطمة قائلا:

- قومى يا بنيتى جهزى نفسك وعيالك لغاية ما اجيلك.
- حاضر يا بابا.

أيقظت أطفالها وحممتهم وألبستهم ثياب الخروج وجمعت ملابسها وملابسهم فى حقيبة سفر كبيرة أخرجتها من تحت السرير، إرتدت ملابس الخروج وجهزت الملاءة التى سترتديها فوق ملابسها وأعدت الإفطار للأطفال ثم ذهبت لتسلم على أبلة أنيسة وأبيه عزيز والولدين فوزية وأنور الذين كانوا هم أيضا يجهزون أنفسهم للرحيل وعادت من هناك والدموع تملأ عينيها، وجلست فى انتظار أبيها.

شعرت أن موافقتها السريعة على ترك عبد الله والهجرة مع أبيها بصحبة أطفالها تخالف ما كان يشغل تفكيرها وما انتوت على فعله منذ وقعت الواقعة، البقاء كأسرة واحدة بغض النظر عن مكان البقاء، لم تكن تتصور حياتها دون عبد الله وأحست بتأنيب الضمير أنها وافقت على بقائه وحيدا هنا حيث الخطر يحدق به من كل جانب، إكتشفت فى تلك اللحظات أنها تغيرت وأن أطفالها صارت لهم المكانة الأولى فى ترتيب مشاعرها وأولوياتها، كان فقدها لاثنين من أطفالها قد جعلها مرهفة الإحساس بالخطر عليهم بمناسبة وبدون مناسبة فما بالها بالحرب والدمار الذى يشعل المدينة من حولهم، تقدم خوفها عليهم ما عداه من مشاعر نحو عبد الله ونحو المدينة التى

شهدت طفولتها وقصة حبها وكل ما له قيمة فى حياتها، من معرفتها بشخصية عبد الله وطريقة تعامله مع الأمور كانت قد توصلت، فى تلك اللحظة التى فصلت بين طلب أبيها أن تجهز نفسها للسفر وبين موافقتها، إلى أنه لن يتخلى ببساطة عن فكرة البقاء فى السويس وأنه يتخذ من الاطمئنان على أحوال زملائه بالشركة حجة حتى لا يترك المدينة التى أحبها وصارت جزءا أساسيا من تكوينه وارتباطه بالحياة، وطريقة يرفض بها استسلامه للواقع حتى يفهم أبعاد ما حدث ولماذا حدث وأنه قطعا سوف يرفض السفر معهم أو بقاءهم معه وأنه لا فائدة من المقاومة، لذلك وجدت لسانها ينطق بما استوعبته وأدركته فى تلك اللحظة الكاشفة.

فى جلستها بانتظار مجئ والدها فكرت فى مستقبل حياتها وحياة أطفالها وفى المجهول الذى صارت على أعتابه، كانت تحب طريقة حياتها، تحب المدينة التى ولدت وعاشت فيها طفولتها ثم تزوجت وأحبت وصارت أما، وتحب بيتها وزياراتها لحماتها وسلايفها وأهلها، وتحب شعورها بالدفء والأمان فى جوار أبلة أنيسة، وتعودت على طريقة حياتها تلك التى تعبت حتى صنعتها وصارت لا تستطيع تخيل أنها سوف تبدأ من جديد البحث عن طريقة تناسب المكان الجديد والظروف الجديدة الذى ستجد نفسها فيها بعد ساعات وكان أكثر ما يشغلها هو خوفها على أطفالها من أن تضطر للتخلى عن أحلامها لهم فى أن يصيروا أناسا مهذبين ومتعلمين وأصحاب مراكز ومكانة بين الناس. أفاقت من سرحانها وهى تصب اللعنة على الحرب وما تفعله الحرب فى حياة الآمنين الذين لا ذنب لهم، نظرت إلى

زوجها من خلف الدموع الجامدة فى عينيها فرأت صورته الغائمة وانقبض قلبها إذ شعرت أن انكساره جعله ينأى بعيدا عنها، تمنت أن يأخذها فى حضنه علها تنسى فيه حزنها وقلقها ولكنها استدركت أنه هو أيضا يحتاج لمن يواسيه ويخفف عنه شعوره الفادح بالهزيمة فدعت الله أن يلقى فى قلبه السكينة والصبر حتى يتحمل شقاء أيامه ولياليه.

فى متاهته كان عبد الله يقلب الأمر فى رأسه وهو يتمنى أن يكون الأمر كله كابوسا سوف يفيق منه بعد قليل، تنبه من متاهته على صوت بوق سيارة يزعق تحت البيت، أطل من الشرفة فأيقن أن الكابوس حقيقة لا مفر من مواجهتها، كانت سيارتان تقفان فى الشارع، وكان حماه قد نزل من السيارة الأولى متجها لمدخل البيت تاركا فيها زوجته وأولاده هالة ومحمد وعباس وآمال والصغير حسان بينما رصت عدة حقائب مربوطة بالحبال فوق سقفها وكان بالسيارة الأخرى عزة وزوجها خليفة وولداهما.

فتحت فاطمة الباب لأبيها ثم اتجهت نحو عبد الله الذى كان يحاول مداراة الدموع فاحتضنته وأوصته على نفسه وأن يسرع باللحاق بهم، وضع عبد الله مبلغا من المال فى يدها لتتصرف به لحين لحاقه بهم، إحتضن أطفاله خالد ونهى وأمجد دون أن ينطق ثم سلم على حماه قائلا بصوت محتبس:

- مع السلامة يا عمى، سلم لى على أم محمد والعيال، ابعتلى جواب أول ما توصلوا وأنا بإذن الله مش هطول.

- خد يا عبد الله مفتاح بيتى، خللى بالك من نفسك وما تحملش نفسك فوق طاقتها يا ولدى، إن شاء الله كل حاجة هتبقى تمام.
- إن شاء الله، مع السلامة.

أطل من الشرفة، رفعت فاطمة عينيها نحوه ولوحت له قبل أن تركب السيارة بجوار أختها فلمحت قميصها الذى تركته على الحبل ونسيت أن تضعه فى الحقيبة يرفرف مع نسمات الهواء الخفيفة، إنطلقت السيارتان وغابتا عن عينيه فأطلق لدموعه العنان.

جلس فى الصالة تتناهى إلى سمعه جلبة السيارات والناس الذين يستعدون لترك المدينة، لم يستطع النهوض لارتداء ملابس الخروج والذهاب للشركة، فكر أن الوقت ربما يكون مبكرا للسؤال عن خطة الشركة حيال عامليها الذين اضطرتهم ظروف الحرب لترك العمل بالصحراء والهجرة إلى أماكن أخرى، فالوضع ملتبس والكل مصدوم، إستراح لهذه الفكرة التى بررت له البقاء فى البيت إذ لم يكن يرغب فى رؤية أحد وكان يود أن يكابد أحزانه ويتجرع آلامه وحيدا، نام فى مكانه بالصالة ولم يستيقظ إلا بفعل الجوع، كان يشعر بخوار قوته وكانت معدته تتألم فلم يكن قد تناول شيئا منذ يومين.

إرتدى ملابسه على عجل ونزل للشارع، كانت الشمس لاتزال عفية رغم أن الوقت عصر، توجه إلى مقهاه المفضل فوجده شبه خال، طلب من الجرسون أن يأتى له ببعض السندوتشات من مطعم قريب، أكل وشرب عدة أكواب من الشاى والقهوة ولم يستطع متابعة

التليفزيون الذى كان يبث أخبارا ومشاهد وأغنيات جعلته يتسم فى مرارة شاعرا بالامتعاض من كل شيء، عاد للبيت عبر الشوارع المظلمة التى لم ير فيها سوى أشباح أناس تهرول وسيارات تحمل قطع الأثاث البائسة، صارت الشوارع التى كان المشى فيها مبعثا لبهجة نفسه طرقا مقفرة تنعى له مصير المدينة وناسها وتناهت له أصوات الغربان التى كثفت المرارة فى نفسه، عرج فى طريقه على خمارة كان يعرف موقعها فتعجب لماذا لم تزل مفتوحة، كانت تلك أول مرة يدخل فيها خمارة، جلس على أحد المناضد وتطلع حوله فى أوجه الزبائن القليلين فرأى فى ملامحها معنى الضياع الذى يشعر به مجسدا، لم يطق المكوث فاشترى زجاجة "براندى" وبعض زجاجات البيرة ليشرب فى البيت عسى أن يلهيه السكر عن الضياع الذي ملك عليه نفسه وعن الوحدة التى لا يعلم متى تنتهى.

قضى عبد الله أياما لم يعرف عددها بين حالين، مستيقظا يشرب أو نائما نوما لا راحة فيه، لم يكن يغادر البيت إلا مضطرا ليحضر خمرا وطعاما وسجائر، وكما كانت الحياة تنسحب من مدينته ومن البيت الذى هجره كل سكانه عداه، كانت تنسحب أيضا من جسده شيئا فشيئا، فى غيبوبة السكر رأى حياته كأنها تنتمى لشخص آخر لا يمت له بصلة، كانت الهزيمة أقوى من طاقته على الاحتمال وكان الانكسار عصيا على الجبر، كان يناجى الله فى غمرة سكره لماذا لم تبقنى أميا جاهلا لا يعرف من العالم سوى حدود قريته المنفية؟ لماذا أذنت بأن أرى وأتعلم وأحلم وأصدق حلم الرجل الذى تبعته كالمسحور؟ لماذا شئت أن نتلقى تلك الهزيمة التى قلبت حياتنا

وأدخلتنا فى غربة جديدة وهجرة جديدة؟ ما ذنبنا وما ذنب أولادنا كى نتجرع مرارتها ونحن ليس لنا فيها ناقة أو جمل ولا نفهم حتى أسبابها؟ ثم يسائل نفسه مرة بعد مرة ماذا سأفعل وكيف أتدبر تكاليف حياتى وحياة من يتعلقون برقبتى بعد أن صرت عاطلا عن العمل؟ وماذا ستفعل معنا الشركة؟ هل تنقلنا جميعا إلى موقعها الجديد فى "أبو ماضى"؟ وهل يستوعب الموقع الجديد كل الناس وهل تقرر الشركة ذلك رغم أنه موقع لإنتاج الغاز الذى ليس لهم أية خبرة به؟، كانت تأخذه أفكاره المتداخلة حتى يغلبه إرهاق السكر والفكر فيغط فى نوم ثقيل لا يخلو من كوابيس تشبه الكابوس الذى يعيشه فى صحوه ثم يستيقظ مثقلا بالصداع فيبدأ الشرب من جديد.

لم ينقذه من تلك الحالة سوى محسوب.

استيقظ ذات يوم على خبطات ثقيلة على الباب، أفاق فلم يستطع تحديد الوقت إن كان نهارا أم ليلا، عندما فتح وهو يتساند على الباب بادره محسوب:

- إيه يا باشريس، خوفتنى عليك.
- مين؟ محسوب، إتفضل.
- إزيك يا عمى، أنا سألت عليك عم خليل البقال وهو اللى قاللى إن إنت لسه فى السويس وما هاجرتش.
- أيوه يا محسوب ساعات بعدى عليه اشترى طلبات، بكره هو كمان يمشى زى اللى سابوا البلد.

- الناس تعمل إيه بس، الحرب شغالة وولاد الكلب بيدكوا فينا، عندك شاي؟
- فى المطبخ جوه.

أعد محسوب الشاى الثقيل وجلس قبالته على السفرة، كان عبد الله يستعيد تركيزه مع كل رشفة وتذكر أنه خلال الأيام التى مرت منذ مساء يوم رحيل فاطمة والأولاد لم يشرب كوب شاى، بعد أن أنهى الكوب طلب من محسوب أن يصب له كوبا آخر، بعد أن أنهاه استأذن محسوب وذهب للحمام فاستحم وغير ملابسه وأحس بالانتعاش، سأل ضيفه:

- وإنت هتعمل إيه يا محسوب؟
- إنت عارف يا باشريس إنى ما ليش حد غير أمى، هاخدها على مصر لينا قرايب فى عابدين هنقعد عنديهم لغاية مانلاقى مطرح إيجار وأشبط فى أى شغلانة لحين ما ربنا يريد ونرجع شغلنا تانى.

بعد قليل قام محسوب ليسلم عليه فشده عبد الله واحتضنه بشدة فجرت دموع محسوب وهو يقول:

- عشان خاطرى يا باش ريس بلاش الشرب، إنت قيمتك أكبر من الحالة اللى شفتك فيها أول ما جيت.
- حاضر ياخوى، خللى بالك من نفسك، مع السلامة.

16

بهره نور الشمس فضيق عينيه ووضع يده على جبهته ريثما يعتاد على قوة النور الذى لم يكن قد طالعه منذ سفر فاطمة والأولاد، كان نزوله لشراء احتياجاته دائما بالليل، لم يكن يرغب فى أن يواجه القبح الذى خلفته الحرب على وجه المدينة تحت نور الشمس ويفضل أن يتسلل تحت ستار الظلام حتى لا تبدو عورة المدينة ماثلة بوضوح أمام ناظريه، لكنه اليوم اضطر أن يخرج بالنهار حتى يذهب لمقر الشركة الفرعى بالسويس الواقع على طريق الكورنيش مهد ميلاد مشاعر حبه الفياض نحو فاطمة، كان كل شيء يذكره بها وأحس بأن شوقه إليها وإلى أولاده وإلى أمه وإخوته يكاد يزهق روحه، وفاجئه الشعور الجارف بالقلق عليهم جميعا كأنه سكين يشق جوفه ويكاد يوقف أنفاسه، أشعل سيجارة ونفخ دخانها متبرما وهو يشير إلى الحنطور:

- عمارة عبود ع الكورنيش يا ولد العم.

توقف الحنطور وجلس عبد الله فى المقعد الخلفى، شعر بحاجته أن يتبادل الكلام مع أحد، سأل السائق:

- ولد العم منين؟
- أنا من أسيوط من مركز البدارى.
- وليه ما هاجرتش زى اللى هاجروا؟
- أهاجر فين يا ود عمى وهاعيش منين وأصرف على كوم اللحم اللى عندى منين.
- بس الشغل ما بقاش جايب همه ده الناس كلها سابت البلد.

- لا متهيألك، ناس كتير زى حالاتى مش عارفة تروح فين وأهم رايحين جايين على المحافظة على عشم يلاقولهم مكان فى الحتت اللى الناس بيروحوا لها.
- وما عارفش بيروحوا فين.
- مصر وبنها والزقازيق والمنصورة وفيه ناس راحت الفيوم وبنى سويف، بيقولوا عبد الناصر هيسكنهم فى المدارس وفى العمارات الجديدة اللى بيبنيها فى البلاد دى.

غمغم عبد الله معترفا بصحة رأى حميه عندما أشار بضرورة سفرهم للبلد فى قنا حتى لا يتعرضوا لما يتعرض له الناس من مذلة وقلة قيمة، فهم مهما كان سيحلون على عائلاتهم وأهاليهم وفيهم الأعمام الكبار الذين يفهمون فى الأصول وسيقدرون الشدة التى هم فيها فيساعدونهم ويسهلون لهم ترتيب حياتهم خاصة فى البداية.

عندما وصل لمقر الشركة وجد المكان هادئا هدوء الأماكن المهجورة، ظن أن جميع الموظفين الذين كانوا من قبل يملأون المكان صخبا قد هاجروا كما هاجر الكثير من أهل المدينة، لكنه عندما صعد الأدوار العليا سمع بعض الأصوات الخافتة فأدرك أن المقر ما زال يعمل، توجه إلى غرفة السويتش التى كان يعرف العاملين بها معرفة وثيقة وتربطه بهم علاقات ود قديم، كان أحدهم يتحدث فى التليفون ويكتب فى ورقة أمامه كأنه يتلقى رسالة من جهة ما، بينما الآخرون يجلسون واجمين وبعضهم يطالع الصحف، ألقى السلام فجاءه الرد محملا بجفاوة الاستقبال وبدت الدهشة على الوجوه، قال "عطية" الذى كان عبد الله يعرفه منذ كان يعمل بالسويتش فى أبو رديس:

- إزيك يا باشريس عبد الله، دا انا افتكرتك هاجرت مع الحاج محمد وبقية العيلة.
- لا يا عطية أنا مستنى لغاية ما اعرف الشركة هتعمل إيه معانا.
- والله اللى نعرفه إن الشركة مستنية قرار الحكومة ويمكن القرار يطلع فى ظرف أسبوع.
- ربنا يسهل، حد عدى عليكم اليومين اللى فاتوا؟
- مش كتير بس محدش من الأشراف، لكن كلهم من اللى مستنيين يلاقوا مكان يهاجروا عليه وبرضه عايزين يعرفوا وضعهم فى الظروف الجديدة.

إنتبه عبد الله فتأكد أن جميع الأشراف فكروا بنفس الطريقة التى فكر بها حماه وأمه وإخوته وأشفق على الذين لا يجدون مكانا ليتوجهوا إليه، طلب من عطية:

- إتصل بعلي توفيق شوفهولى فى مكتبه.

إتصل الرجل وأبلغه أن على توفيق ينتظره بالمكتب، سلم عبد الله عليهم بعد أن أبلغهم أنه سيمر عليهم ثانية لمعرفة الأخبار وتوجه لمكتب الأستاذ على توفيق موظف الخزنة المسئول عن تسليم مرتبات ومستحقات العاملين المقيمين بالسويس، كان على قريبه من بعيد والتحق بالشركة فى وقت قريب لإلتحاقه بها فجاء للسويس تاركا إخوته فى بيتهم بالمخادمة وأقام فى البراجيلى بجوار عائلات الأشراف بعد أن تزوج من إحدى قريباته، بادره عبد الله:

- إزيك يا على، يظهر ما بقاش غيرى وغيرك فى السويس.
- أهلا يا عبد الله، إفتكرتك هاجرت مع العيلة.
- أنا قاعد شوية لما نشوف الدنيا رايحة على فين.

قال له على أن الوضع صعب وأنه أجر شقة فى الوايلى فى مصر وسفر العيال إلى هناك وأنه سينقل للعمل بالإدارة فى مصر بعد أن تتضح الأمور وأنه سمع أن هناك تعليمات من عبد الناصر للحكومة بأن يحصل العاملون المهجرون على المرتب الأساسى، علق عبد الله:

- وده هيكفى إيه والا إيه بس.
- أهو يا ود عمى أحسن من مفيش، الحكومة برضه وضعها صعب وما فيش إنتاج.
- على رأيك، يظهر إن قدامنا أيام سودة.
- ربنا يقصرها يا عبد الله ويسترها مع عبيده.

طلب منه عبد الله كشفا بأسماء العاملين بالحقول المقيمين بالسويس من غير الأشراف ليمر عليهم ويطمئن على أحوالهم ويطلعهم على الأخبار إذا جد جديد، أجابه على أن يمر عليه بعد يومين حتى يجهز له الكشف المطلوب، ودعه عبد الله ونزل السلالم وهو يفكر كيف سيقضى تلك الأيام التى يملؤها الفراغ والقلق وانتظار المجهول.

لم يجد مكانا يمكن أن يتوجه إليه فمر على عم خليل البقال ليشترى مؤونة الأيام التالية، دعاه خليل للجلوس فى الممر المجاور للدكان مع بعض ضيوفه الذين كانوا يتحدثون عن الأهوال التى مروا بها أو سمعوا أن غيرهم من أهل المدينة واجهوها. سمع منهم أن كثيرا

من معارفهم وجيرانهم قرروا ترك المدينة دون أن يعرفوا إلى أين يذهبون، عندما تأكدت الهزيمة وصارت المدينة تحت مرمى النيران تملكهم الفزع فلم ينتظروا شيئا ورحلوا من فورهم دون أن يأخذوا شيئا من أغراضهم وأنهم قذفوا أنفسهم وأطفالهم فى السيارات التى كانت تحمل المسافرين وتركوا مصيرهم تحدده وجهة تلك السيارات فمنهم من كان نصيبه الاستقرار فى مصر ومنهم من استقر فى مدينة من مدن الوجه البحرى أو مدن الوجه القبلى القريبة من القاهرة مع غيرهم من أهل الإسماعيلية وبور سعيد حيث أقاموا فى المدارس أو فى المبانى الحكومية والمساكن التى كانت الحكومة تبنيها للناس فى الأحياء الجديدة على أطراف المدن والتى كان بعضها لم يزل تحت الإنشاء، كان كل ما يفكرون به أن يظلهم سقف وتحيطهم أربعة حوائط حتى لو اضطروا أن يقيموا مع عائلات أخرى فى نفس الفصل من المدرسة أو الغرفة من الشقة حيث تفصل كل أسرة عن غيرها ملاءة معلقة على حبل يقسم المساحة الصغيرة مع ما فى هذا الوضع من مهانة تذل أعناق الرجال حين ينكشف لحم زوجاتهم وبناتهم للعيون الشرهة لرجال العائلات الأخرى ورجال البلاد الغريبة التى وجدوا أنفسهم فيها دون مال أو عمل يسترهم ويرد عنهم ما تخبئه الأيام، كان الرجل يتكلم والآخرون يؤكدون ما يقول أو يضيفون إليه بعض التفاصيل المؤلمة عن الأوضاع المهينة التى يتعرض لها ما صار الناس ينادونهم "المهجرين"، غمغم عبد الله:

- ربنا يستر على بنات الناس.

سألهم كيف عرفوا بتلك الأوضاع فأخبروه أن هؤلاء المهجرين عندما وصلوا لتلك المناطق لم يكونوا يملكون مالا أو ملابس أو فرشا ينامون عليه فتركوا الأطفال والنساء والشيوخ فى البلاد وجاءوا يلملمون ما يستطيعون ويبيعون الأشياء التى لن يقدروا على حملها معهم حتى يتدبروا أمورهم، قال الشاب الذى كان يتكلم معظم الوقت:

- أنا قابلت كتير منهم وكلهم حصل معاهم نفس اللى حصل مع غيرهم، بهدلة وقلة قيمة وذل.
- طيب إنت ليه ما هاجرتش لحد دلوقتى؟
- أنا بَعتّ مراتى وابنى على البلد فى أبو كبير شرقية يعيشوا مع أمى واخواتى، لينا هناك بيت وأرض، ومستنى هنا أنضم للفدائيين أو المقاومة الشعبية، أنا اتجندت فى الجيش وحاربت فى اليمن وباعرف أضرب نار.
- والله راجل، ربنا يحميك.

تمنى عبد الله أن يكون فى مقدوره محاربة العدو الذى نغص عليهم حياتهم وألقاهم فى تلك الدوامة إذا فكر فى اقتحام المدينة وأن يبقى هنا صامدا ومدافعا عن أحلامه حتى تنزاح الغمة ويعود كل شيء كما كان، لكنه كان يعرف أن سنه الذى قارب الأربعين ومسئوليته عن أسرته يحولان دون ذلك إضافة لانعدام خبرته فى القتال واستخدام السلاح، وفى العمق من نفسه كان يشعر أن الوقت لا يزال مبكرا على الانتقام لأن الهزيمة لم تكن بسبب تفوق العدو فى القتال فالجيش المصرى لم تتسن له فرصة كى يقاتل ولكنه تعرض للغدر وإهمال القيادة لواجباتها فكان أن سلمته لقمة سائغة لجيش الصهاينة، كان

يحدس أن للهزيمة أسباب أعمق مما يظن الناس وأن الحقيقة لا بد أن تظهر عما قليل، تذكر لحظتها وجه عبد الناصر فابتسم فى مرارة، إستأذن من عم خليل وضيوفه ومضى.

مر بعد يومين على فرع الشركة حسب موعده مع الأستاذ على الذى سلمه كشفا بأسماء زملائه من المقيمين بالسويس وأمام كل اسم عنوان سكن صاحبه، عاد للبيت وشرع فى تقسيم الأسماء حسب عنوان السكن لكى يتمكن من تخصيص يوم لكل حى أو عدة أحياء متجاورة، كان يعرف السويس شبرا شبرا وله فى كل ركن قريب أو صديق، أكمل يومه كيفما اتفق ونوى أن يستيقظ مبكرا ليبدأ مهمته الأولى.

لم يكن الاطمئنان على زملائه بصفته واجب عليه كمسئول نقابى هو السبب الوحيد لرغبته فى أن يجوب شوارع وحوارى السويس متلمسا أخبارهم، ولكنه أراد أن يشبع منها قبل تركها ربما للأبد، أراد أن يلمس ماذا فعلت بها الحرب وأن يستمع للناس الباقين فيها عن توقعاتهم للمستقبل عسى أن يسمع ما يطمئنه ويشعره أنه يبالغ فى إحساسه بالضياع، كان يعود كل يوم فى المساء مرهقا من المشى بحثا عن العناوين المسجلة فى الأوراق ومشوشا من إجابات الناس القليلين الباقين من جيران زملائه عندما كان يسألهم عن مصير أحدهم، لم يحصل على معلومة مؤكدة وكانت المحصلة النهائية لجولاته أنهم كلهم تركوا المدينة إما لبلادهم الأصلية التى جاءوا منها أو للتجمعات التى بدأت الحكومة فى توفيرها للمهجرين من مدن القناة الثلاثة، عندما أتم البحث دون فائدة ورأى خلاله نظرات الناس التى يملؤها الانكسار

والألم أدرك أن الدائرة تضيق عليه وأن أيامه فى المدينة صارت معدودة فعاد إلى الخمر والهذيان.

كان حديث الرجال عن أوضاع المهجرين فى البلاد التى هاجروا إليها يتردد صداه فى جوفه ويأتيه فى منامه فيوقظه ملتاعا وغارقا فى عرق غزير بينما الصداع يكاد يشق رأسه نصفين، نام ذات ليلة تحت تأثير الشراب فرأى فى منامه امرأة كأنها زوجته فاطمة تلبس جلبابا خفيفا تمزق فى أكثر من موضع تمشى فى طريق مقفر تحيطه مخلفات البيوت المهدمة وأشلاء الجنود والرؤوس التى بدت أمخاخها المعجونة فى الدم، كانت فاطمة سادرة تدندن بصوت خافت أغنية حزينة غافلة عن النظرات الشرهة للرجال الذين تحلقوا حولها وشرعوا فى تمزيق جلبابها حتى نزعوه عن جسدها الأبيض البض وأخذت أيديهم تنتهك ثمارها الشهية المكشوفة فى عرض الطريق وهى تحاول محاولات يائسة أن تردهم عنها بينما يوغلون فى نهشها وهى تصرخ:

- إلحقنى يا عبد الله.

إنتفض من نومه الثقيل فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم شاعرا براحة عميقة أن ما رآه لم يكن سوى كابوس لعين، لكن خاطرا مؤلما قفز على صفحة إدراكه فخفف من شعوره بالراحة، فكر أن آخرين من أهل مدن القناة الذين صاروا يسمون المهجرين، والذين تفرقوا فى بلاد لا يعرفونها وليس لهم فيها عرق ولا نسب ولا عمل، سوف يعيشون هذا الكابوس فى قادم أيامهم وسوف يعرضهم الأراذل فى تلك البلاد الذين لا يخلو مكان منهم لما يتعرض له الغريب المحتاج من

مهانة واستباحة، أدرك ساعتها حكمة القرار الذى اتخذه الكثيرون ومنهم أقاربه وأهله من الأشراف بالهجرة لبلادهم التى جاءوا منها، لكنه سائل نفسه هل هى الحكمة أم الضرورة أم الحظ؟، لعن الحرب والسياسة التى لا يروح ضحيتهما سوى الفقراء والكادحين الذين لا حلم لهم سوى ستر البنات وتمهيد طريق الحياة للأبناء ليتمتعوا بمتعها البسيطة ويعيدوا دورة الحياة مع أبنائهم لعمارة الأرض كما يريد الله. لاح له وجه عبد الناصر فشعر بمزيج من النقمة والشفقة عليه غير أنه أجل حكمه النهائى لأيام الفراغ الطويلة القادمة لا ريب.

كان الوقت قبيل الفجر، وضع جسده تحت مياه الدش الباردة وخرج إلى المطبخ ليعد كوب شاى يعينه على استعادة وعيه، عندما سمع من بعيد آذان الفجر أخذ يبكى شاعرا أنه طوال حياته لم يكن فى حاجة لمناجاة الله قدر حاجته لذلك الآن، كان يشعر بالوهن والانكسار وذهب عنه ذلك الاعتداد بالنفس الذى جعل الناس الذين لا يعرفونه جيدا يأخذونه على محمل الغرور، قام فتوضأ وصلى الفجر بينما نشيجه يعلو ودموعه تنساب كأنها تريد أن تغسل حزنه وضياع حلمه وتهدهد قلقه على زوجته وأولاده وعائلته. أشعرته الصلاة بالراحة فهدأ بينما الشمس تعلو فى السماء لتبدأ صباحا جديدا من صباحات المدينة البائسة.

إرتدى ثياب الخروج قاصدا فرع الشركة للمرة الأخيرة، عند الباب وجد خطابا وضعه ساعى البريد تحت عقب الباب ولم ينتبه إليه عندما عاد الليلة الماضية، لمح على مظروفه خط حماه الدقيق المتعرج الذى يعرفه، جرت عيونه بلهفة على الخطوط الزرقاء باحثة عن اسم فاطمة

وأسماء أطفاله، تداخلت الخطوط فى نظره فأخذ نفسا عميقا وارتمى على أقرب كرسى ليقرأ متمهلا:

"ولدنا الغالى عبد الله، أدامه الله .. بعد التحية والأشواق والسؤال عن صحتكم الغالية نعرفكم يا ولدنا الغالى أننا بخير والحمد لله ولا ينقصنا إلا رؤياكم .. ونعرفكم أننا حاليا موجودون فى النحال بقنا خلف مسجد سيدى عبد الرحيم القناوى فى شقة إيجار طرف إبن عمى الصول عبد الحميد الذى نزلنا عليه عند قدومنا من السويس لحين تجهيز الشقة الخالية بالدور الثالث فى منزله العامر وأحوالنا على خير ما يرام .. زوجتك فاطمة والأولاد يهدونك السلام والأشواق ويقبلون يديك ويدعون لك بالسلامة من كل سوء .. ونعرفك يا عبد الله أن بالنا مشغول عليك من الأخبار التى نسمعها عن الذى يحصل عندك فى السويس ونرجو منك سرعة العودة حتى يجتمع الشمل ويطمئن البال .. يهديك السلام من طرفنا أم محمد والأولاد وعمك عبد الحميد الذى حضر فرحكم فى السويس .. فاطمة تبلغك أن أمجد يسأل عليك دائما وأنه أصبح لا ينام إلا إذا رأى صورتك وأنه مشتاق إليك كما يشتاق الزرع إلى الماء .. وتوصيك أن تحضر مع العفش مفرمة اللحم التى فى النملية حتى تعمل لك الكفتة التى تحبها .. عند حضورك طرفنا إسأل محل بقالة الأمانة الكائن

بجانب المسجد عن بيت الصول عبد الحميد ليدلك عليه .. وختاما ندعو الله أن يردك لنا سالما وأن لا تشغل بالك من ناحيتنا .. والسلام ختام .. وليس بيننا ختام ..

عمك عبد المطلب عاشور – النحال – قنا" .

تنهد بعد قراءة الخطاب وشعر بحنين جارف يكاد يكتم أنفاسه نحو حبيبته وأطفاله وابتسم لتلميحات فاطمة عن شوقها إليه والتى أملت كلماتها على والدها باسم أمجد، قرر أن ينتهى من كل شيء ليعود سريعا إليهم وليدبرها الله كيفما يشاء.

أبلغه على توفيق أنهم تسلموا إشارة من المقر الرئيسى بقرار منح العاملين المهجرين أجازة مفتوحة يحصلون خلالها على رواتبهم الأساسية لحين انقشاع الغمة والعودة لعملهم، سأله عبد الله:

- وإزاى هنقبض؟
- زى ما قلت لك قبل سابق، أنا منقول لمصر من أول الشهر الجاى وكل شهر هاطلع مأمورية لقنا وهاسلمكم مرتباتكم مطرح مانتوا قاعدين.
- طيب والناس اللى مش من قنا.
- الشركة نشرت إعلان فى الأهرام عشان يبعتوا لنا عناوينهم وإن شاء الله هنلاقى طريقة نوصل لهم فلوسهم كل شهر.
- على بركة الله، يعنى ضمنت أشوفك كل شهر.
- ربنا معاكم يا عبد الله، غمة وتنزاح يا ود عمى.

إحتضنه عبد الله دون مزيد من الكلام وخرج من المبنى متوجها لمقهى السائقين بجوار موقف سيارات الأجرة فى الأربعين، إتفق مع أحدهم على المشوار ومنحه العربون وورقة فيها عنوان بيته فى زرب، توجه لبيت حماه فوجد العفش مكوما فى الصالة والغرف، عاد لبيته حيث فك السرير الكبير وأسرة الأولاد والدولابين وكوم كل شيء بعد أن وضع ملابسه فى حقيبة كبيرة، بعد العصر جاء السائق والتباع ومعهما بعض الحمالين الذين رصوا العفش فى نصف صندوق السيارة وتوجهوا جميعا لأخذ العفش من بيت حميه فى البراجيلى. أخبره السائق أنهم سوف يأخذون طريق البحر الأحمر مرورًا بالعين السخنة والزعفرانة ورأس غارب والغردقة وصولا إلى سفاجا ومنها إلى الطريق الواصل إلى قنا.

مضت السيارة على الطريق الضيق، كانت الجبال على يمينهم والبحر على يسارهم وخلفهم السويس، مدينة الحلم التى تتحول الآن إلى ذكرى، تذكر عبد الله يوم جاء إليها محشورًا بجوار السائق فى سيارة العفش ولكنه منتش بالأمل العريض، وها هو يرحل عنها مهاجرًا أو مُهجرًا ومحشورًا أيضًا بجوار سائق آخر فى سيارة عفش أخرى بين حطام أحلامه وطريقه إلى الجنوب مرسوم كالقدر، محاصرًا، بين الجبال والبحر وخلفه الحرب والدمار وأمامه المجهول. سطع فى خياله وجه الشيخ خيرى وهو يلح عليه بالأسئلة عن أجداده الذين هاجروا من بلادهم إلى أرض جديدة فغرسوا أوتادهم فيها وعاش أحفادهم عليها مئات السنين، فأشعل فى قلبه الصغير جذوة حلم الهجرة، فكر أن الأجداد كانوا أكثر حظا من أحفادهم لأنهم لم يضطروا يوما للعودة

للأرض التى ضاقت عليهم بينما يعودون هم لأرض ليس لهم فيها سوى قبر وبعض ذكريات. تنبه على يد السائق ممدودة إليه بسيجارة، ردها شاكرا، كان حلقه مرا ولم تكن لديه رغبة فى التدخين، ضم ذراعيه إلى صدره ومد قدميه وسرعان ما أخذته سنة من النوم.

رأى فى إغفاءته القصيرة، وجه فاطمة تعلوه ابتسامة بها مسحة من عتاب، ومن خلفه لاحت صورة أمه مشرعة حبرتها السوداء فى هواء الجبانة وهى تروح وتجئ ملتاعة كأنها تبحث دون جدوى عن قبر أبيه وقد تشابهت عليها القبور التى سوتها السنون بالأرض.

المخادمة - قنا (1967 – 1975)

1

صاروا يؤرخون لوقائع أيامهم بتواريخ الأحداث التى غيرت مسار حياتهم وصارت حدا فاصلا بين ماكان وما صار، فإذا تذكروا حدثا كزواج فلان أو طلاق فلانة أو الانتقال لسكن جديد حددوا تاريخ وقوعه إما قبل العدوان أو بعد العدوان، يقصدون عدوان 1956، قبل الهجرة أو بعد الهجرة أو فى الهجرة، و"فى الهجرة" كانت تعنى أيام وجودهم فى بلادهم الأصلية بداية من رحلتهم المتعجلة حين تركوا السويس ويمموا شطر أرض الآباء والأجداد حيث بيوتهم التى هجروها وأهلهم الذين ودعوهم منذ سنين كى يلحقوا بفرص الحياة والرزق التى وعدهم بها البترول.

ذات يوم من أيام الهجرة، كانت فاطمة تعد الشاى لعبد الله بعد أن أيقظته من نوم القيلولة عندما نظرت مفزوعة إلى الراديو الموضوع على رف بالسقيفة، تنبهت أن شيئا غير معتاد يحدث، كانت "صوت العرب" قد أوقفت برامجها المعتادة وبعد فترة من الصمت بدأ صوت هادئ لم تعرف صاحبه يتلو شيئا كأنه بيان، تساءلت فى نفسها هل بدأت الحرب التى ظلوا ينتظرونها لأكثر من ثلاث سنوات، ركزت فى كلمات الصوت الهادئ:

"فقدت مصر اليوم رجلا من أغلى الرجال، رجلا من أشجع الرجال، وأوفى الر........"

دبت على صدرها وصرخت ثم انطلقت خارجة نحو الساحة أمام البيت فى طريقها لبيت زينب أبو زيد التى قابلتها باكية فى منتصف المسافة بين البيتين ولم تمض لحظات حتى تجمع عدد من الناس حول المرأتين متسائلين عما حدث، كان عبد الله قد خرج مسرعا من الحمام على صراخ زوجته واضعا فوطة فوق رأسه المبتل وسمع الخبر الصادم فى الراديو فخرج عبر الباب المفتوح وهو ينهنه كالأطفال، لم تحتمله قدماه فجلس مقرفصا مستندا على جدار البيت واضعا يديه فوق رأسه، رأته فاطمة من خلال الجمع المحتشد فى الساحة فهرولت إليه جزعة ومعها زينب، كان مذهولا رافعا نظره لنقطة فى الفراغ أمامه وبدا كأنه يحدث الزعيم الراحل لتوه:

- طب لما اتنحيت عرفنا نرجعك، دلوقيتى حنجيبك منين؟

كان ناصر هو الأمل أن ما كان سيعود، أنه هو الصعيدى الحر لن يرضى بالذل طويلا وأنه يعد العدة ليقلب الطاولة على رأس إسرائيل ومن وراء إسرائيل ويحرر سيناء وأرض فلسطين المحتلة وأنهم سيعودون ليستأنفوا عملهم وحياتهم كأن شيئا لم يحدث وستعود أيام الرغد وتعود السويس كما كانت بل وأحسن مما كانت.

يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى
أستشهد تحتك وتعيشى إنتى
واللّه بكرة يا عم أبو ربة
راح نضحك واحنا ماشيين سويا
ع المينا ولا عند الزيتية
وهتاخد بنتك وابنك ومراتك
ونعود على نفس المعدية

ونقول يا دنيا والله صدقتى

يا بيوت السويس

عندما كانوا يسمعون تلك الأغنية التى كتبها الشاعر "عبد الرحمن الأبنودى" بلدياتهم وغناها المطرب النوبى الشاب "محمد حمام" كانت دموعهم تترقرق وتتراءى لهم السويس بكل تفاصيلها كأنها الفردوس المفقود الذى يحلمون بالعودة له يوما ظلوا يستعجلونه ساعة وراء أخرى، لكن مصدر الأمل، الزعيم، الذى وعدهم بالثأر والعودة، غاب .. فاكتملت دائرة اليأس وأطبق عليهم شعور خانق بأن أمامهم مزيدا من سنوات التيه لا يعلم عددها إلا الله.

إرتدت النساء من العائلات المهجرة السواد حدادا على الزعيم الذى كن يشعرن بحنانه عليهن وعلى أسرهن كأنه أخ أكبر أو أب والذى أرجعن إليه الفضل فى منح أزواجهن رواتبهم الأساسية دون أن يعملوا رغم الأزمة التى تواجهها الحكومة من تأثير النكسة، تلك الجنيهات التى كانت مصدر الرزق الوحيد لمعظم الأسر المهجرة والتى مكنتهم -رغم قلتها- من الحياة بكرامة وسط الناس، سار أهل البلد جميعا خلف النعش الخالى فى الجنازة الرمزية التى أقيم مثلها فى طول البلاد وعرضها تزامنا مع جنازة الزعيم فى القاهرة، كانوا يهتفون خلف النعش "يا جمال يا حبيب .. بكره هندخل تل أبيب" و"الوداع يا جمال .. يا حبيب الملايين".

***

قبل تلك الأيام بأكثر من ثلاث سنوات، بدت مواكب السيارات التى تحمل المهجرين من السويس كأنها قوات غازية اقتحمت القرية الهادئة فملأت فضاءها بهدير المحركات وجلبة الأطفال وزعيق الرجال، أخذ الناس يتوقفون أثناء سيرهم أمام البيوت التى ظلت مغلقة طوال سنين وقد فتحت أبوابها لاستقبال المتاع المحمل فى صناديق سيارات النقل بينما أصحابها ينزلون من سيارات الأجرة تعلو وجوههم تعبيرات الدهشة والإحباط، خلال يومين أو ثلاثة ازدحمت البلد وراجت أحوال الدكاكين حتى كادت رفوف البضاعة فيها تخلو من أثقالها لكنها عادت لتمتلأ من جديد انتظارا للرزق الوافد مع المهاجرين، وشهد يوم السوق الأول منذ قدوم هؤلاء زحاما لم يشهده من قبل حتى فرغ البائعون والجزارون من بضاعتهم قبل الموعد المعتاد، وارتفعت الأسعار ارتفاعا ملحوظا فصار أهل البلد يتهمون المهجرين بأنهم "غلوا عليهم حتى المش".

يوم حلت آمنة مع قبيلتها أرض المخادمة، تذكرت يوم رحيلها منها مع أبنائها، كانوا وقتها ثمانية أفراد، أم وسبعة أطفال أكبرهم كان شنبه مايزال أخضر، أما الآن فقد صارت امرأة عجوزا قاربت الستين وربما تجاوزتها ولن تفوت سنوات قليلة حتى تصير حفيداتها أمهات، وصار أبناؤها رجالا "ملو هدومهم" وآباء لرجال ونساء صغار وابنتها امرأة صاحبة "ولد"، فكرت آمنة أنه إذا كانت لحظة الهجرة إلى السويس هى النعمة التى وهبها الله لعائلتها فإن لحظة الهجرة منها لا ينبغى أن تكون هى النقمة التى تصيبها. وجد الجميع أنفسهم فى قلب أزمة تضغط على أعصابهم، كانوا يرتابون فى المستقبل رغم ما

كانوا يرددونه بين بعضهم البعض فى جلساتهم، الرجال فى الديوان أو فى ساحة دكان عمير والنساء أمام البيوت أو فى أوقات انتظارهن لدورهن أمام "الحنفية"، من أنهم عائدون بعد شهور لن تطول، شعروا أن الحياة التى أغرتهم بالمتعة وحملتهم فى مقابلها حمل الأبوة والأمومة الثقيل أصبحت فجأة كأنها امتحان أو محنة، لم يعد أمامهم سوى محايلة الأيام، ليربوا الأولاد ويأمنوا الطعام لأفواههم المفتوحة، والانتظار لتغير الحال.

حرصت آمنة أن توأد أى بوادر لفتنة ربما تتسبب فيها كلمة غضب أو زفرة تأفف، أن تكون باترة كسيف وناعمة كحية، وأن تزن الأمور بميزان صارم حتى تمر الأوقات الصعبة وتظل عائلتها كما كانت دائما متماسكة مرفوعة الرأس بين الناس. عندما دخلت بيتها الذى شهد أيامها مع هاشم وشهد مولد جميع أبنائها استمدت من وجودها فيه قوة ظنت أنها فارقتها للأبد، وزعت الأدوار على أولادها وكناتها وأصدرت تعليماتها للجميع حتى صار البيت جاهزا ليرتاحوا ويتنفسوا دون رعب غير أن تأخر عبد الله فى المجئ كان ينغص عليها كلما وسوس لها الشيطان أن مكروها أصابه فتتمتم بدعائها إلى الله أن يهديه على نفسه.

بعد أقل من مرور شهرين على قدوم العائلة، اقتربت السيارة التى تحمل عبد الله مع العفش من محطتها الأخيرة فى قنا، حملته لفحة الهواء الساخن ورائحته إلى سنوات طفولته فتذكر كل التفاصيل كأنها حدثت بالأمس وغامت تفاصيل حياته فى السويس وأبو رديس كأنها ذكرى بعيدة يشك فى حدوثها، تذكر عبد الله ذلك الطفل المشاكس

الذى كانه فى تلك السنوات البعيدة والشوق الذى كان يستبد به للانفلات من حياته البائسة إلى رحابة العالم، لكنه الآن يعود دون أن يعرف كم من الوقت ينبغى عليه أن ينتظر حتى يعاود الانفلات من جديد، وداهمه خاطر مزعج أن مرحلة السويس لم تكن سوى حلم مر ولن يعود وأن عليه أن يرتب حياته دون إبطاء وأن يعرف إجابة السؤال الذى صار شغله الشاغل منذ أن وقعت الهزيمة، ماذا سيفعل وكيف سيواجه مسئوليته نحو أبنائه وزوجته، كوم اللحم المعلق برقبته.

كان الوقت ضحى، ركنت السيارة على جانب الطريق بجوار مسجد سيدى عبد الرحيم القناوى ونزل عبد الله ليبحث عن بقالة الأمانة ليسأل صاحبها عن بيت الصول عبد الحميد كما أخبره حماه فى خطابه، وصف له الرجل البيت، ترك السيارة بعد أن اتفق مع السائق أن ينتظره على مقهى قريب من مكان وقوف السيارة وسار على قدميه فى الدروب والحارات الضيقة الرطبة بحى النحال الواقع خلف المسجد حتى وجد البيت، نادى على حميه فأطل من بلكونة فى الدور الثانى وجه خالد الذى عرف صوت أبيه وعندما رآه صاح بفرح وهو يجرى نحو الباب:

- بابا جه يا ماما.

كانت فاطمة فى المطبخ، خفق قلبها من المفاجأة السارة وأسرعت للحمام لتضبط هيئتها وتغير جلبابها بآخر نظيف، عندما رأته خفق قلبها ثانية من التغير الذى بدا عليه، كان جسمه أكثر نحافة وظهرت على الوجه الذى اشتدت سمرته غضون جعلته يبدو أكبر من عمره

كثيرا، فى اللحظة التى خطت نحوه لتعانقه سرحت وتسائلت فى نفسها عما فعلته الأيام العصيبة بحبيبها، ارتمت فى حضنه بينما خالد ينظر نحوهما نظرة مستغربة خجولة. جاءت حماته وأولادها وجاءت نهى وأمجد ليسلموا عليه، احتضن أطفاله وأخذ يتشممهم فاستراح قلبه وشعر كأن روحه عادت إليه، بعد السلام قامت حماته لتعد له الإفطار والشاى فطلب منها الانتظار حتى يعود لسيارة العفش كي لا يعطلها فى العودة للسويس.

أنزلوا العفش ووضعوا ما يخص بيت حميه فى الشقة التى كانت شبه خالية من الأثاث بينما تركوا عفش فاطمة فى المدخل وأغلقوا باب البيت، سأل عن حميه فأخبروه أنه فى مشوار وأنه على وصول. عندما جاء إحتضنه عبد المطلب حضنا طويلا وأخذ يستطلع منه وهما يشربان الشاى عن أخبار السويس والناس وتطورات الحرب، رد عليه ردودا مقتضبة فشعر عبد المطلب أنه يزيد من ألم الرجل الذى كان يعرف مقدار حبه للسويس وحزنه على ما صارت إليه الأمور، قام من الصالة قائلا:

- قوم ياولدى خد لك حمام وادخل مع فاطمة استريح لحد ما يجهز الغدا.

دخلا الغرفة التى خصصت لفاطمة وأولادها فتحسر على أيام العز وأشفق عليها هى التى كانت واحدة من هوانم السويس أن تحيا فى غرفة كتلك، زفر فابتسمت له وقد فهمت ما يدور فى عقله وقلبه، قالت:

- مش مهم أي حاجة، المهم إنك رجعت بالسلامة، أنا كنت بموت كل ساعة من قلقى عليك.
- وأنا والله يا فاطنة بس كان لازم أستنى وأتأكد إنه مفيش فايدة.
- ليه بتقول كده؟، إن شاء الله تتعدل.

تركته يستريح من السفر المرهق وخرجت لتحمم أطفالها وتغير ملابسهم عسى أن يجعله ذلك يشعر بالتحسن قليلا، وحمدت الله أن الغداء اليوم مكون من اللحم والملوخية المفضلين لديه. فى المساء أخبرها أنه سيذهب للبلد غدا ليرى أمه وإخوته ويعرف كيف رتبوا أمورهم ويحاول أن يجد مكانا ينزلون عليه حتى يجدوا حلا، اقترحت فاطمة أن يبقوا فى قنا وأخبرته أنها ستطلب من أبيها أن يساعده ليجد شقة بإيجار بسيط، شرحت له أنها لم تجرب حياة القرى من قبل وأنها لن تستطيع التأقلم على الحياة فى المخادمة هى التى عاشت عمرها كله فى السويس وأنها تريد أن ينشأ أولادها فى المدينة حتى لا يتعرضوا لصدمة الاختلاف بين حياتهم فى السويس وحياة المخادمة وأنه ربما يجد عملا فى قنا بينما لا تعرف ماذا سيعمل فى المخادمة، تكلمت كثيرا لكنها لم تجد منه ردا سوى الصمت.

عاد إلى قنا بعد ثلاثة أيام فتوجه للمقهى القريب من بيت حميه والذى ترك فيه السائق يوم وصوله من السويس، سأل القهوجى فدله على مقهى آخر يتجمع فيه أصحاب سيارات النقل، وجد بينهم بعض السائقين من المخادمة، كانوا شبابا ولم يكن يعرفهم ولكنه بعد أن تبادل معهم الحديث عرف عائلاتهم التى كانت قد بقيت

بالمخادمة ولم تهاجر للسويس، أخبره أحدهم أنه يعرف أخاه عبد الرحيم ويعرف بيتهم بيت هاشم أبو زيد فاتفق معه على أن ينقل العفش وينزله عند البيت بالمخادمة.

فوجئت به فاطمة على الباب، طلب منها أن تجهز نفسها والأولاد ليسافروا بعد أن يطمئن على تحميل العفش، أراد أن يتخفف من بعض القطع التى لا تناسب وضعهم الجديد فقرر أن يأخذ الأشياء الضرورية ويترك غرفة الأولاد والغسالة والتليفزيون والبوتاجاز عند أهل زوجته حتى يجد فرصة للتفكير والتصرف، إستأذن حماه فوافق مرحبا قائلا له إن البيت بيته، نادى على محمد وأبو العباس وخالد ليساعدوه فى حمل تلك الأشياء حيث رصوها فى الغرفة التى كانت تقيم فيها فاطمة وأولادها منذ مجيئهم من السويس، رص السائق ومساعده بقية العفش فى صندوق السيارة وانطلقا بعد أن أعطى عبد الله للسائق المبلغ الذى اتفقا عليه.

كانت فاطمة قد ارتدت ملابس الخروج وفوقها الملاءة وألبست أطفالها وسلمت على أهلها، صعد عبد الله فسلم على أهل زوجته ووعدهم بالزيارة عندما تستقر أحوالهم بالمخادمة، توجه بهم لموقف سيارات الأجرة حيث استقلوا إحداها، كان السائق أيضا من شباب المخادمة ويعرف عبد الله من سيرته الطيبة التى سمعها من المهجرين فبدا عليه الحماس إذ أدرك أنه سينال أجرة سخية ربما تشجعه على البقاء بالبلد بقية النهار.

وصلت السيارة لمشارف البلد على الطريق الرئيسى، وفى الموضع التى وقفت فيه الحلزونة يوم سفر أخيه الكبير محمد للمرة الأولى للصحراء، لاح له وجه أبيه وهم صغار يتحلقون حوله بجلابيبهم الصغيرة وقد جاءوا لتوصيل المسافر، أدرك كم كبر وفاجئه حنين دافق لأبيه الراحل فتمتم بالفاتحة على روحه بينما ظلت فاطمة تنقل نظرها بين صغارها الملتصقين بها فى المقعد الخلفى وبين الطريق الذى تشقه السيارة فى القرية التى ستصير مستقرا لها لوقت لا تعرف مقداره بينما الخوف والقلق يملآن نفسها حتى يفيضا دموعا تنساب على خديها وهى تحاول جاهدة ألا يراها أحد.

2

بعد أن أدخل أبناء آمنة متاعهم القليل الذى أسعفهم الوقت فى جمعه على عجل للبيت، وبينما أطفالهم يجوبون المكان ليستكشفوا فرص اللهو، كانت النسوة الثلاث نصرة وغالية وزينب قد انتهين بإشراف آمنة من تنظيف البيت وتجهيز الأماكن التى اتفقوا أن تقيم فيها كل أسرة من العائلة، نصبوا غرفتى نوم نصرة وغالية فى الغرفتين اللتين بالدور العلوى وغرفة نوم زينب فى الغرفة التى كانت دكانا من قبل، ووضعوا بعض أسرة الجريد فى السقيفة والحاصل وفرشوا كل سرير بكليم مصنوع من قصاقيص القماش المتبقية (كليم الشرطان) لينام الأولاد فى السقيفة والبنات فى الحاصل وخصصوا سريرا فرشوه بالكليم الصوف لتنام عليه آمنة فى السقيفة كما طلبت رغم إلحاح كناتها

الصادق عليها أن تشارك أيا منهن فى غرفتها، كانت نعمة قد أقامت فترة قصيرة فى بيت أبيها إلى أن دبر محمود أمر إقامتهم فى شقة بالإيجار فى قنا وانتقل حسين وأسرته للإقامة فى بيت قديم يملكه خال كاملة لا يبعد كثيرا عن بيت هاشم أبو زيد، شعروا أخيرا بالارتياح، فمهما كان الحال هاهم آمنون فى بيوتهم وفى بلدهم وبين أهلهم وناسهم وقد أتى معهم كل من كانوا يعرفونه من الأشراف فى السويس سواء من المخادمة أو من قرى الأشراف الأخرى أما الناس الذين لم يتركوا البلاد فهم ناسهم لم تنقطع صلاتهم بهم رغم البعد والسنين بفضل المصاهرة والنسب بينهم أو انضمام بعض شباب البلاد لقوافل العاملين فى الشركة بوساطة من الكبار الذين صارت لهم المكانة التى تسمح بتسهيل التحاق أقاربهم بها.

بدت نصرة أقلهن توترا، كانت تتحرك فى عالم تعرف أسراره وطرائقه بعد أن اكتسبت خبرته فى سنوات صباها فى بيت أبيها وفترة بداية الزواج فى بيت حماتها، لم تكن السنوات التى قضتها فى السويس قد أنستها مهارات الحياة فى بيت عائلة ريفية، بدت تلك السنوات كأنها شيء لم يكن خاصة وأن حياتها فى المدينة لم تغير كثيرا فى عاداتها وطرق أدائها لواجباتها أو المعارف الذين شكلوا إطار علاقاتها بحياة المدينة وساعدتها طبيعتها الهادئة المتسامحة فى تجاوز أى بوادر لخلاف مع إخوة زوجها وأزواجهن، وكانت صداقتها لغالية وسنوات العشرة بينهما قد جعلا التفاهم بينهما كاملا دون حاجة لكلام أو "مناهدة" ما جعلهما يشكلان جبهة واحدة قوية تدفع الأمور فى اتجاه ما تريده آمنة وما يريده زوجاهما فصارت نصرة وبعدها غالية

أكبر معين لآمنة فى تجاوز "ضيق الحال" والأوقات العصيبة التى وجدت العائلة نفسها فى غمارها.

عندما ولدت نصرة ابنتها الأولى هدى فى السنة الأولى لوجودهم بالسويس، لاحظت شعور الإحباط الذى بدا على وجه آمنة وبدرجة أقل على وجه زوجها فاعتمدت على معرفتها بقدرها لدى الاثنين فى تجاهل الهاجس الذى أخذ يلح عليها، لم تبالغ فى إظهار فرحتها بمولودتها ولم تطلب إقامة "السبوع" لها غير أن آمنة قد فاجئتها وفاجئت الجميع باحتفال عفوى دق فيه الهون ورشت فيه السبع حبات كما جرت العادة، وعندما جاءت البطن الثانية بنتا أيضا لم تستطع الاستمرار فى التجاهل، بعد أن استردت عافيتها فاتحت محمد:

- معلاش يا خيي ما جبتلكش الواد اللى انت مستنيه.
- يا شيخة حرام عليكى ده كله بتاع ربنا.
- أمال مالك ما فرحانش ليه عاد؟
- ما فيش.
- على العموم المرة الجاية ربنا هيرزقنا بالولد بإذن الله.
- كله على الله.

كانت تحب زوجها وتكبر فيه تحمل مسئولية إخوته بعد وفاة أبيه حتى "وقفوا على حيلهم" وتتعجب أنه يشبهها فى صمته وصبره وتسامحه وقلة كلامه، حرصت على أن تحبل مرة ثالثة عسى أن يكرمها الله بالولد فكان لها ما تمنت، ولدته وأبوه فى الجبل وأصر عمه أن يسميه عبد الرحيم على اسمه وعندما عاد محمد اشترى خروفا كثير

اللحم ذبحه ابتهاجا بالذكر الأول من صلبه وأعاد ذلك بعد سنتين عندما رزقه الله بالذكر الثانى حمد، وها هي وقد حبلت بعد شهور من الهجرة للمخادمة تتمنى أن تأتى له بالولد الثالث. كانت تأتيها حكاياته فى الجبل وعرفت أن له شأنا كبيرا هناك وأن المهندسين والمديرين يحبونه ويحترمونه لأنه هادئ وعاقل وملتزم بواجبات عمله ولم يكن أبدا سببا أو طرفا فى مشكلة وكانوا يحفظون فضله لأنه أول من علمهم صنعة الحفر فى بداية عملهم بالشركة ولم يبخل عليهم بخبرته التى اكتسبها منذ كان صبيا عمره ستة عشر عاما ولا ينادونه إلا بعم محمد وعندما حج لبيت الله صاروا ينادونه بالحاج محمد، لكن ما كان يضايقها ويجعلها تشفق عليه هو أن الناس كانوا يلجأون إليه كلما حدثت مشكلة مع أحد إخوته، كان الناس يعاملونه بما يستحقه ككبير لبيت هاشم أبو زيد لكن طبيعته المسالمة ونضجه المبكر جعلاه لا يحب العراك ولا "الرط" مع الناس وكان يشكو لها أن إخوته لم يعودوا صغارا حتى يتحمل أخطاءهم ويجعلونه يبدو صغيرا أمام "اللى يسوى واللى ما يسواش". كان يأتيها آخر الليل ليحكى لها لكنها لم تتورط قط فى التعليق على تلك المسائل ولم تنبس بكلمة تسئ لأحد بل كانت توصيه بأن يرضى الناس وأن يتعامل بالسياسة واللين والشدة أحيانا مع إخوته دون أن يحط من شأنهم أو يهدر كرامتهم خاصة عبد الله الذى تتوقع أن يكون مصدرا للمشاكل رغم معرفتها بمعدنه الطيب منذ عرفته فى الأيام الأولى لزواجها وإشفاقها عليه وعلى فاطمة وأولادهما من طباعه السيئة وعناده وما زاد عليه من إدمانه على الخمر بعد الهجرة، وظلت تذكره وتحذره مما حدث فى السويس قبل

الهجرة عندما تعارك عبد الرحيم مع بعض الجيران و"قل أدبه" عليهم فصفعه الحاج أمامهم صفعة جعلت أذنه تصفر كما حكى وقتها وكيف قاطعه عبد الرحيم وحلف على امرأته بالطلاق أن تقاطعها هى أيضا حتى صالحهما أبو بكر وغالية عليهما بعد تمنع من عبد الرحيم دام شهورا.

بعد استقرارهم فى البيت مع آمنة وأبو بكر وغالية فى وضع لا يختلف عن وضعهم فى السويس، ودون أن يفاتحها فى شيء أدركت سر الهم الذى ارتسم على وجهه وعلى وجوه كل الرجال المهجرين، قلة الرزق وضيق الحال، كانت أحوالهم ميسرة هناك ورواتبهم من الشركة تكفيهم ليحيوا حياة مريحة دون بذخ وتفيض أيضا بما يسمح بالادخار لشراء أرض هنا أو بيت هناك وتجهيز البنات منذ صغرهن انتظارا "للعدل" والحج كما فعل زوجها وغيره من الأشراف، هبطت عليهم تلك الكارثة ليصير مجرد تدبير مصاريف الأكل مشكلة كبيرة أخذوا يتغلبون عليها بالاكتفاء بالأصناف الرخيصة والأكل "القارف" الذى كانت آمنة خبيرة به منذ أيام الفقر بعد وفاة هاشم.

تحدثت مع غالية التى أخبرتها أن أبو بكر يحاول إقناع الحاج بمشاركته فى تربية الغنم فى حوش البيت وبيعها للتجار والجزارين، كان محمد خبيرا بالغنم منذ كان يساعد أباه فى تلك الأيام البعيدة لكنه تردد فى الموافقة على فكرة أخيه الأصغر واعتبرها مخاطرة فى وقت لا يحتمل المخاطرة، لكن إلحاح أبو بكر وحيرة محمد فى الوصول لحل مناسب جعلاه يوافق مضطرا وهو قلق ألا تسير الأحوال كما يتمنون.

حاولت غالية إقناع زوجها أن يعملا فى الجزارة لكنه لم يقتنع، قال لها أن الوقت الذى عاشه مع أبيه لم يمهله ليتعلم كل أسرار المهنة ومهاراتها وأن أخاه محمد تركها منذ سنوات طويلة ولا يعتقد أنه سيجيدها الآن، لكن السبب الأهم لرفضه والذى لم يبح به لغالية كان هو يقينه أن عبد الله سيعمل جزارا عندما يعود ويواجه ما يواجهونه، كان يعلم أن أخاه جزار بالفطرة وأن مهنة أبيهم تناديه هو دون غيره وساعتها سوف يتنافسان معه منافسة لا يرغب فيها ويعلم مقدما أنها لن تكون فى صالحهما.

عندما حكت لها غالية ما دار بينها وبين أبو بكر ، أبدت نصرة دهشتها من جرأة سلفتها على الخوض مع زوجها فيما كانت تعتبره من أمور الرجال التى لا ينبغى أن يكون "للحريم" رأى فيها، خاصة أن أبو بكر يبدو قويا ومهابا بفعل بنيته القوية وطوله الفارع ونظرته المباشرة فى عين من يحدثه وطريقته الحاسمة فى الحديث، فى بداية زواجهما كانت غالية تتحسب من أن تبدى رأيا فى شيءون حياتهما تاركة له الأمر برمته بعد أن شعرت بشيء من الجفاء لم تدر سببه فى تعامله معها، عندما جاء مع أمه وأخيه الكبير ليخطبها من أخيها لم تكن قد رأته منذ فرح فاطمة وفاجئها أنه أطول مما تظن وأن بنيته العريضة قد امتلأت قليلا واكتشفت عيونه الواسعة وبياض بشرته مقارنة ببقية إخوته الذين جاءوا معه، شعرت بالانجذاب إليه وتمنت - وهي واثقة من موافقة أخيها- ألا يحدث شيء يمنع إتمام الخطبة والزواج، طمأنها ساعتها أن أمه صاحبة السيرة الحسنة هى قريبتهم وأن عائلته تحظى بالاحترام خاصة بعد عملهم فى البترول وتيسر أحوالهم

والسمعة الطيبة التى اكتسبوها من جديتهم واهتمامهم بأكل عيشهم كما سمعت من أخيها وما كانت تردده النساء فى جلسات النميمة التى تأتيها همساتها فى المناسبات التى تحضرها من وقت لآخر وما تأكدت منه بنفسها فى زياراتها القليلة لبيتهم فى الهويس وحضورها لفرح أخيه عبد الله، كانت آمنة قد حكت لها وقتها قصة خطوبة عبد الله وفاطمة وأخبرتها أنها هى التى تختار "حريم ولدها" لكن فاطمة هى اختيار عبد الله وليست اختيارها هى وأنها لن تسمح بذلك فيما بعد، ثم أشارت لها على أبو بكر قائلة:

- إيه قولك فى الجدع الطويل ده اللى واقف هناك؟

إبتسمت غالية بخجل ولم ترد فضحكت المرأة الكبيرة وقبلتها فى خدها، أسعدها تلميح آمنة وتمنت أن تكون قد لفتت انتباهه وأن يختارها هو لا أمه، لكنها منذ تلك اللحظة اعتبرت نفسها خطيبة له ولم تبح بسرها لأحد حتى جاءوا ليخطبوها. تزوجته وجاهدت أن ترضيه وترضى حماتها لكنها أحست بأنه ينفر منها وأنه يحاول مداراة نفوره، ظنت أن إنجابها لهاشم ولدها البكرى سوف يزيل الجفاء الذى يبديه تجاهها لكن ظنها خاب، رغم فرحته وفرحة آمنة بالوليد الذى أسموه باسم جده والذى عوض العائلة عن فقد سميح أول الأحفاد الذكور فى سلسال هاشم أبو زيد ورغم اهتمامه بها ومحاولته إظهار الحنان عليها، إلا أنها أحست بما لا تحسه سوى امرأة تحب، أن امرأة أخرى دخلت حياته وصارت تشغل تفكيره فأبعدته عنها رغم نومهما فى سرير واحد، لم تبح لأحد بشكوكها لكنها عرفت أن حماتها تعرف وقد أخبرتها بتفاصيل الأمر بعد أن انتهى، كانت آمنة قد هددته بترك

البيت والسفر للمخادمة لتقيم هناك بمفردها فى بيتها القديم، كان ذلك الرعب بعينه بالنسبة إليه، لم يكن يطيق إغضاب أمه معتبرا وجودها معه فى بيت واحد سببا للبركة والنعمة التى أنعم الله عليه بها، عاد إليها ولكن عودته كانت لأسباب لا تتعلق بها هى ولا بمشاعره نحوها لكنها قبلت عودته وفرحت بها ولم تسمعه يوما كلمة لوم أو نظرت إليه نظرة عتاب وحرصت طوال الوقت أن يظل معتقدا أنها لا تعلم شيئا من أمر المرأة "الفلاحة" التى أغوته وكان على وشك التقدم لها، كان لطريقتها فى التعامل مع جرحها مفعول السحر فى شفائها منه، فقد غمرته بالحنان والاهتمام والود وفتحت له طريقا لم يجد بدا من السير فيه فإذا بها تشعر بحبه وينسحب من نفسها شيئا فشيئا ذلك الإحساس المهين بالجفاء والنفور حتى أقبل عليها إقبالا خالصا وصار يحدثها فى كل شئونه ويستطلع رأيها فى أموره تلك التى تسميها نصرة "شئون الرجال" فولدت له الذكور واحدا تلو الآخر حتى تمنت أن تلد له بنتا عندما أحست برغبته فى أن يكون أبا لبنت لكن الله لم يشأ.

فى الأيام الأولى للهجرة شعرت بحيرته التى كانت حيرة كل الرجال المهجرين الذين تحولوا منذ سنوات لعمال محترمين فى الشركة يسكنون المدينة ويرتدون ملابس الأفندية ويسبهرون فى أرقى الأماكن ويغدقون على أهلهم بما أنعم الله به عليهم فإذا بهم فى لحظة يعودون إلى بلادهم المجدبة يرتدون الجلابيب ويتحايلون على الرزق بكل الطرق حتى أن زوجها يضطر أن يصير تاجر أغنام على باب الله.

3

تنفست فاطمة بارتياح للمرة الأولى منذ قدمت لهذا البلد، كانت قد انتهت من ترتيب قطع الأثاث فى غرف البيت الذى سيستقرون فيه، كان البيت ملكا لأحد أقارب عبد الله وكان قديما وخاليا ويقع فى ناحية الشرق التى كان الناس يسمونها "شرقة"، ظن عبد الله أن إقامتهم فى المخادمة لن تطول وأنهم عائدون عما قريب للسويس لذلك لم ينزعج كثيرا من عدم قدرته على بناء بيت يخصهم، كان يتابع أخبار الزعيم ويعلم أنه يعيد ترتيب الجيش للمعركة وأن الجيش نجح فى تنفيذ بعض العمليات الخاطفة خلف خطوط العدو كما كان يقرأ فى الأهرام التى كانت تأتيه بشكل غير منتظم مع السائقين العاملين بين المخادمة وقنا وقد صار معظمهم أصدقاء له من كثرة مشاويره لقنا، أجرى عبد الله على البيت بعض الترميمات واهتم أن يسد الشقوق التى يختبئ فيها "الدبيب" (العقارب وما شابهها) ودهنه بالجير من الداخل وقامت فاطمة بتنظيفه وتسعيف أسقفه حتى صار صالحا للسكن، اشترت فاطمة من السوق زيرا وعددا من العلاوى وسريرين مصنوعين من جريد النخل وماجورا للعجين، بعد الفرش صار البيت عجيبا فالحوائط من الطين اللبن والماء يخزن فى الزير الذى تملأه فاطمة بالعلاوى التى تملأها من الحنفية العمومية والبيت ريفى الطابع كباقى بيوت البلد لكن غرفه كانت مفروشة بأطقم السفرة والصالون والسجاجيد التى تتجلى فيها ملامح حياة المدينة وقد أصرت فاطمة على تسمية الأماكن بأسمائها التى تعرفها فالمساحة

داخل الباب هى الصالة وليست السقيفة والغرفة هى "الأوضة" وليست المندرة كما يطلق عليها أهل البلد، لم تسترح فاطمة لمنظر أثاثها المدينى وهو ملقى بين حوائط الطين وسجاجيدها الصوف الفاخرة وقد فرشت فوق الأرض الطينية لكنها وجدت فى ذلك فائدة أن يظل يذكرها ويذكر أبناءها أنهم أبناء المدينة وأن وجودهم هنا مؤقت وأنهم سيعودون ذات يوم لمدينتهم ولشقتهم وحياتهم الراقية كما كان عبد الله يكرر عليها دائما وتتمنى أن تصدقه.

حكى لها عبد الله أنه عندما تركها عند أهلها وجاء للبلد دخل البيت وارتمى فى حضن أمه كأنه طفل تائه وجدها بعد أن ظن أنه فقدها للأبد، شعر أن المسافة بين ذراعيها المضمومتين عليه أرحب من العالم الواسع الذى ضاق عليه، بعد أن سلم على الجميع جلس فى السقيفة مع أمه وأخويه محمد وأبو بكر، تكلم محمد فأخبره أنهم اتفقوا أن يقيم هو وأبو بكر وعبد الرحيم ومعهم آمنة فى البيت القديم وأن يتنازل باقى الأخوة عن حقهم فى بيت أبيهم مقابل مبلغ خمسين جنيها لكل منهم ليرتبوا أمورهم وأن محمود وحسين قد تسلما نصيبيهما. علم منهم أن محمود قرر الإقامة فى قنا فى شقة بالإيجار أما حسين فقد أقام فى بيت قديم يملكه خال لزوجته، استأذن الحاج محمد وصعد إلى غرفته ليحضر المبلغ المستحق لعبد الله، وضع عبد الله المبلغ فى جيبه وأراد أن ينصرف ليسلم على أخته خديجة التى استقرت فى بيت أهل زوجها بعزبة قديس وعمه أحمد الذى لم يره منذ هاجروا للسويس وبقية أقاربه لكن آمنة استبقته لتكلمه على انفراد فقرر أن يقوم بتلك المشاوير والسلامات الواجبة غدا، قالت:

- فاطمة والعيال عاملين كيا؟
- زنين يا مه الحمد لله، أنا يادوب بيّت معاهم ليلة وجيت على هنا.
- معلاش يا ولدى بكره تتلموا وتشبع منهم.
- فين بس يا مه؟ المبلغ اللى خدته ما يكفيش حاجة.
- عارفة يا عبد الله بس انت خابر الظروف، خياتك ممعهمش فضار (فائض)، والله ما عارفين هنعيش كيا، القرشين اللى كانوا محوشينهم قربوا يخلصوا والعيال ما بتبطلش طلبات.
- آه يا مه ما تقلبيش على المواجع، أنا عشت حياتى بالطول والعرض وعمرى ما عملت حساب أيام زى الأيام السودة دى.
- ياما دقت ع الراس طبول يا وليدى، ربنا يفك الضيقة يا حبيبى عن قريب.

ابتسمت بأسى وعندما استطلعت نظرته سبب ابتسامها أخبرته أن أخاه "الفقرى" محمود أصر أن يكون نصيبه خمسة وسبعين جنيها بدلا من خمسين وأنه جادل الحاج محمد وأبو بكر كثيرا حتى وافقا مكرهين وأنه قبض المبلغ ووضعه فى جيبه لكنه سرق منه فى قنا. قال:

- يادى الحظ، هازوره لما أرجع قنا، بس مش عارف أجيب العيال على فين.
- الحاج "عوض عوادة" عنده بيت قديم روح له يمكن يوافق يديهولك تقعد فيه لغاية ما ربنا يفرجها.

كان الحاج عوض قريبا لهم من بعيد، مزارعا وكل خلفته من البنات اللاتى تزوجن ويقمن مع أزواجهن فى البحر الأحمر، وكان بيته القديم بعيدا عن أرضه فبنى بيتا جديدا قريبا منها لأن صحته لم تعد تحتمل المشوار، ذهب إليه عبد الله ليفاتحه فى الأمر، قال له الرجل أن أباه هاشم كان صديقا له وصاحب أفضال عليه وأنه لا يتأخر عن مساعدة ولد من أولاد المرحوم الغالى، شعر أن الرجل لم يفاجئ بطلبه فخمن أن أمه كانت قد فاتحته فى الأمر وأنها لم تخبره حفاظا على كرامته فقد كانت تعرف فى ولدها الرجل الذى لا يرضى أن تدبر له أموره امرأة حتى لو كانت أمه.

بعد أن استراح بال عبد الله ووجد سقفا يظله مع أسرته، كان عليه أن يفكر فى عمل حتى يستطيع توفير احتياجاته واحتياجات بيته وأولاده فجنيهات الراتب القليلة لن تكفى مهما حاولوا أن يتنازلوا عن بعض ما تعودوا عليه فى حياتهم السابقة. كانت الفكرة قد واتته وهو فى طريق هجرته من السويس لقنا، فكر فى الأشياء التى يتقنها غير صنعته فى البترول فلم يجد سوى الجزارة لكنه أجل حسم الأمر حتى ينتهى من المشكلة الكبرى التى تكفل الحاج عوض بحلها، عندما أعاد التفكير فى الأمر وجد نفسه مترددا، طرح الفكرة على فاطمة فشجعته رغم قلقها ألا تسير الأمور كما يتمنى، كانت واثقة من مهارته وحماسه لكن ما أقلقها أنه لا يعرف واقع هذه البلدة التى تركها منذ ما يقرب من عشرين عاما فخشيت عليه من إحباط جديد إذا فشلت تجربته فى الجزارة وهو لم يستفق بعد من صدمة ما حدث، لم تكن قد نسيت منظره عندما رأته فوق سطح بيت الهويس وهو يذبح ويسلخ ويقطع

كأنه جزار محترف، كانت المشكلة فى السيولة المطلوبة ليشترى البهائم والعدة التى يبدأ بها العمل خاصة أن تجار الغنم لم يكونوا يعرفونه ولن يرضى أحد منهم أن يتعامل معه بالأجل. عرضت عليه أن تبيع "حتتين الصيغة" التى تحتفظ بها من أيام العز فرفض:

- خليهم لوقت عوزة أشد، أنا هاتصرف.

تذكر عبد الله الأشياء التى تركها فى بيت حماه وتأكد أنهم ليسوا بحاجة لها، فلا كهرباء لتشغيل التليفزيون والغسالة ولا غاز لتشغيل البوتاجاز ولا مكان أو ضرورة لغرفة الأولاد، قرر أن يبيعها ويبدأ مشروعه بثمنها وبما تبقى من الخمسين جنيها التى أعطاها له أخوه محمد، ذهب إلى محمود فى قنا ليسلم عليه ولكى يساعده فى البحث عن مشتر، سألا ووجدا من يشترى، كان تاجرا له محل فى شارع "الجميل" ذهب معه لبيت حماه ليعاين البضاعة فلما أعجبته أخذ يساوم حتى تم الاتفاق وقبض عبد الله النقود فاشترى عدة سواطير وسكاكين وميزان وقرمة ولفات من الورق السميك وجاء بهم فى نهاية اليوم للمخادمة، ذهب يوم الأحد التالى للبطاطخة فاشترى خروفا وتعرف على تجار الغنم واستراح لأحدهم وقد علم منه أنه من الشويخات ووصف له مكان الحوش الذى يربى فيه بهائمه وعندما حكى لأمه بعد ذلك أكدت له أنه ابن التاجر الذى كان أبوه يتعامل معه وحكت له كيف رآها هاشم للمرة الأولى عند جدار ذلك الحوش القريب من بيتهم هناك وقرر أن يخطبها بعد أن تعرف على أبيها وكان يبادله الحديث فى جلسات الشاى، بعدها توطدت الصداقة بين

عبد الله والتاجر بعد أن حكى له عبد الله ما سمعه من أمه عن صداقة والديهما فى الزمان القديم فصار بينهما ما كان بين المرحومين.

عندما شاهد الناس عبد الله ناصبا فرشته فى نفس مكان أبيه عند دكان عباس وعاينوا مهارته ونظافته وذاقوا طعم اللحم من يديه تذكروا هاشم وترحموا عليه وعلى أيامه وقد بدا كأنه بعث حيا فى صورة ولده، أخذت شهرة عبد الله تنتشر فى البلد حتى صار بعد شهور قليلة أشهر جزار وصاحب أطيب لحم فيها كما عرف أبوه من قبل وعاد مشهد التفاف الناس حول الفرشة فى الصباح الباكر يوم السبت من كل أسبوع يوم السوق ليصير مشهدا معتادا كما كان منذ أكثر من عشرين عاما.

إعتبرت فاطمة أن مهنة زوجها الجديدة هى مجرد تغيير حتمته الضرورة وقررت أن تظل فى تصرفاتها وفى طريقة تربيتها لأولادها وأحلامها فيهم وتصريفها لشئون بيتها هى زوجة الباش ريس عبد الله، الرجل الأنيق الوسيم، عضو النقابة وصديق المهندسين والمديرين الذى كان ذكاؤه ومهارته وخبرته فى العمل مضرب المثل ومثارا للإعجاب والذى عاشت فى بيته هناك فى السويس كأنها هانم من بنات الذوات.

كان هذا جزءا من خطتها فى تربية أولادها أما بقية الخطة فقد كانت أن تغرس فيهم أهمية التعليم الذى سيحدد طريقهم فى الحياة وأن يظلوا شاعرين بأنهم أبناء المدينة دون تعال على أهلهم هنا، لكنهم ذهبوا -دون أن تستطيع منعهم رغم محاولاتها المضنية- فى طريق أسطورتهم الخاصة، صاروا أبناء القرية يمارسون طقوسها الممتدة

عبر الأجيال ويتحدثون بلهجة أهلها الصعايدة ويتصرفون مثلهم، لكن محاولاتها نجحت رغم ذلك أن يظلوا شاعرين بالتميز ومن ثم الفخر الذى كانوا يدركون أن أمهم هى صانعته وبذلك حافظت على اجتذابهم إلى عالمها قدر الإمكان. كان أولاد البلد وبناتها يرتدون جلابيب تشبه تلك التى يرتديها آباؤهم وأمهاتهم لكنها حرصت أن تشترى من قنا أقمشة ذات نقوش وألوان تفصلها لأبنائها بيجامات وفساتين بيتية بالماكينة "سنجر" التى تدار باليد والتى أوصت عبد الله أن يشتريها لها فى إحدى مشاويره المتكررة لقنا، وتحرص أن تحممهم دائما حتى لا تفوح رائحة العرق الذى ينضح من أجسادهم بفعل اللعب فى الشمس اللاهبة خاصة فى الصيف، وفى بداية كل عام دراسى كانت تؤكد على أبيهم أن يشترى لكل منهم حقيبة جلدية ليحملوا فيها كتبهم وأدواتهم بدلا من الحقيبة القماش التى يحملها الأولاد والبنات المصنوعة من نفس قماش الزى المدرسى "تيل نادية".

كانت دائما تأمرهم باحترام الكبار والتحدث معهم بأدب والاستئذان عند كل تصرف يقومون به وتنهرهم إذا نطقوا بكلمة نابية كالتى تسمعها من أندادهم من أولاد القرية حتى صاروا مضرب المثل فى المخادمة يشيد بهم الناس أينما ذهبوا خاصة بعد أن أظهروا نبوغا فى الدراسة وذاعت شهرتهم بين المعلمين وصاروا نجوما صغيرة فى مجتمع القرية الصغير، وعندما شعرت بأن انطلاقهم الجامح خلف اللهو واكتشاف تفاصيل الحياة فى القرية ربما يفتح عيونهم ووعيهم على نحو لا يرضى طموحها فيهم قررت أن تقرأ وتتعلم معهم حتى تستطيع الإجابة عن الأسئلة التى يفاجئونها ولكى تحميهم من شطحات

الخرافات التي تسربت إليهم شيئا فشيئا. طلبت من عبد الله أن يأتيها بالمجلات والكتب من قنا وكانت تداوم على قراءة الأهرام فى أوقات فراغها من أعبائها بعد أن يكومها عبد الله فوق رف الراديو فى السقيفة وتحرص على قراءة مجلة "الكواكب" لتعرف أخبار فنانيها المفضلين وآخر صيحات الموضة من صور الممثلات اللاتى كانت تقلدهن فى حياتها الناعمة هناك فى السويس، عرفت أسماء جورجى زيدان وعلى أحمد باكثير وعبد الحميد جودة السحار ومحمود يتمور ونجيب محفوظ وعبد الحليم عبد الله ويوسف السباعى ويوسف إدريس وغيرهم لكنها لم تجرؤ على أن تطلب كتب إحسان عبد القدوس خوفا من أن يكون عبد الله قد سمع عما فى قصصه من أفكار عن حرية المرأة ودعوات للتخلص من العادات والتقاليد فيظن زوجها بها الظنون.

لكن التحدى الأكبر الذى واجهته كان أن تعتاد على حياة القرية هى التى عاشت طوال حياتها فى المدينة، وأن تلبى متطلبات أسرتها بالطريقة المتاحة هنا والتى لم يكن لديها خبرة بها بعد أن تعلمت كل شيء على يدى أمها ويدى أبلة أنيسة بطريقة أهل المدن، لم يكن هناك فى البيوت ماء ولا كهرباء ولا مجارى ولم يكن فى البلد فرن تشترى منه الخبز ولم يكن فى الدكاكين القليلة بالبلد تلك الأصناف التى تعودت على شرائها للإفطار والعشاء ولم يكن مصروف بيتها كالذى كانه أيام الرغد هناك فى السويس، كان عليها أن تبدأ تعلم مهارات "ست البيت" من جديد فى ظروف جديدة عليها فلم يكن أمامها سوى حماتها وسلايفها خاصة نصرة وغالية كى تلجأ إليهن وتتعلم منهن وقد منحها وجود عبد الله خارج البيت معظم الوقت

وانغماسه فى جولاته للعمل أو اللهو فرصة لتكرار الزيارة لبيت هاشم أبو زيد لتحصل على دروسها وتتسلى عن فكرة إهماله لها وغربته عنها واستسلامه التام لليأس والإحباط الذى قاده للإفراط فى الشراب حتى صار رجلا آخر لا يشبه ذلك الرجل المحب الحنون الذى كان يملأ عليها حياتها هناك فى السويس.

علمتها نصرة وغالية الخبيز، كانت قد شاهدت سلايفها وهن يخبزن على سطح بيت السويس لكنها لم تكن قد خبزت بيديها، ذات مساء أرسلت لها نصرة أحد الأطفال لتبلغها أنها ستخبز غدا، إستيقظت فاطمة مبكرا ووضعت كمية من الدقيق فى الماجور وحملته على رأسها متجهة لبيت هاشم أبو زيد، وجدت نصرة وغالية جالستين بالحوش، نصرة تعجن فى ماجور العجين، وغالية تحمى الفرن، بعد العجن بدأت مرحلة تقريص العجين ورصه على الدوار (الأقراص المصنوعة من خليط الختى والتبن) بعد رشها بالردة حتى لايلتصق، ثم تركه يختمر فى الشمس، كانت غالية قد جهزت الوقيد المكون من البوص والقش والحطب وملأت به المكان المخصص له أسفل الفرن، وضعت بعض الجاز على طرف بوصة وأشعلتها ثم ألقتها بالداخل ليشتعل الوقيد وعندما وصلت حرارة الفرن للدرجة الكافية لإنضاج الخبز، أخذت غالية تسلم نصرة الأقراص واحدا وراء الآخر، فتمد نصرة يدها بالقرص لداخل فوهة الفرن وترمى الرغيف بمهارة على الصاج الساخن، بعد أن انتهت من كل الأرغفة سدت فوهة الفرن وتركتها تنضج ثم أزاحتها بعصا طويلة حتى صارت فى متناول يدها وأمسكتها بفوطة نظيفة منداة قليلا بالماء ووضعتها فى القفة

على يمينها، بعدها قامت فاطمة تحت إشراف نصرة وغالية وبناء على تعليماتهما بتكرار الخطوات التى شهدتها من قبل. فى المرة الثالثة تركتاها تقوم بكل الخطوات بمفردها وعجبتا أنها استطاعت تعلم تلك العملية الصعبة فى وقت قصير، خرجت أرغفة فاطمة الساخنة رائقة مضبوطة الشكل والنضج، مستديرة وجميلة كوجهها الذى زادته حرارة الفرن حمرة وجمالا.

تعلمت كنس الأرض الترابية بالمقشة المصنوعة من سباطة النخل وتزعيف الأسقف بالزعافة وغسل الملابس بدعكها فى الطست وغسيل المواعين وهى مقرفصة داخل البيت باستخدام الليفة المصنوعة من لحاء النخل، كانت تملأ الماء النظيف من الحنفية العمومية القريبة من بيتها، ترسل نهى بالعلاوة لتحجز لها دورا وتذهب إليها بعد مدة لتجدها قد ملأت العلاوة بالماء فتحكى لها كيف أن النساء حاولن تفويت دورها عليها لكنها أصرت أن تملأ ولم تخف منهن، كانت نهى رغم سنها الصغيرة تشعر بمعاناة أمها وترى الفرق بينها وبين النساء الأخريات وتعلم أنها لا تستطيع مجاراتهن فى العراك والمناكفة وتشعر بالمتعة لأنها تساعد أمها وتجنبها "البهدلة بين الحريم" كما تساعدها فى أعمال البيت ورعاية أخويها الصغيرين أمجد وأمين.

تعلمت فاطمة أيضا تربية الطيور فى حوش البيت فربت الفروج (الدجاج) والبط والأوز التى كانت "تزغطها" بالفول والذرة وإناث وذكور المالطى (الرومى) التى كانت تخلط لها البيض المسلوق بورق البصل الأخضر بعد أن تقطعه بالمقص لقطع صغيرة وكان أطفالها يستمتعون بمعاكسة ذكورها بالصياح أمامها فيرد الديك "برررروووو"،

كانت تعلم أن زوجها وأولادها لا يطيقون الصبر على طعام دون لحم فقررت أن تجد لهم بديلا لأن لحم الغنم لا يتوافر إلا مرة فى الأسبوع يوم السوق، وتعلمت من آمنة تنظيف المعاش وطرق طهيه كزوجة لجزار لا يصح أن تجهل ما ينبغى عليها إتقانه، صارت فاطمة بعد مدة لم تطل كأنها امرأة عاشت كل حياتها فى القرية دون أن تنسى مهارات المدينة التى صارت تميزها بين نساء المخادمة خاصة المحيطات بها واللاتى كانت تفاجئهن بأفاعيلها العجيبة من وقت لآخر.

4

حاولت آمنة إقناع ولديها الحاج وأبو بكر أن يسمحا لأخيهما حسين بمشاركتهما فى تربية الغنم والتجارة فيها لكنهما لم يوافقا، كان حسين لا يملك المال الكافى للشراكة ولا الخبرة فى البهائم فضلا عن عدم تأكدهما من نجاح الفكرة من الأساس.

أخرجت آمنة من صندوقها الذى استقر فى الحاصل المبلغ الذى ادخرته من مصروفها الذى كان ولداها يمنحانها إياه قبل الهجرة إذا تيسر الحال وسمحت الظروف، لم يكن مبلغا كبيرا لكنها قالت فى نفسها "أها النواية تسند الزير"، استدعت من فورها حسين وعبد الرحيم وكانا جالسين أمام الباب فى طراوة ما بعد العصر، بادرتهما بالسؤال:

- فكرتوا هتعملوا إيه وهتفتحوا بيوتكم من فين؟

أطرق الرجلان وبدت على وجهيهما قسمات الحرج، كأن السؤال قد مس جرحا، فى ذلك الزمن لم يكن لحسين من أبناء سوى بدور وبدير وكان خال زوجته قد تكفل بحل مشكلة السكن فلم يبق عليه إلا تدبير أمور معيشتهم بجنيهات الراتب الأساسى التى كانت قليلة نظرا لحداثة تعيينه فى الشركة لكنه أمل أن تكفيه إذا خف السجائر وتدبرت زوجته شيءون الطعام وغيره فى حدود دخله كما ينبغى "لست البيت الأصيلة الشاطرة"، أما عبد الرحيم فلم تكن له دراية إلا بالبقالة التى خبرها وعرف أدق تفاصيلها ما ساعده على زيادة مكسبه الذى مكنه من الزواج هناك فى السويس بمساعدات يسيرة من أمه وإخوته، لكنه الآن وقد صار زوجا وأبا لطفلة رضيعة وضاعت مدخراته القليلة فى رحلة الهجرة، لن يعيش عالة على أخويه الكبيرين لأن "اللى ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى"، كان يبتسم عندما يردد المثل بينه وبين نفسه ويحمد الله أنه لم يفقد سوى عين واحدة فصار أعور فحسب.

تكلم حسين:

- أنا بافكر يامه، أهو هتسند ع القرشين بتوع الشركة لحد ما شوف.
- زى بعضه، وإنت يا عبد الرحيم.

رد عبد الرحيم:

- أنا فكرت يا مه وكنت هاقولك تستأذنيلى إخواتى إنى أعمل سور قدام الأوضة عشان أفرش بضاعة وأهو كويس إن إحنا هملنا (تركنا) باب الأوضة وما سدناهوش.

- من غير ما تستأذنهم، إتكل ع الله ولما تجهز قوللى.

شرع عبد الرحيم فى بناء سور منخفض فى الباحة أمام غرفته وثبت فيه سباتة (دروة من البوص) ثم وضع عددا من الطاولات صنعها من بقايا خشب كان قد وجدها فى طرقات البلد، ذهب إلى أمه فأعطته نصيبه من مدخراتها ليبدأ عمله، سافر إلى قنا فى سيارة أحد أصدقائه من سائقى سيارات الأجرة فاشترى بضاعة وجهزت له زوجته برطمانات المخلل من اللفت والجزر والباذنجان، رص بضاعته على الطاولات وبدأ العمل، وكان عندما يحل الظلام وتخف حركة الناس يرفع البضاعة ليدخلها داخل الغرفة ليخرجها فى الصباح من جديد.

بعد أيام جاء حسين فأخبر أمه أن موعد بدء الدراسة قد اقترب وأنه سيعمل مؤقتا فى بيع الأدوات المدرسية، كراريس وأقلام وأساتيك ومساطر، كانت فكرته أن يعمل عملا موسميا يستطيع أن يكسب منه بعض المال كل حين فوق راتب الشركة الذى ينتظرون على توفيق من أجله كل أول شهر، شرح لأمه فكرته أنه فى بداية الدراسة سيبيع أدوات مدرسية وفى موسم البلابيصا يبيع لبش القصب والشمع وفى رمضان يصنع فوانيس الصاج والجريد ويبيعها للأولاد وهكذا، أعطته أمه نصيبه ليبدأ بعد أن أوصاها أن تبلغ أحفادها الذين يحومون حولها طوال الوقت أن يشتروا أدوات المدرسة منه.

عندما عاد المهجرين للمخادمة لم يجدوها على حالها التى تركوها عليها فى بداية الخمسينات، كانت حكومة الثورة قد تنبهت قليلا لأولئك البشر الذين يعيشون مهمشين على الأطراف، كان نصيب المخادمة حنفيتين عموميتين للماء النظيف أقيمت إحداهما فى شرق البلد والأخرى فى غربها، ووحدة صحية أنشأت فى عزبة قديس القريبة من الشيخ عيسى لتخدم أهلها وأهل المخادمة، ومدرستى "المخادمة الإبتدائية المشتركة" و"المخادمة الإعدادية المشتركة" اللتين أقيمتا متجاورتين على جزء من الساحة الرئيسية التى يقام فيها السوق كل يوم سبت.

كانت هدى قد حصلت على الشهادة الإعدادية فى السويس واكتفى أبوها بذلك فأبقاها بالبيت انتظارا للعدل، وكانت ليلى قد اجتازت الصف الأول الإعدادى فقدم لها أبوها أوراقها فى المدرسة الإعدادية لتأخذ الشهادة كأختها وقدم أوراق ولده عبد الرحيم وابن أخيه جبر ليلتحقا بالصف الأول الإبتدائى والتحق هاشم بالصف الخامس وخالد بالصف الثانى، وأوصت آمنة أمهات أحفادها الذين كبروا ولكنهم لم يبلغوا سن المدرسة بعد أن ترسلنهم لكتاب الشيخ خيرى كما كانت تفعل هى مع آبائهم، كانت قد سألت عن الشيخ ووجدته مازال حيا لكن صحته عليلة بفعل السن ويعتمد على أحد أولاده فى مساعدته لرعاية الكتاب والتعامل مع "العيال الشياطين".

فى سنوات الهجرة لم تتوقف بطون كنات آمنة عن الحبل والولادة، إستقبلت الجدة كعادتها أحفادها وهم ينزلقون من فروج أمهاتهم، كانت تستمتع بلحظة الميلاد وبالملمس الزلق للأجساد الصغيرة على يديها حتى صارت النساء ممن حولها يطلبن مساعدتها فى توليد بناتهن

بعد أن عرفن بمهارتها وكانت هى لا ترد لهن طلبا دون أن تنتظر شيئا سوى إحساسها بأنها ساعدت فى قدوم كائن جديد سوف يسعى فى أرض الله. ولدت نصرة بنتين فصار لديها أربع بنات وولدين وتوقفت عن محاولاتها بعد يأسها من إنجاب الذكر الثالث، وتوقفت نعمة عن الإنجاب فاكتفت بشوقى وسناء، وولدت فاطمة ولدين وبينهما بنت فصار لديها أربعة من الذكور واثنتين من الإناث، أما غالية فقد أنجبت ولدين وكانت تتمنى كل مرة أن يكون المولود بنتا دون فائدة فصار لها ستة من الأبناء الذكور، وولدت كاملة فى الهجرة ثلاث بنات فصار لها ولد وحيد وأربع بنات وأنجبت زينب بنتا ثم أعقبتها بولدين فصار لها بنتان وولدان.

بينما كان الآباء والأمهات يراوغون الحياة لتسير بهم وهم يرزخون تحت حملهم الثقيل، كان أبناؤهم يعيشون عالمهم الخاص، الأولاد الكبار يكابدون عذاب رجولتهم المبكرة ويدوسون أرض المخادمة مع أندادهم طول النهار وجرءا من الليل، يراقبون البهائم وهى تتزاوج فى الحظائر والكلاب والقطط فى الطرقات، ويتسابقون فى تسلق أشجار الكافور والسنط واللبخ أو فى السباحة فى المشروع، ويتجادلون حول الكرة التى كانوا يسمعون مبارياتها فى الراديو عندما إستؤنفت بطولة الدورى بعد توقف بسبب النكسة ويتناقشون فى أفضلية فريق عن فريق حيث يتفاخر كل منهم بلاعبى فريقه المفضل الأهلى والزمالك والمحلة والترسانة وغيرهم، أو يرددون الأغانى التى كانوا ينتظرون حفلاتها خاصة فى ليلة شم النسيم وينقسمون إلى فرق حسب المطرب المفضل لكل فريق، تشغلهم كلمات الأغانى العاطفية لعبد

الحليم حافظ وفريد الأطرش ومحرم فؤاد ووردة وفايزة أحمد ويتابعون المطربين الجدد محمد عبده وفهد بلان وهانى شاكر، أو يخرجون فى "مسامحة نص السنة" أو "المسامحة الكبيرة" فى رحلات تستغرق اليوم كله حيث يحملون الطعام والماء و"يشرقون" (يتجهون شرقا) فى الصحراء المتاخمة للبلد وصولا للجبل الذى يقبع على قمته مقام الشيخ عبد الله حيث يقضون اليوم فى صعود الجبل والجلوس على قمته بجوار المقام ومطاردة "أبو الحصين" (نوع من الثعالب صغير الحجم سريع الحركة) إذا لاح لهم من بعيد، وكانوا يحلمون أن يلوح لهم "غزال البر" الذى سمعوا من كبارهم أنه يعيش فى صحراءهم ولكنه نادرا ما يظهر للناس، أخذهم ذلك الحلم حتى صاروا وهم فى طريقهم للجبل يغنون له موالا حفظه لهم أحدهم بعد أن سمعه من الشاعر فى مولد سيدى عبد الرحيم وبمرور الوقت أصبح الموال هو عنوان رحلاتهم للجبل يدندنون به طوال اليوم وقد تملكهم الوجد من جمال الكلمات ورقة اللحن الشجى بعد أن توصلوا من تأمل المعنى إلى أن غزال البر هو رمز يمثل أحلامهم - التى نادرا ما تتحقق - فى الحب والحياة:

غزال البر شوف منزله منين
عاجبنى محنى كفوفه
لكن بيطلع فى هويد الليل
وشمش الضحى لم تشوفه

أحيانا وخاصة يوم شم النسيم كانوا "يغربون" (يتجهون غربا) مخترقين البلد والحقول المتاخمة لها عابرين المشروع وصولا للبحر الكبير

النيل، مستمتعين برائحة الزرع ومتأملين صفحة السماء التى تمر فيها أسراب الطيور المهاجرة ما جعل الولد الذى حفظهم موال الغزال يقرر أن يخصص لرحلاتهم للبحر موالا آخر كان يحفظه:

كان عندى طير أنا كنت أهواه
وأفرح ساعة ما يلاقينى
جم العوازل خبصونى معاه (أوقعوا بيننا)
وأصبح حبيبى معادينى

كان من عادات لهوهم فى أيامهم الطويلة أن يجمعوا العلب الصفيح للسمن الهولندى وأغطية زجاجات السباتس والسيكو "الكازوز" وبكرات الخيط الفارغة ليصنعوا منها نماذج صغيرة للسيارات، عندما كبر خالد أصبح أمهر الأولاد فى صناعة تلك السيارات، بعد أن يجمع الخامات المطلوبة، كان يجلس مستندا لحائط البيت وحوله أصدقاؤه وأولاد أعمامه فيقص علبة الصفيح مستخدما مقصا يكون قد غافل أمه وأخذه من عدة الخياطة، وبعد أن يحصل على لوح من الصاج كان يشكل جزءا منه على هيئة كابينة سيارة وجزءا على هيئة الصندوق الخلفى لها ثم يقوم بثقب الكازوز من المنتصف مستخدما مسمارا وطوبة ثم يلضمه فى أستك ويشكله كدائرة بربط طرفى الأستك فيصبح الكازوز الملضوم بعد إدخال البكرة فيه كأنه إطار السيارة وعندما يثبت الإطارات الأربعة فى مواضعها تكون السيارة قد اكتملت فيتفاخر بها أمام منافسيه ويشرع بعد أن يمل منها فى توفير خامات السيارة الجديدة، كانت الأشياء التى يقضون أوقاتا طويلة فى جمعها بمثابة الثروة التى تميز أحدهم عن غيره،

فالكازوز والمقل (جمع مقلة وهى نواة الدوم) وبذور الخروع ناعمة الملمس وبذور المشمش والفصى (نوى البلح) كانت من علامات الثراء التى يجرى عليها ما يجرى على المال من مكسب وخسارة واقتراض ومقايضة، كانوا يتجمعون فى دائرة كبيرة تتوسطها حلقة تتكون من الأولاد أصحاب الثروة يلعبون لعبة "النسر والطرة" (الملك والكتابة) بينما الآخرون يتابعون اللعبة المثيرة وهم يراقبون ردود فعل الرابحين والخاسرين ويتدخلون إذا نشب العراك بينهم عندما يتهم أحد الخاسرين الولد الرابح أنه "يزمزغ" عليهم (يغشهم أو لا يعترف بخسارته). كان خالد أيضا هو أمهر لاعبى المقل على الإطلاق، كانوا يرسمون على الأرض دائرة صغيرة يضعون فى وسطها شقفة من الفخار (قطعة ناتجة من كسر علاوة أو قلة) مسنودة على حجر وعلى بعد مسافة كبيرة يرسمون خطا يقف اللاعبون عليه وفى يد كل منهم مقلة فيرمى كل منهم مقلته فى دوره محاولا كسر الشقفة البعيدة وتتكرر المحاولات حتى إذا نجحت إحداها حصل صاحبها على كل المقل الذى يكون قد تجمع حول الشقفة فيجمعه فى حجر جلبابه، لم يكن خالد يرتدى جلبابا، لذلك كان يحمل معه دائما حقيبة صنعتها له أمه من بقايا القماش ليضع فيها مكاسبه. لم يكن خيالهم يتوقف عن ابتكار ما يشغل وقتهم ويشكل ملامح عالمهم ولم تكن علاقتهم ببيوتهم تتعدى كونها أماكن للنوم وتناول الطعام وتغيير الملابس المتسخة بأخرى نظيفة ومصدرا لقروش قليلة ينتزعونها بالمحايلة والرجاء لتمويل مغامراتهم التى لا تتوقف.

5

بعد حوالى عام من الهجرة ولدت فاطمة ابنها أمين، إختلط الفرح والأسى فى شعورها بالوليد الجديد، فرحت كما ينبغى لأم وهبت ولدا جميلا، وحزنت لأن أفراخها الصغيرة التى تخشى عليها من الضياع زادت واحدا، كان عبد الله يوغل فى طريق النأى عنها وقد تبدل فصار شخصا كأنها لا تعرفه، تبدل مظهرا وروحا، فى أول يوم لهم بالمخادمة بدل ملابسه الأفرنجية وصار يرتدى الجلباب الصعيدى ذا الأكمام الواسعة وأخذت لهجته التى رققتها أيام السويس تعود إلى خشونتها، وطبعه الذى هذبته تلك الأيام يعود كأيام طفولته وصباه حادا عنيدا، تذكرت فاطمة ما كانت تحكيه أمه عن تبرمه ومشاكسته للناس وهو صغير ولعنت الهزيمة التى حطمت أحلامه وأصابته بالاكتئاب وجعلته يدمن الخمر وربما أشياء أخرى لا تعلمها، حتى فى لقاءاته الحميمة معها لم يعد ذلك العاشق القديم الذى كان يختار كعازف محترف مواضع الرقة والقوة بإحساس صادق وفهم عميق لما تحتاجه دون طلب أو حتى إشارة منها، بل صار عنيفا ومتسرعا كأنه يريد أن يتخلص من حمل ثقيل وعندما ينتهى ينتحى لطرف السرير وفى لحظات ينطلق شخيره الذى يمنع عنها النوم بينما تفوح من أنفاسه رائحة الخمر حتى تكاد تجن، بدا كأنه ينتقم من نفسه ومنها ومن العالم، حاولت أن تذكره بأيامهما الجميلة وبالمكانة والاحترام اللذين حققهما بمجهوده وإخلاصه فى عمله، وأن تبث فى نفسه الأمل لكنه لم يكن يرغب أن يتشبث بالأحلام من جديد، بوفاة عبد الناصر

أدركت فاطمة أنه لا جدوى من المحاولة وأن عليها أن تواجه الحياة وحيدة كأنها زوجة غاب عنها زوجها وأن تحيط أولادها بسياج من الحنان والشدة حتى لا يفلتوا، لم تكن -رغم تعاطفها معه وإشفاقها عليه- تملك رفاهية الصبر والانتظار حتى يعود عبد الله من الجب الذى ألقى نفسه أو ألقته الظروف فيه، فى جلساتها بعد العصر مع صديقتها زينب أبو زيد كانت تتشكى وتتحسر، نهرتها زينب ذات مرة:

- يا بت ما تقوليش كده على جوزك، الراجل زى رجالتنا كلهم خلقه ضاق من اللى حصل لكن ملزوم بيكى وبعياله وبيشقى على رزقه.
- أنا مش بتكلم فى كده، أنا عايزاه معايا زى الأول يراعى العيال وياخد باله من تربيتهم وتعليمهم ويقعد معايا زى أى راجل ما بيقعد فى بيته.
- يا فاطنة العيشة هنا غير السويس، أهو بيقضى وقته.
- عارفة يا زينب بس برضه هو مزودها وخايفة عليه من الخمرة والحاجات التانية دى.
- ربنا يهديه يا خيتى، ملعون أبو الخمرة واللى دلهم عليها.

كان الرجال من المهجرين كأنهم قد اكتشفوا الخمر فصار معظمهم يشربها حتى من لم يكن قد جربها من قبل، ضاقت حياتهم وانمحت لمحة الأمل منها وتشابهت أيامهم ولياليهم فامتد أمامهم الوقت كصحراء شاسعة لا تنتهى، جربوا أن يسلوا أنفسهم بلعب السيجة والتحطيب وحتى مشاركة الأولاد فى لعبة المقل والانشغال

بأعمالهم البسيطة لكن ذلك كله كان كنقطة فى بحر الوقت الواسع، قبل الهجرة كان بعضهم يشربها فى الجلسات الرائقة فى الأجازات كنوع من المتعة العابرة تشعرهم بالاسترخاء بعد أيام العمل المضنية بالصحراء لكنهم لم يدمنوها ولم تشكل لهم تلك الأهمية التى صارت لها فى تلك الأيام الثقيلة التى تمر "بالزق" كما كانوا يقولون. كان عبد الله يعمل نهارين من أيام الأسبوع ولياليه، نهارا لشراء الغنم ونهار السوق للجزارة والبيع، فماذا يفعل فى بقية الأسبوع هو الذى كان يشعل أبو رديس حركة وعملا ويذرع الشوارع والكازينوهات والمقاهى فى أوقات الفراغ وماذا يفعل فى شعوره بأنه لا فائدة ولا شيء يمكن انتظاره بعد أن اكتملت الهزيمة ومات الرجل الذى كانوا ينتظرون هبته وانتقامه وانطفأت الأحلام فى العمل والأولاد والحب حتى صار الجنس الذى كان فرحا يتجدد وتتجدد طقوسه كل مرة مجرد عمل روتينى للتخفف من ضغط الشهوة لا مزيد، صارت الخمر مصدرا للفرح الوهمى الذى يفصلهم للحظات عن واقع لم يعودوا يحتملون قسوته كما حدث لعبد الله بعد وقوع الهزيمة حين لجأ إليها وهو هناك يكابد وحدته وآلام انهيار عالمه.

جاءه أحد أصدقائه وكان جالسا فى باحة دكان عمير وفى يده زجاجة "كينا"، قال:

- إيه رأيك يا باش ريس نروح نتفرج ع الغوازى فى الشيخ عيسى الليلة.
- نروح، يعنى احنا ورانا الديوان.

من يومها ظل حريصا على حضور أفراح الغوازى أينما أقيمت فى القرى المحيطة، أما لو أقيمت بالمخادمة فكان الكل يستعد لها كأنه يوم عيد، كمناسبة لا تخص أصحاب الفرح وحدهم ولكنها مناسبة عامة لكل الناس. كانت الأفراح التى تحييها الغوازى وفرقة المزمار تقام لسببين، الزواج والطهور وكان لعائلة هاشم أبو زيد نصيب منها فى ثلاث مناسبات، الطهور الجماعى لأبناء عبد الله وأبو بكر وزواج هدى ثم ليلى بنتى الحاج محمد.



ظلت فاطمة تلح على عبد الله أن يدخر من مكسبه من الجزارة لبناء بيت يخصهم لكنه لم يستجب وكان فى كل مرة يردد عليها أنهم سيعودون للسويس قريبا فلماذا يكلفون أنفسهم مصاريف بناء بيت سيتركونه، وعندما مات عبد الناصر وصار حلم العودة أبعد، كانت إذا فتحت الموضوع يشرد كأنه يفكر فى ضرورة البدء فى تدبير المال اللازم فلا أحد يعلم متى يتغير الحال ويقترب الموعد المنتظر، لكن ما حسم الأمر كان وفاة الحاج عوض التى حدثت بعد وفاة الزعيم بشهور قليلة، جاءت بنات الحاج عوض مع أزواجهن من البحر الأحمر لحضور عزاء الأب الراحل وترددت فى أيام وجودهم بالبلد "طراطيش" كلام فى شكل رسائل مبطنة نقلتها النسوة "الرطاطة" أنهم يرغبون فى استعادة البيت الورث، لحظتها أدرك عبد الله أن فاطمة على حق وأنه لن ينتظر حتى يطردوهم وهو الذى لا يحتمل أن يدوس له أحد مهما كان على طرف. باعت فاطمة مصاغها المتبقى لديها

من أيام العز لصايغ فى شارع "الصهريج" بقنا فى إحدى زياراتها لأهلها واهتم عبد الله أن يجمع ما له عند زبائنه الذين يشترون منه اللحم بالأجل واقترض من تاجر الشويخات مبلغا مستندا على الود الذى بينهما وصداقة والديهما الراحلين، اشترى عبد الله قطعة أرض مجاورة لبيت الحاج عوض واتفق مع البنا ليبدأ فى تقسيمها بعلامات الجير و"دق الطوب"، كان باب البيت مواجها للخلاء بحيث لا يرى الواقف أمامه سوى اللون الأصفر لرمال الصحراء وصولا للجبل الذى يقبع على قمته مقام الشيخ عبد الله، خلال أسبوعين صار البيت الجديد جاهزا فانتقلوا إليه وذهب عبد الله وفاطمة ليخبرا أرملة الحاج عوض بأن البيت صار خاليا وليشكراها ويترحما على المرحوم الذى "وقف معهم" كما ينبغى للأشراف أولاد الأصول أن يتصرفوا مع أهلهم وناسهم. بعد استقرارها فى البيت انتقلت فاطمة لموضوع آخر كانت ترى أنه تأخر كثيرا، قالت له ذات مساء بعد أن قدرت أن مزاجه يسمح بالحديث معها:

- عبد الله، أمجد كبر والسنة الجاية هيدخل المدرسة.
- قصدك موضوع الطهارة؟
- أيوه يا عبد الله ولا عايز نستنى لغاية ما العيال يعايروه؟
- أنا ما ناسيهوش واتكلمت مع أبو بكر.
- وإيه دخله فى الموضوع؟
- أصل عايزين نطهر العيال مع بعض، أمجد وأمين ومصطفى ومجد.
- وماله فكرة كويسة.

- هارتب مع أبو بكر بس خلينا ناخد نفسنا شوية من ديون البيت.

تمت ترتيبات طهارة "الصبيان" حسب الاتفاق بين الأخوين فاشترى عبد الله "قعود" وربطه فى وتد بحوش بيت أبيه لذبحه يوم الاحتفال لإعداد الطعام للمعازيم وتوزيع بعضه على الفقراء، وأرسلوا حسين لقنا للاتفاق مع الغوازى وفرقة المزمار، وجاء عبد الرحيم بالنجار ليبنى مسرحا من الخشب وجذوع النخل فى "الوسعاية" المقابلة لبيت عبد الله الجديد. فصلت فاطمة الجلابيب البيضاء للصبية الأربعة، وأرسل أبو بكر ولده هاشم لأولاد سرور ليتفق مع الحاج فاضل المطهر. صباح اليوم المحدد حممت فاطمة ولديها وألبستهما ملابسهما وذهبت بهما لبيت حماتها حيث وجدت المطهر جالسا فى السقيفة يشرب القهوة مع الرجال بينما نساء البيت وبناته مشغولات بتنظيف الحوش وتسخين الماء استعدادا للحدث الكبير، منذ ألبسته أمه الجلباب الأبيض ثم اصطحابها له لبيت "سته" الذى يذهب إليه وحده مرات فى اليوم، شعر أمجد بأن شيئا مريبا يحدث وعندما رأى الرجل الغريب زادت شكوكه لكنه لم يقرر ماذا يفعل فتسمر فى مكانه عندما وجد أخاه الأصغر وولدى عمه يرتدون مثل ما يرتدى وواقفين حوله فى السقيفة، أحضرت غالية ماجور العجين من الحوش ووضعته مقلوبا فى منتصف السقيفة، لمح أمجد الرجل الغريب يخرج من سيالته موسى طويلا يشبه ذلك الذى يستعمله أبوه فى حلاقة ذقنه، أدرك لحظتها أنه وقع فى الفخ واستعاد حكايات أنداده الذين تعرضوا لمثل محنته وقد رآهم يمشون مفتوحى الرجلين بينما بقع الميكروكروم وصبغة

اليود على جلابيبهم، تأمل المشهد فى لحظة خاطفة وعندما سنحت له الفرصة انطلق كالسهم من الباب المفتوح وأطلق ساقيه للريح بينما أنفاسه تتلاحق حتى وجد نفسه عند المشروع، أبطأ سرعته ليلتقط نفسه وقد ظن أنه أفلت لكنه تنبه على يدى هاشم ابن عمه تضمه بقوة وقد ظن هاشم أن الولد سيلقى بنفسه فى الماء، حاول أمجد الإفلات من جديد لكن هاشم كان ينفذ تعليمات أبيه وعمه أن يحضره ولو بالعافية (بالقوة).

استبعدوا مجد بأمر الحاج فاضل الذى رأى أنه مازال صغيرا وبدأوا بمصطفى، أجلسوه على طرف الماجور المقلوب ورفعوا جلبابه وهو ينظر إليهم بدهشة واستسلام، أشار أبوه بيده لأعلى وقال له "بص العصفورة الخضرا"، فى اللحظة التى نظر فيها الولد حيث أشار أبوه كانت الشفرة الحادة للحاج فاضل قد أنجزت مهمتها، خرج أمجد لخارج الباب فى حراسة أبيه وأخيه خالد خوفا من أن يكرر الهرب وبعد قليل دفعاه برفق للداخل، كان أمين ينهض من جلسة الماجور وهو يبكى، نظر لأخيه وهو ينهنه:

- ما تبصش للعصفورة الخضرا يا أمجد، الراجل ده ابن كلب.

لم ينظر أمجد للعصفورة الخضراء لكن "ابن الكلب" كان قد انتهى من عمله ورش على مواضع جروحهم الميكروكروم وبودرة السلفا البيضاء ثم ربطها بالشاش. أجلسوهم على الدكة وجاءت فاطمة وغالية وآمنة وهن يتبسمن فربتن على الصغار وأعطينهن قروشا ليشتروا "حلاوة" عندما يخف ألم الجرح وجاءت النسوة لينقطن فاطمة

وغالية ويطلقن الزغاريد ابتهاجا بالعرسان الصغار. أخرج الرجال القعود من الحوش فذبحه عبد الله أمام الباب وشرع فى سلخه وغسله وتقطيعه بمساعدة أخوته، بعد الظهر ذهب الصغار لبيت عبد الله حتى يكونوا قريبين من مكان "فرحهم" ويشاهدوا الغوازى بالليل.

عندما تعافى الأولاد الثلاثة من جرح الطهارة عادوا إلى جولاتهم وألعابهم وأساطيرهم التى أخذوها عمن سبقهم أو تلك التى تفنن خيالهم فى ابتكارها مع أندادهم، كانوا يلحون على أشقائهم وأبناء عمومتهم الكبار ليسمحوا لهم بالمشاركة فى رحلات الشرق والغرب أو تسلق الأشجار والسباحة فى المشروع ولكنهم غالبا ما كانوا يفشلون فى إقناعهم، كان الكبار يخافون من تحمل المسئولية عنهم أمام آبائهم وأمهاتهم ويخافون عليهم من الأخطار المحتلمة لشطحاتهم، السقوط من الشجر أو الغرق فى الماء أو لدغات الطريشة والعقارب، لكن السبب الأهم كان رغبة الكبار فى الانطلاق دون عائق ودون رقيب "يخبص" عليهم لدى الآباء والأمهات فيحرمون من متعة السياحة وسط الحقول أو فى الصحراء حيث الأرض منبسطة أمامهم والسماء.

كان أحفاد آمنة الصغار يتحركون فى مجموعة يشاركهم فيها أندادهم من جيرانهم وأقاربهم، يصيح أحدهم فجأة:

- أبوه جمال عبد الناصر اللى يطوح الطوبة لحد بيت البربرى.

يبدأ كل منهم فى رمى الطوب بكل عزمه حتى يمنح لأبيه شرف أن يكون جمال عبد الناصر حتى تصيب طوبة أحدهم أحد المارين بالصدفة فيشتمهم ويطاردهم حتى يختفوا ثم يجربون لعبة أخرى كنطة

الانجليز أو السبع طوبات أو الشخة (بكسر الشين وهى لعبة تريك تراك المعروفة) أو النسر والطرة (الملك والكتابة) التى كانوا يراهنون فيها على ثرواتهم من الكازوز وبذور الخروع والفصى وعندما يتصاعد ضجيجهم يخرج إليهم أحد سكان البيوت القريبة فينهرهم ويهددهم بالشكوى لأهلهم فينتقلون لمكان آخر وهكذا طوال النهار وأول الليل، وفى الأيام الحارة "أيام القيالة" حيث تلهب الأرض أقدامهم الحافية يختارون ركنا فى ظل حائط يلعبون لعبة الفرح، تقوم مجموعة منهم بدور فرقة المزمار فينفخون أوداجهم ويخرجون أصواتا يقلدون بها صوت المزمار بينما الآخرون يمثلون بأيديهم أنهم يشربون الخمر ويدخنون السجائر أو يلفون قطعا صغيرة من العجوة فى أوراق السلوفان الشفافة كأنها قطع الحشيش والأفيون وأحيانا يخرج أحدهم عددا من ورق الطوفى والملبس كأنها نقود فينقطون الفرقة ويطالبونها بعزف سلام مخصوص، أو يلعبون لعبة "السيما" إذ يطاردون "حرامى الحلة" (نوع من النمل كبير الحجم) والخنافس حتى إذا اصطادوا واحدا من كل نوع حفروا لهما حفرة صغيرة ووضعوا قطعة من الزجاج الشفاف فوقها فيتضاعف حجم الحشرتين فى نظرهم وهما تروحان وتجيئان خلف الزجاج أو تتصارعان حتى تموتا، وفى الأوقات التى يبدأ فيها ظهور "النارخ" (البلح الأخضر قبل نضجه) فى سباطات النخل كانوا يتجمعون تحت نخلة مثمرة فيقسمون أنفسهم لفرقتين، فرقة للتصويب تتكون من الأولاد الكبار الذين يجيدون التنشين يظلون يقذفون سباطات النخلة بالطوب، وفرقة لجمع الثمر المتساقط تتكون من الصغار الذين لا تقوى أيديهم على قذف الطوب بقوة، حيث يكومون

النارخ فى كومة كبيرة ثم يعدونه "بالتورة" (التورة هى الأربعة) فيوزع أكبرهم سنا الأنصبة عليهم جميعا بعد أن يجرى عملية القسمة التى لابد أن يؤكد صحتها أمجد أشطرهم فى الحساب، ثم يجمع كل منهم نصيبه فى سيالتى الجلباب ليأكله أو يجرى ليعطى أمه وأهل بيته جزءا من الغنيمة إذا كانت وفيرة ثم يعود لمتابعة اللعب، أحيانا كان أحدهم يقترح أن "يعملوا غدوية" وسرعان ما يتحمس الباقون ويتفقون على صنف الطعام الذى سيتناولونه، جبن قديم بالبطيخ أو "الجاوون" (الشمام) فيبدأون فى توزيع الأدوار، فيتطوع أحدهم بإحضار الخبز وآخر باحضار الجبن ويتفق مجموعة على الرمح للأرض لخلع بطيخة أو جاوونة بموافقة صاحب الأرض أو من وراءه، أما لو أرادوا صنع "الشلولو" (بفتح الشين واللام وتسكين الواو) فكان أحدهم يحضر من بيته حفنة من الملوخية الناشفة وآخر يحضر فصين توم ولمونة وملح وكمون وثالث يحضر طبقا حيث "يربون" تلك الأشياء (يخلطونها بالماء) ثم يتحلقون حول الطبق ليغمسوا بالعيش، وفى أول الليل خاصة فى الليالى المقمرة كانوا يحبون لعبة الاستغماية حيث تكون منطقة واسعة من البلد هى مساحة لعبتهم، كانوا يحددون بالطوب مساحة صغيرة من الأرض لتكون المركز الذى تنبغى العودة إليه، يجرون القرعة فيكون على من يخسرها أن يبحث عن بقية الأولاد المختبئين فإذا أمسك أحدهم قبل عودته للمركز يحل عليه الدور فى البحث عن الآخرين، كانت اللعبة تستهلك ما بقى من عافيتهم فيعودون لبيوتهم حيث تكون الأمهات وجاراتهن يتسامرن أمام أبواب البيوت المفتوحة فيلقى أحدهم رأسه فوق

فخذ أمه أو إحدى قريباته وسرعان ما يأخذه النوم ليعاود الكرة من جديد فى الصباح.

كانوا فى حركتهم التى لا تهمد تتردد فى آذانهم تعليمات الأمهات وتحذيراتهن، "لا تذهبوا ناحية المشروع" وإلا صار مصيركم كمصير "درية" البنت التى ندهتها نداهة الماء فغرقت وظلت روحها تصيح على المارة خاصة فى المغارب لتغرقهم معها، "لا تذهبوا ناحية بيت الجعيدى السقا" وإلا صار مصيركم كمصيره هو وإخوته عندما نزل أولهم للبئر فى حوش بيتهم ولما تأخر نزل له الثانى لينقذه وهكذا حتى مات الأشقاء الأربعة وكان يوما من أيام المخادمة السوداء، "لا تتسلقوا الشجر" وإلا صار مصيركم كمصير "محمد الغنام" الذى سقط من فوق شجرة الكافور فكسرت رجله وتحول الكسر لخراج قطعوا بسببه الرجل فصار الرجل أعرج وعندما تعبت رجله السليمة صار يحبو على مقعدته، "لا تذهبوا ناحية الجبل" فأبو الحصين فى انتظاركم لينهش لحمكم وهكذا، لكن تحذيرات الأمهات لم تكن تعوقهم عن الانطلاق خلف متعتهم وسياحتهم فى المدى وتدربهم على ما يعتقدون أنها أفعال الرجولة.

6

فى غربة عبد الله التى طالت، تعلمت فاطمة فوق ما تعلمت منذ قدومها للصعيد أن تواجه الحياة وحيدة وفى عنقها حمل أولادها الثقيل وقد صاروا خمسة بعد أن أنجبت "مايسة" وفى قلبها مخاوف لا تنتهى عليهم وقلق يستبد بها على مستقبلهم. كانت وحيدة يوم جرح أمجد جرحا عميقا فى رسغ يده اليسرى وجاء الجرح بجانب شرايين اليد، فوجئت الأم بصراخه ونافورة الدم التى صبغت ملابسه وتناثرت قطراتها فى المكان، كان خالد قد صنع سيارة من الصفيح كما يفعل دائما وعندما مل من اللعب بها وضعها بجوار الكرسى فى صالة البيت وكان لأمجد عادة أعيتها الحيل فى جعله يتوقف عنها، كان يحب أن "يتشقلب" فوق الكراسى والأسرة فيرتكز على يديه واضعا رأسه فوق مقعد الكرسى بينما رجلاه مرفوعتان ومسنودتان على الحائط وعندما يستقر يرفع يديه عن المقعد ويرتكز بثقله على الرأس، فى تلك الظهيرة اختل توازنه وسقط من فوق الكرسى على السيارة الصفيح، إنغرس صفيح السيارة كشفرة سكين حادة فى لحم يده، فى لهفتها تركت رضيعتها مايسة وحدها بالبيت وجرت ملتاعة وهى تحمله بعد أن لفت يده بجلباب نظيف بينما يصرخ من الألم والرعب، جرت بأقصى سرعة لديها بطول البلد لمسافة تزيد عن ثلاثة كيلو مترات حتى عزبة قديس حيث الوحدة الصحية، أشفق طبيب الوحدة عليها من فرط الإجهاد الذى أصابها وقام بخياطة الجرح بثلاثة غرز وتركها تستريح لتلتقط أنفاسها بعد أن أمرها بالعودة بعد يومين للتغيير على الجرح.

وكانت وحيدة يوم أن أخبرها الأولاد أن كلبا عض ولدها الصغير أمين وهو يلعب فاستولى عليها الرعب من أن يموت أو يصيبه السعار فصارت تسافر صباح كل يوم إلى قنا وتعود فى المساء لمدة واحد وعشرين يوما ليحقنه الطبيب فى بطنه حقنة كل يوم. وكانت وحيدة يوم أن تأخر خالد فى العودة للبيت حتى أوغل الليل دون عودته فخرجت تدور على منازل أصدقائه لتسأل عليه وعندما عاد قرب منتصف الليل كان الرعب قد أنهكها فلم تشعر بنفسها وهى تضربه حتى خارت قواها وأغمى عليها والنسوة من حولها يحاولن إفاقتها برش العطر فوق أنفها تارة ودش بصلة لتشمها تارة أخرى.

وكانت وحيدة فى كل مرة يأتى لها أحد أولادها مجروحا بسبب المشاجرات التى كانت تشتعل بين الأولاد لسبب أو لآخر، ووحيدة فى الليالى التى كانت تنتظر فيها زوجها والظنون تتلاعب بها من أن يكون مكروها قد أصابه فى الطرق المظلمة بين القرى ووسط الزراعات حيث أولاد الليل القتلة وقطاع الطريق وهو سكران لا يعى من أمر نفسه شيئا معتمدا على حماره الذى صار يعرف طريق العودة للمخادمة من كثرة مشاويره بين البلاد، ووحيدة فى مواجهة نزقه ونوبات عصبيته وعنفه التى بدأت بتوجيه الشتائم وتطورت للصفع على وجهها ثم الضرب على كل جسدها، ووحيدة فى عذاباتها وهو يقترب منها بينما رائحة عرقه وأنفاسه المخمورة تكاد تكتم أنفاسها حتى يفرغ من مهمته تاركها لليلها الطويل.

تحملت فاطمة قدر طاقتها وعندما أوغل عبد الله فى تحولاته قررت أن تلجأ لمن ظنت أنه سوف يساعدها، كان الحاج محمد أول

من فكرت فى اللجوء إليه فهو أخوه الأكبر الذى يدين له عبد الله بالفضل والذى لم تغيره المحنة فظل رجلا موزونا عاقلا لا يقرب الخمر ولا يمشى وراء الغوازى أينما ذهبن، بعد ليلة من ليالى عذابها ذهبت إلى بيته فى الصباح، كانت قد تأخرت فى تهنئة الحاج وزوجته بالبيت الجديد الذى بناه الحاج شرق البلد لينفصل عن العيش المشترك مع أخيه أبو بكر بعد أن كثر عدد الأبناء ودخل بعضهم مرحلة الشباب فلم يعد لائقا أن تقيم الأسرتان معا وفيهما "عرسان وعرايس يجوزوا لبعض"، بادرتها نصرة:

- مرحب يا فاطنة، خشى، مالك يا خيتى؟
- خلاص يا نصرة مش قادرة استحمل أكتر من كده.

تكدر وجه نصرة وقد أدركت أن تلك المرأة الصغيرة الجميلة والتى كانت حياتها فى السويس وقصة الحب التى جمعتها بزوجها هناك مثارا لإعجابهم وعجبهم وحسدهم أحيانا قد تحولت منذ هجرتهم للمخادمة لامرأة تعيسة، قالت وهى تقوم لتعد الشاى لضيفتها:

- معلاهش يا فاطنة الصبر زين.
- أنا جاية أقولكم مبروك على البيت الجديد، أهو بقينا قريبين من بعض، بس عايزة الحاج فى كلمتين.
- الله يبارك فيكى يا خية، هاندهولك من جوه.

جاء سلفها الكبير من داخل البيت فحكت له كل شيء وطلبت منه أن يكلمه ليرد له عقله، علق الحاج:

- أنا خابر كل اللى حكيتيه يا بنيتى وأكتر منه كمان بس يا خسارة جوزك ما خابرش قيمة نفسه ولا قيمة اللى ربنا أنعم بيه عليه.
- يا محمد، عبد الله معدنه طيب وما فيش أحن منه بس الخمرة هي اللى مضيعاه، عشان خاطرى كلمه هو بيحبك وبيحترمك ويمكن يتكسف منك.
- حاضر يا فاطنة، هه ربنا يهديه.

بعد حديثها مع الحاج محمد بأيام لاحظت أن عبد الله يحاول أن يغير معاملته الجافة لها ولمحت فى عينيه نظرة كأنها اعتذار أو رجاء، لكن محاولاته لم تصمد طويلا أمام سطوة الخمر عليه، لجأت للواعظ "الشيخ بهى" إمام جامع أولاد مرعى الذى عينته الأوقاف فجاء من بلدته التابعة للمنصورة وكان يقيم مع زوجته الفلاحة البيضاء وابنته الطفلة فى بيت قريب من بيتها، كان الشيخ بهى رجلا شابا أبيض البشرة طويل القامة بدينا بعض الشيء ويرتدى دائما الزى الأزهرى المكون من الجلباب والكاكولا والعمة ما جعله مهيبا ومحترما بين أهل البلد غير أن بعضهم كان يلسن عليه:

- هو صح شيخ وواعظ وحافظ القرآن بس برضه فلاح (ليس من قبائل الأشراف).

جلست فى صالة بيته بحضور زوجته وحكت له قدر ما سمح لها خجلها أن تحكى فأخذ يناقشها بهدوء وسماحة ويتلو عليها الآيات والأحاديث فى فضل الصبر على المكاره وجزاء تربية الأطفال على

الاستقامة والدين ووعدها أن يكلم زوجها داعيا له بالهداية، كان الشيخ يعرف خالد وأمجد إذ كان يلتقيهما فى الشارع ويتحدث معهما حول الدراسة بعد أن علم بتفوقهما فيها وكان يدعوهما للصلاة فى الجامع غير أن الولدين لم يكونا يذهبان هناك إلا يوم صلاة الجمعة بعد أن تحممهما أمهما ويمران على ستهما الحاجة لتبخرهما مع أولاد عمومتهما ثم يخرج الجميع للصلاة، فوجئ أمجد بالشيخ يطلب منه أن يأتى إليه ليبلغه عندما يكون أبوه فى البيت، تحير فيما عسى يريده الواعظ من أبيه لكنه وعده أن يفعل.

كان عبد الله جالسا فى الصالة والباب مفتوح عندما سمع النداء:

- ريس عبد الله، يا بو خالد.

خرج فوجد الشيخ واقفا بطلعته المهيبة بجوار الباب خافضا بصره للأرض، حياه عبد الله:

- أهلا يا مولانا اتفضل.
- أهلا يا بو خالد، عايزك فى كلمتين، ممكن تتمشى معايا لحد البيت.
- حاضر يا سيدنا.

طال حديث الشيخ وطالت حجج عبد الله، أدرك بهى أنه أمام رجل يحب الله ولكنه يكابد الألم الذى يظن أنه مشيئته، حكى عبد الله عن تأثره بالشيخ خيرى الذى زرع فى نفسه حلم الخروج للعالم الواسع حيث الحياة والعمل وعمارة الأرض، قال أنه لم يؤذ أحدا طوال عمره وأنه اجتهد وتعب حتى يتعلم صنعته التى تفوق فيها

وجعلته محترما بين الناس وأنه تزوج وأنجب أولادا يحلم أن يكونوا عبادا صالحين لله لكنه لم يستطع أن يفهم حكمة الله فيما حدث، لماذا يكون جزاء الإخلاص والسعى والكفاح انكسارا وهزيمة ولماذا يدفعون ثمنا غاليا من حياتهم ومستقبل أطفالهم وأحلامهم دون ذنب جنوه، فهل كان الحلم والهجرة فى أرض الله الواسعة وعمارة الأرض بالعمل ذنوبا يعاقبهم الله عليها، لم يجد الشيخ ردا على الأسئلة التى تدفقت على لسان عبد الله سوى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ومحاولة إقناعه أن لله حكمة من كل شيء حتى لو بدا أنه شر وحتى لو خفيت عن إدراكنا وأن على الإنسان أن يستعين بالصبر والصلاة والدعاء حتى يكشف الله البلاء، أنهى عبد الله حديثه مع الواعظ:

- أنا يا مولانا نفسى أبطل الشرب وأصلى وأعامل مرتى وعيالى زى ما ربنا أمرنا بس ما خابرش الشيطان بياجيلى منين.
- بيجيلك من يأسك يا ريس عبد الله، خللى أملك فى الله كبير، "قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" صدق الله العظيم.
- ونعم بالله، سلام عليكم.
- وعليكم السلام، بيتى مفتوح لك فى أى وقت يا ريس عبد الله، إبقى شرفنى بالزيارة.

بعد ذهاب عبد الله، سرح الشيخ بهى فى الحوار الذى دار بينهما، لم يكن يتخيل أن حوارا مثله يمكن أن يجمعه مع أحد سكان البلدة الواقعة فى أقصى الصعيد والتى علم قبل مجيئه إليها أن نسبة التعليم بها منخفضة وأن معظم المتعلمين فيها هجروها للمدن الكبيرة، فى تلك

اللحظة أيقن الشيخ أن قراره بالموافقة على نقله إلى هنا كان صائبا وأن تلك الأرواح اليائسة التى لم تستطع تقبل واقعها الجديد تحتاج لمن يخفف عنها ويغرس فيها الأمل فى رحمة الله الواسعة. كان الشيخ منذ وقوع الهزيمة يتأمل فى ما صار عليه الناس فى كل المناطق التى ذهب إليها خطيبا وواعظا ولاحظ ذلك الانحلال الأخلاقى الذى شاع بينهم كنتيجة لليأس والإحباط وأدرك أن لغة التقريع والتهديد بالعذاب التى يستخدمها كثير من زملائه الوعاظ لن تجدى نفعا وأن رسالته تحتم عليه أن يعايش الناس ويحاورهم باللين ليفتح قلوبهم للعودة إلى الرجاء فى الله وانتظار بشائر رحمته، كان قبل قدومه قد علم من بعض زملائه قدر اعتزاز هؤلاء الناس بنسبهم الشريف وأدرك عمق ذلك عندما عاش بينهم ونشأت بينه وبينهم أواصر المودة، حاول أن يستغل إحساسهم بالفخر بانتسابهم لآل البيت ليقنعهم بأن يقتدوا بأجدادهم الأوائل الذين كان منهم العلماء والمجاهدين والأئمة، ذكر لهم كثيرا فى خطبه أن أحفاد السادة الأشراف لا يليق بهم أن يرتكبوا المعاصى التى حرمها الله بل يجب أن يكونوا قدوة للناس وكان يكرر عليهم حديث النبى جدهم الأعظم "والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها"، كان يشعر بتأثرهم ويرى أمارات الندم على العاصين منهم ولكنه كان يدرك أيضا أن هذا ليس سوى أثر مؤقت سرعان ما يزول، فالناس أيا كان نسبهم وتاريخ أجدادهم هم بشر يحتاجون للأمل وللشعور بإنسانيتهم، كان يقدر حجم الصدمة والإحباط والورطة التى وجدوا أنفسهم فيها دون ذنب، يعلم أن هذا ليس مبررا للمعصية لكن يبدو أن ما حدث كان أكبر من قدرة

أرواحهم على الاستيعاب والصمود، إنتبه فجأة من سرحانه عندما تذكر ملامح الألم فى وجه ذلك الرجل الذى قابله للتو وهو يحادثه وخاصة فى عينيه اللتين كانتا تنطقان بالحيرة والعذاب، شعر بالشفقة عليه وعلى أمثاله ودعا لهم بالهداية والرضا بأقدار الله.

فهم عبد الله أن فاطمة تبحث عنه و"تحلق عليه" من بعيد محاولة أن ترده إليها وإلى ما كانا عليه أيام السويس، كان يلاحظ اجتهادها فى تعلم خبرات جديدة ومتابعة الأولاد فى تربيتهم وتعليمهم ويفخر بتميزهم بين أهل البلد، فكر مرات عديدة وهو خارج سطوة الخمر عليه أن يرق معها ويأخذها فى حضنه معتذرا ومتعهدا بأن يعود ثانية الحبيب الذى تعرفه والرجل الذى يأخذ الحياة على محمل الجد ويحافظ على كرامته واعتداده بنفسه لكنه لم يفعل، كان يعلم أن الخمر قد شوشت تلك الصورة الناصعة وأغرت أصاغر الناس ليتجرأوا عليه، لكنه كان يشعر بالغضب والسأم واليأس، لم يكن لديه يقين فى شيء أو حلم يتطلع لتحقيقه بعد أن تحطم حلمه الكبير ويكاد يجن من تكرار الأيام الكئيبة، جرب أن يذهب إلى قنا كل فترة حتى يتسلى ويعيش أجواء المدينة، لكن قنا ليست كالسويس وهو لم يعد ذلك الرجل الرائق البال، المتأنق، الممتلئة جيوبه بالمال، صار جزارا صعيديا هزيل الجسد زاده الشقاء سوادا على سواده وبالكاد يستطيع تلبية احتياجات بيته وأولاده الأساسية، لم يكن لجوئه للخمر بدافع المتعة بل فقط لكى تمر الأيام، كان كثيرا ما يعزم النية على تركها ولكنه ما إن يلتقى بالرجال الذين كانوا حوله فى أبو رديس والسويس والذين يكابدون مثله صدمة تغير الحال، حتى تسرى فيهم جميعا الرغبة فى

الانفصال عن واقعهم المرفوض فيشرعون فى الشراب حتى تلتوى ألسنتهم وتتوه عقولهم كأنهم يعاقبون أنفسهم على استسلامهم لخديعة الحلم الذى أوصلهم لما هم فيه.

أدركت فاطمة أنه لا فائدة، كانت قد اشتكت لأمه نينة آمنة التى واستها وأوصتها بأن تصبر عليه كما فعلت هى فى طفولته وشبابه ووعدتها أن تكلمه:

- هاكلمه يا بنيتي بس انتي عارفاه دماغه ناشفة وبيسمعش كلام حد، ربنا يهديه.

إشتكت لأبو بكر الذى تعرف أنه أقرب إخوته إليه وشريكه فى المشاوير الليلية لأفراح الغوازى، أخبرها أبو بكر أنه لا يذهب معه حبا فى تلك السهرات وإنما ليكون بجواره وأنه يشرب ولكن بالقدر الذى يبقى عقله واعيا وقوته حاضرة لكى يحمى أخاه من رزالات السكارى ممن لا يعرفون قدر الباش ريس عبد الله أو حتى الذين يعرفونه لكنهم يغيرون منه ويريدون أن يثبتوا له أن الرؤوس تساوت، إختلج صوته وهو يحكى لها كيف كان زوجها مهيبا ومرهوب الجانب يحظى باحترام كل العاملين بالشركة مصريين وخواجات من صغيرهم حتى أكبر رأس فيها، خنقته العبرات وهو يخبرها أنه لا يستطيع أن يتركه وحده فى السكك المظلمة وبين السكارى الذين لا يوقرون مقاما، كان يوقن أن أخاه رجل لا يخشى أحدا وأنه لا يتحمل أدنى مساس بكرامته ولذلك فإن وجود الخمر التى تلعب بعقول الرجال كان ينذر بنشوب المعارك وحينها لا يضمن أحد النجاة من ضربة

شومة أو طعنة سكين أو طلقة رصاص، إعتذر لها أنه لن يستطيع أن يلعب معه دور الناصح الأمين حتى يظل قادرا على القرب منه وحمايته إذا دعت الضرورة وأوصاها أن تصبر عليه فهو يعرف كم يحبها ويعرف قدرها فقصة حبهما أيام السويس كانت مثارا للحكى بين أصدقائهما "أيام العز وروقان البال".

جربت أن "تغضب" عند أبيها فى قنا (تغضب الزوجة أى تترك بيت الزوجية) بعد أن تأخذ الصغار معها وكان يجيئها هناك ليصالحها ويعود بها بمباركة من أبيها الذى كان يردد دائما على مسامعها أن "المرة ما لهاش غير بيت جوزها" وموافقة صامتة من أمها رغم ألمها مما صار إليه حال ابنتها البكرية التى كانت فيما مضى كالهوانم، كانت تغضب من أبيها عندما لا يبدى أى ممانعة فى عودتها وهو الذى يكاد يبكى حنانا وهى تحكى له عما تتعرض له من عذاب، لكنها تعود فتشفق عليه من أعبائه الثقيلة وضيق حاله وهموم مسئوليته بعد أن طالت "الأجازة المفتوحة" من العمل وبعد أن تحمل تكاليف زواج أختها هالة التى كان لابد أن تتزوج بعد أن طالت فترة خطبتها أكثر من اللازم، وكانت تلوم نفسها أيضا لرضوخها للعودة مع عبد الله كل مرة وكأنها المرة الأولى، لكنها كانت تعلم فى قرارة نفسها أنها ما زالت تحبه ولم تيأس بعد من صلاح حاله، وتشفق على أولادها الكبار الذين تتركهم معه بالمخادمة من التعاسة التى يعيشون فيها دونها وتخاف عليهم أن ينسوا إن طالت غيبتها عنهم تعاليمها وتحذيراتها فتفسد أخلاقهم أو يتعرضون للخطر المحيط بهم فى كل مكان.

زلزلتها الفرحة عند اندلاع الحرب فى أكتوبر 1973 وعبور الجيش المصرى للضفة الشرقية للقناة، هاجت البلد بالزغاريد وتجمع الناس يرددون عبارات التهانى والدعاء باكتمال النصر، تمنت أن يبعث ذلك الأمل فى نفس عبد الله أن لحظة عودتهم للسويس قد اقتربت بعد أن يأس الجميع من الركود الذى صبغ الأيام، أخذت تتابع التطورات بلهفة ونغصت عليها أخبار ثغرة الدفرسوار لكنها تمسكت بالحلم بانتهاء الكابوس الذى عاشوا فيه أكثر من ست سنوات، لكن الحرب انتهت دون أن تظهر نتيجة حاسمة تفتح لهم أبواب العودة لحياتهم المعلقة، أصابها الملل من متابعة الأخبار التى تتحدث عن مباحثات وقف إطلاق النار وفض الاشتباك الأول ثم فض الإشتباك الثانى ومباحثات الكيلو 101 والرحلات المكوكية لمن لا تعرف أسماءهم من أهل السياسة، كان عبد الله فى بداية الحرب منفعلا بما يجرى ومتابعا للأخبار فى الراديو بعد أن توقف عن الشرب وعندما سمع عن محاولة الصهاينة دخول السويس وعن المقاومة الشعبية التى أوقفت زحفهم بكى وهو يتذكر ذلك الشاب الذى قابله صدفة عند دكان عم خليل أيام الهزيمة المرة والذى بقى فى المدينة انتظارا للانضمام لفرق المقاومة التى جاء وقتها الآن لتساعد الجيش فى تطهير المدينة من أثر الهزيمة وإعادة الأمور إلى نصابها، تمنى لحظتها أن يكون معهم هناك، لكنه بمرور الأيام والشهور شعر بالملل من الانتظار، أيقن أن هناك خطأ وأن خطوات السادات وكلامه أقل كثيرا من عظمة النصر الذى تحقق فالنتائج لم تكن حاسمة أو سريعة كما ظن فى البداية وباتت مسألة العودة محل شك، كان يتخيل لو أن ناصر الذى

بدأ الاستعداد للحرب كان هو من انتصر لجرت الأمور على غير ما يرى من البطء وعدم اليقين، شيئا فشيئا تسلل الإحباط لنفسه فعاد لسيرته الأولى، وخاب أمل فاطمة فى أن يتغير.

عندما جاءها خبر انتقال أهلها للقاهرة شعرت أن طبقات غربتها قد تكاثفت عليها حتى لم تعد ترى نقطة ضوء فى أفق حياتها، ذات صباح كانت تكنس أمام البيت فلمحت وجها تعرفه يلوح فى بداية الشارع، كان وجه أخيها محمد الذى صار رجلا صغيرا جميلا، تهلل وجهها عندما تأكدت أنه هو وانتظرته بشوق لتأخذه فى حضنها وتسأله فى لهفة كيف عرف الطريق، أجابها أنه ركب من الموقف فى قنا ونزل فى المخادمة وسأل عن البيت فدلوه، فهم الشاب مغزى نظراتها التى كانت تبدى التعجب من زيارته المفاجئة، أخبرها أنه جاء بأمر من أبيه وأمه ليبلغها أن أباه سيعود لعمله فى عجرود وأنهم سيقيمون فى القاهرة بحى "عين شمس" لأن العودة للسويس ما زالت ممنوعة لظروف الحرب وأنهم يريدون توديعها فالوقت ضيق وهم مشغولون بالترتيب للسفر ما منعهم من المجئ إليها، طلبت منه أن يقضى معها اليوم على أن تذهب معه غدا لكنه اعتذر حتى لا يقلقوا عليه، قضى محمد بعض الوقت مع أولاد أخته ريثما تنتهى من أعمال البيت وتعد الإفطار لزوجها، إستأذنت عبد الله ثم ارتدت ملابسها ولفت نفسها بالملاءة وذهبت حاملة طفلتها الصغيرة مايسة بعد أن أوصت خالد ونهى على أخويهما الصغيرين أمجد وأمين، باتت ليلتها فى قنا وفى طريق عودتها بعد أن ودعت أهلها لم تنقطع دموعها وخفقان قلبها.

كان النجم الأخير فى ليل غربتها ووحدتها قد انطفأ وكانت تتخبط فى طريقها الوعر وهى تشعر باليتم ولا تكف عن لوم عبد الله الذى تخلى عنها وهى فى أمس الحاجة إليه أبا وأخا وأهلا.

7

لم تفوت آمنة فرصة لتكرر لأحفادها وحفيداتها أنهم أشراف من نسل النبى، وأنه من المحرم عليهم أن يفكروا بالزواج من الفلاحين فذلك هو العار الذى سيجعل العائلة محط احتقار الناس، كان الأولاد والبنات يتقبلون تلك التعليمات ببساطة، فالصغار كانوا يتعجبون من أن يكونوا طرفا فى موضوع يخص الزواج فأين هم من الزواج، أما الكبار فكانوا يتعجبون من إصرار جدتهم على تذكيرهم بالأمر كل حين فأين هؤلاء الفلاحون حتى يتزوجوا منهم، لم يكن بالبلد وكل بلاد الأشراف المحيطة بهم أثرا لغير الأشراف سوى عدد قليل استقر فى بعض القرى منذ القدم ولم تكن بناتهم وشبابهم يختلفون عن بنات وشباب الأشراف فى شيء يغرى بالزواج منهم ومعاداة الأهل من أجلهم، أو من يتصادف وجوده لسبب أو لآخر كالبائعين فى الأسواق أو الوعاظ أو المدرسين وكان هؤلاء يدركون طبيعة سكان تلك القرى من الأشراف ويتحفظون فى تعاملهم معهم رغم الود الموصول، لم يشذ عن ذلك سوى الأستاذ محيى مدرس اللغة الإنجليزية الجديد فى مدرسة المخادمة الإعدادية والذى كان يتهكم على تلاميذه عندما تأتى سيرة الأنساب ما جعل زملاءه المدرسين يحذرونه أنه

يلعب بالنار فلا يسلمون حينها من تهكماته واتهامه لهم بالتخلف والرجعية ومحاضراته الطويلة عن أن سبب وجودهم هنا أن يخرجوا هؤلاء الناس من الأفكار البالية والعادات التى عفا عليها الزمن وأنه لا فرق بين إنسان وآخر سوى بعمله وأخلاقه حتى صار المدرسون والطلبة يتهامسون بالمقولة التى أطلقها أحدهم متهما الأستاذ محيى بأنه "شيوعى والعياذ بالله".

لكن اثنين من أحفاد آمنة أعجبتهما أفكار الشاب الوسيم، هاشم لأنه قرأ مثل تلك الأفكار فى الكتب التى كان يستعيرها من "مرة عمه" فاطمة وتأثر بها دون أن يبوح لأحد، وليلى التى كان سر إعجابها بأفكار الأستاذ هو إعجابها بالأستاذ نفسه وملاحظتها لطريقة نظره وكلامه إليها وما تحمله من شيء يخصها هى دون سائر البنات فى المدرسة. كانت ليلى تعلم أن ما تشعر به تجاه أستاذها هو من المحرمات عليها وعلى من هن مثلها من بنات الأشراف، وأن مصيرها بعد أن "تأخذ الإعدادية" أن تبقى فى البيت تساعد أمها فى أعماله وتتدرب على مهام الزوجة حتى يأتى أول عريس من الأشراف ليخطبها ويتزوجها فتذهب معه حيث يكون بيته كما حدث لأختها هدى التى تزوجت شابا فقيرا من أولاد سرور لا يملك عملا ثابتا ويتنقل من عمل لآخر ويبحث عن فرصة للعمل على "براريم" حفر البترول، لم يتردد أبوها فى الموافقة عليه وكأنه يتخلص من عبئها ويلقيه على رجل آخر، سألت أمها لماذا يبدو أبوها متعجلا فى تزويجهم لأى طارق على الباب فأجابتها:

- البت للجواز .. أمال عايزين تبوروا .. وبعدين أنتوا أربع بنات اللى عدلها ياجى تتجوز وتوسع للى وراها.

لم تشجع ليلى أستاذها على أن يخرج كلامه معها عن الحدود وكانت تحرص دائما أن تكون وسط صاحباتها حتى لا يراهما أحد واقفين وحدهما فتصير فضيحة ربما تصل أخبارها إلى أهلها فتقع الواقعة، لكنها لم تستطع رغم تحفظها أن تمنع نفسها من التفكير فيه والحلم أن تكون زوجة لموظف تعيش معه فى قنا حياة أقرب لحياتهم فى السويس بدلا من أن يرميها الحظ للزواج فى المخادمة أو غيرها من بلادهم فى بيت عائلة كبيرة فتتحول إلى خادمة لزوجها وأهله جميعا أو أن يتقدم إليها واحد من الذين يعيشون فى رأس غارب أو الواحات فتتغرب عن أهلها ولا تعود تراهم إلا نادرا، كانت تدرك أن ما تفكر فيه هو ما يسمونه أحلام اليقظة وأنها لا تملك من أمر نفسها شيئا فهكذا كان مصير سابقاتها وسيكون مصير لاحقاتها.

قبيل نهاية العام الدراسى الأخير لها فى المدرسة، كثر اللغط داخل المدرسة وبين أهالى البلد حول مشاكل الأستاذ محيي نتيجة لتهوره فى الإعلان عن أفكاره التى كان من حوله يعتبرها ضربا من الجنون والحماقة وقلة العقل، فاجأ الأستاذ الجميع بتقديمه لطلب للنقل لمدرسة فى قنا كان قد سعى للحصول على موافقتها وخلال أيام كان قد غادر المدرسة تاركا لها رسالة قصيرة مع زميل له يتمنى لها فيها السعادة ويشرح أسباب رحيله المفاجئ الذى برره أنه لم يعد يحتمل الضغوط التى يواجهها خاصة وأنه فهم أن ارتباطه بها مستحيل نتيجة للعادات والأفكار التى يحاربها وتسبب له المشاكل أينما حل، لم

يشغلها الأمر كثيرا فقد كانت تعرف منذ البداية أن ما تعيشه مجرد حلم لن يكتب له أن يصير واقعا، أكملت دراستها وحصلت على الشهادة ومكثت فى البيت تنتظر "العدل" الذى جاءها بعد شهور، كان شابا من الأشراف يعيش مع أهله فى سفاجا بالبحر الأحمر ويعمل ميكانيكيا على السفن، خطبها وسافر مع أهله بعد أن اتفق مع أبيها على موعد كتب الكتاب والدخلة، بعد أشهر قليلة من الخطبة أرسل أبوها جهازها وعفشها لبيت العريس فى سيارة نقل وقبل يوم الفرح بأيام تجمعت النسوة والبنات فى بيتها ليحتفلن بها بالطبل والغناء والزغاريد ولكى ينقطوها ردا على "جمايل" أمها وأبيها لهن، كانت ليلى تشعر بالسعادة لأنها أقنعت أباها أن يقام الفرح هنا وليس فى سفاجا كما أراد أهل العريس حتى تحظى بتلك الطقوس التى تحبها والتى عاشتها فى زواج هدى أختها الكبرى، الدلكة فى اليوم السابق على العرس وتحطيب الرجال فى صباح يوم العرس ثم المرماح بعد آذان العصر وزيارة العروس لمقام الشيخ عبد الله أعلى الجبل ثم فرقة المزمار البلدى ورقص الغوازى بالليل، فجر اليوم التالى للفرح كان موكب العرس يغادر المخادمة فى طريقه لسفاجا التى سيدخل فيها عريسها عليها فى الغرفة التى جهزت لهما ببيت أبيه بعد أن أصرت أن تركب ليلة الدخلة حصانا خلف العريس حتى باب بيته كما رأت فى زواج من سبقنها.

***

عرفت فاطمة بين نساء البلد بمهارتها فى إعداد الولائم التى تحتوى على أصناف لا يعرفونها، ودرايتها بالتواليت (الماكياج) الذى يجمل وجوه البنات وكذلك اشتهرت بجمال صوتها وحفظها لأغانى ليلى نظمى وعايدة الشاعر وغيرهما مما يناسب مناسبات الأفراح، صارت مدعوة دائمة فى مناسبات الزواج يسعى الجميع لوجودها الذى يضفى على المناسبة المحتفى بها طابعا راقيا، كانت مشاركتها تتوقف على قربها من أصحاب الفرح فاذا كانوا قريبين منها بكرت فى الذهاب لتشرف بنفسها على الاستعدادات والخامات المطلوبة وتجهز كل شيء لتخرج أصناف الطعام شهية وجميلة الشكل يفخر بها أصحاب الفرح أمام ضيوفهم كما فعلت فى فرح هدى ابنة نصرة ومحمد وكما فعلت وأبدعت عندما طلبت منها غالية فى زواج أخيها الدكتور "أبو المجد" الذى دعا إليه أصدقاءه وزملاءه فى الدراسة بكلية الطب جامعة القاهرة وقد جاء معظمهم من القاهرة وأراد العريس أن يتشرف أمامهم، أما إذا كانت صلتها بأصحاب العرس مجرد ود من بعيد فكانت تذهب لتقترح عليهم ما يطبخون وتصف وصفاته لواحدة منهم ثم تستأذن حتى لا تغيب طويلا عن الأولاد وربما تعود إليهم وسط النهار لتطمئن وتلقى بعض الملحوظات وتنصرف، كانت تتأمل إهتمام الناس البالغ بمناسبات الزواج والطهور ولا تعرف أسباب مبالغاتهم، رأت وسمعت وقرأت فى حياتها كثيرا عن مثل تلك الاحتفالات التى يهتم بها الناس جميعا فى كل مكان لكنها لم تر أحدا يحتفل بها كهؤلاء الناس، رجحت من خلال قراءاتها ومعايشتها وحديثها مع النسوة أن هذا الاهتمام ربما يعبر عن أهمية الجنس فى

حياتهم وأنه ربما يعود لعادات تمتد للمصريين القدماء الذين كانوا يعتبرون الزواج صورة من صور الخصوبة والنماء يعايشونها فى زراعة الأرض السوداء وفى تزاوج الحيوانات والطيور ليولد الخير الذى تقوم عليه حياتهم، لكن ما يمثل خصوصية للصعيد وخاصة لتلك القبائل التى تمتد أصولها للقبائل العربية هو النظر للمرأة كمصدر محتمل للعار يجب أن يعالج بأن تتزوج فى أقرب فرصة ربما قبل أن يكتمل شعورها بغريزة الاحتياج للجنس واكتشافها لأسراره، لذلك كانت البنت إذا بلغت سن الثالثة عشر ينظر لها كعروس آن أوان زواجها أما لو بلغت سن الخامسة عشر أو بعده فتعد فى عداد البائرات فيصير أمر زواجها الشغل الشاغل لوالديها وأقاربها، فهمت فاطمة لماذا تحاول آمنة وغيرها من الجدات أن يغرسن فى أحفادهن الذكور الالتفات لبنات العمومة لاختيار من تناسبهم فى السن وفهمت لماذا يعد طهور الذكور مناسبة صغرى يحتفل فيها بتجهيز الصبى مبكرا لمهمته المقدسة ويعد الزواج مناسبة كبرى يحتفل فيها بامتداد النسل المبارك جيلا بعد جيل لكنها فكرت أن التعليم ربما يغير تلك الأفكار بمرور الوقت.

كان الاستعداد للزواج يبدأ منذ طفولة البنت حيث تهتم الأمهات بشراء مستلزماته وتخزينها فى البيوت، أقمشة وملاءات وفوط ومفارش وحلل وأطباق وأطقم أكواب وغيرها مما تحتاجه العروس لفرش بيتها وعندما تخطب البنت ويتسلم أهل العروس المهر تبدأ رحلة استكمال المستلزمات وشراء الموبيليا والإعداد للفرح، غالبا كانوا يفضلون "كتب الكتاب" قبل ليلة الزواج بوقت قصير ربما لا يتعدى أياما قليلة حتى لا يظن العريس أن له حقوقا شرعية فى العروس قبل ليلة الدخلة ولا

يفضلون إطالة أمد الخطوبة حتى لا يدخل الخاطب بيت خطيبته كثيرا فتصير مثارا لكلام الناس، كانوا يعتقدون اعتقادا عميقا أن الزواج قسمة ونصيب ويتحسبون أن يحدث ما يمنع اكتمال الزواج فتنصرف أنظار الخطاب عن بيت دخله رجل غريب وعن بنت كانت محط نظره وشهوته حتى لو كان ذلك الغريب ابن عمها أو أحد أقاربها، وكان الاتصال بين العروسين فى فترة الخطوبة يتم عبر أقاربهما من النساء وفى حضورهن، فاذا تم الاتفاق وجرت الأمور بسلام عقد القران فى الديوان وبدأت الاستعدادات النهائية لليلة الزواج.

عاشت فاطمة كل تفاصيل زواج ليلى -كما عاشت تفاصيل زواج هدى من قبلها- فساعدتها فى تفصيل ملابس عرسها وتنجيد جهازها وطرزت لها فستان الفرح بالترتر، وغنت لها فى احتفال النسوة بها أغانى الأفراح التى كانت تحفظها من الراديو وزودتها بالتعليمات والإرشادات التى تحتاجها العروس فى بداية حياتها الزوجية، وقبل يوم الفرح شاركت نصرة وبقية نساء العائلة تجهيز الدقيق والكركم والسمن والسمسم والمحلب لخبز كعك العرس الذى يسمونه كعك "العجلة" حيث يشكلون العجين على هيئة دائرة كبيرة تشبه العجلة وعندما ينضج يرصون الكعكات فى القفف ويغطونه بملاءة نظيفة يخيطونها فى جدار القفة حتى يحين موعد نقله لبيت العريس مع "العشا" قبل الفرح بيوم أو يومين.

كان "العشا" من الواجبات الضرورية لأهل العروس نحو "نسايبهم" حيث يذبحون أغناما يتوقف عددها حسب مقدرتهم المادية وينظفونها ويرسلونها لأهل العريس كاملة دون تقطيع فتحمل قريبات العروس قفف

الذبائح والكعك على رؤوسهن فى موكب صغير يمر بالشوارع والدروب متلقيا التهانى والزغاريد المجاملة من العابرين أو الواقفين أمام أبواب البيوت. فى اليوم السابق ليوم الزواج تجرى طقوس "الدلكة" حيث تدلك القريبات والصديقات جسد العروس بطحين الطوب الأحمر أو الصينى ليغدو ناعم الملمس ثم ينزعن ما تبقى من الشعر والزغب بالحلاوة، وفى الليل تتجمع النسوة والبنات فى بيت العروسة احتفالا بالحنة حيث يضعونها على إيديهن وأرجلهن وتقوم إحداهن بالدق على الدربكة بينما الباقيات يرقصن ويغنين متغامزات على العروس التى ستدخل دنيا جديدة:

يا قميص السهراية
يا قميص النوم
حط يده على دراعى
لم جالى نوم
حط يده على كتفى
لم جالى نوم
حط موسى على عيسى
ولطشنى النوم

فى الصباح الباكر ليوم الفرح كانت أوانى الطبخ تجهز انتظارا لسلق لحم الذبائح لعشاء المدعوين للفرح، بعد أن ينتهى الرجال من الذبح والسلخ والتقطيع يبدأون فى لعبة التحطيب بالعصا التى يشاركهم فيها العريس مظهرا قوته وتفوقه فى ألعاب الرجال متجاهلا تعمدهم أن يتساهلوا معه حتى يغلبهم واحدا تلو الآخر، بعد العصر وعندما تنكسر قليلا أشعة الشمس اللاهبة يبدأ "المرماح" حيث يصطف

الناس فى صفين على مسافة كبيرة فى الطريق الرئيسى للبلد ليشاهدوا الخيول التى يقودها أصحابها وهى ترمح ذهابا وجيئة وسط صيحات التهليل والتصفيق على أنغام فرقة المزمار مثيرة الغبار بحوافرها القوية، ويدور بعض الفرسان على الناس فى مواقع مختلفة من طابورهم الطويل يستعرضون مهاراتهم فى تدريب الخيول على الرقص على المزمار بينما يتناقش الجمهور فى المقارنة بين الخيول الراقصة فيتحمس كل فريق لحصانه المفضل، بعد المرماح تذهب العروس بصحبة صديقاتها وقريباتها لزيارة مقام الشيخ عبد الله أعلى الجبل حيث تخلع حذاءها وتنحنى لتلمس الحصر المحيطة بالمقام ثم تقبل يدها وتقف أمام الضريح لتدعو الله فى حضرة الشيخ المبارك أن يبارك زواجها ويكتب لها السعادة ويرزقها بالذرية الصالحة، قبيل مغيب الشمس يكون المسرح قد نصب فى مكان الاحتفال لترقص فوقه الغوازى القادمات من قنا فى السهرة وقد رصت أمامه مجموعة من الدكك الخشبية ليجلس فوقها المدعوون المهمون من كبار البلد وضيوفهم من البلاد المجاورة، كان الناس يعتبرون يوم الفرح أيا كان أصحابه هو مناسبة عامة للبلد كلها كأنه يوم العيد أو يوم السوق وكان باعة الترمس والجلاب والفول النابت والبليلة (حمص الشام) والحلاوة الشعر يتوافدون على المكان فيأتى الأطفال وقد أخذوا مصروفا خاصا من آبائهم وأمهاتهم ليشتروا أشياءهم المفضلة، فى تلك الأثناء تكون العروس فى بيتها تستحم "حماية الدخلة" وبعدها تبدأ البلانة أو صديقة تفهم فى أمور التواليت فى تزويقها لتكون فى أبهى صورها، ويكون أصدقاء العريس وأقاربه من الشباب قد تجمعوا فى بيته ليحمموه وهم يداعبونه ويغنون له "الورد

كشح .. من عرق النبي فتح"، من هؤلاء الشباب كان العريس يختار واحدا ليكون خاله فى العرس، وعندما يكمل العريس ارتداء جلباب الفرح ووضع "الشملة" (الشال أو الكوفية) كان يمتطى صهوة حصان يكون قد استعاره من صاحبه ويمسك "الخال" مقود الحصان لبيت العروس لتركب خلفه ويلف العروسان بشريط من الشاش الأبيض حول وسطيهما، لحظة الوصول لبيت العريس تنطلق الزغاريد والطبل والأغانى ويحمل الخال العروس داخلا بها البيت حيث يضعها على السرير ثم يدخل عليها العريس بينما الناس خارج البيت ينتظرون لحظة خروجه ملوحا بالمنديل الأبيض المبقع بدم البكارة، عندها تنطلق الحناجر بالغناء:

قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى
بنتك أصيلة نورت الفرشة

كان "الخال" ملزما بالبقاء تحت إمرة العريس أسبوعا كاملا بدءا من ليلة الدخلة قابعا أمام باب البيت ليرسله العريس حيثما يشاء، إحضار شيء من بيت العروس تكون قد نسيته فى غمرة انشغالها قبيل ليلة الدخلة أو شراء سجائر من الدكان أو حتى إعداد الشاى أو الجوزة، دون أن يكون له حق الاعتراض أو التبرم مهما كانت غرابة الطلب أو مشقته فى تنفيذه.

فى الليل يصعد أعضاء فرقة المزمار البلدى إلى المسرح ليعزفوا للمدعوين مقاطع موسيقية مأخوذة عن الأغنيات الشهيرة التى تذاع فى الراديو أو الأغانى الصعيدية التراثية بينما الطبال يدق على طبلته راقصا ودائرا بجلبابه الواسع كالتنورة، ثم تصعد المسرح فرقة الغوازى،

بعد أن يكن قد استرحن من مشوار قدومهن من قنا وتعشين ودخّن فى ضيافة أهل العريس أصحاب الفرح، مرتديات فساتين دون أكمام مطرزة بالترتر ومفتوحة من الجانبين لتسهيل حركة الساقين أثناء الرقص، كن يبدأن بالرقص وغناء الأغانى المعتادة فى مناسبات الزواج أما عندما يتقدم الوقت وتتمكن الخمر من رؤوسهن ورؤوس جمهورهن فكن يتجرأن بأداء الحركات الخليعة وغناء الأغانى الصريحة التى تصف ما يحدث بين الرجل والمرأة فوق السرير بينما الرجال المخمورون يغدقون عليهن بآخر ما فى جيوبهم من جنيهات وقروش.



تشاغلت فاطمة عن أحزان غربتها بالاندماج فى الأحداث والطقوس التى تجرى حولها.

كانت منذ حطت قدماها تلك البلدة تتعامل مع ما تراه أو تسمع عنه كأنه لا يعنيها باعتبارها ضيفة عابرة شاءت ظروفها أن تحيا بعض الوقت فى تلك الناحية وسرعان ما ستعود لحياتها التى تعرفها، لكن طول المدة وانغماس أطفالها فى تلك الأحداث والتفاصيل جعلاها تندمج شيئا فشيئا فيها وعندما وجدت نفسها وحيدة تماما قررت أن تهرب من وحدتها بالانتماء للبلد التى تعيش فيها وللناس المحيطين بها، أن تعيش حياتها هنا دون أوهام ترتبط بأى مكان آخر، كانت تدرك أن عليها المحافظة على نفسها قوية وصلبة وأن تتعامل مع ما صار عليه زوجها كأنه محنة عابرة أو قدر ينبغى الرضا به حتى يشاء الله ما يشاء، قررت أن تحيا وتستمتع بما تجود به

الحياة كلما كان ذلك ممكنا حتى تستطيع المحافظة على أولادها أسوياء ولكى تحميهم من أن ينحرفوا أو يضيعوا أو تجرفهم الخرافات، أن تفعل ذلك دون أن تمنع استمتاعهم بالأساطير التى كان الناس يتعاملون معها كأنها حقائق أو العادات المتوارثة التى يمارسونها دون أن يعرفوا معنى لها، أن تشارك أولادها بطريقة ما وتجتهد فى تفسير ما يحتاج إلى تفسير حسب ما تعرف وبقدر ما تستوعب عقولهم.

كانت "البلابيصا" أول أسطورة تشغلها وتحرص على مشاركة أولادها فى الاحتفال بها، فخلال أيام من شهر طوبة كانت القرية تبدو محمومة بالنشاط، فأحواش البيوت كانت تمتلأ بلبش القصب التى يشتريها الرجال لبيوتهم حيث تنعقد جلسات مص القصب أمام الأبواب المفتوحة وفوق الأسطح، ثم يأتى يوم يعد الرجال والشباب العدة فيه للاحتفال الكبير، كان كل واحد من الكبار يغرس برتقالة فى طرف عود قصب ثم يغرس شمعة كبيرة فى البرتقالة ويوقدها، والصغار يصنع لهم الكبار فوانيس من الجريد لتوضع البرتقالة والشمعة داخل الفانوس لأن سواعدهم لا تحتمل حمل عود القصب والمشى به معظم الليل وكانت فاطمة تتفق مع حسين أن يصنع تلك الفوانيس لأبنائها مبكرا حتى يلحقوا بالاحتفال من أوله، بعد أن ينتهى الجميع كانوا يتجمعون أول الليل فى ساحة السوق ثم يبدأون الطواف بالقرية وربما يصلون للقرى المجاورة حيث يقابلون رجالها وشبابها وهم يغنون:

ها البلابيصا
يا على يا بنى
السنة فاتت

والمرة ماتت

والجمل برطع

كسر المدفع

تذكرت فاطمة أنها فى السويس فى مثل تلك الأيام والتى يقام فيها هنا الاحتفال بالبلابيصا كانت تزور جارتها أم فارس بصحبة أبلة أنيسة لتهنئاها بعيد الغطاس الذى يأتى فى أيام الشتاء الباردة وكانت الجارة تحكى لهم أنهم يعمدون الأطفال فى هذا العيد بتغطيسهم عرايا "بلابيص" فى الماء المقدس لينالوا البركة طوال حياتهم، إكتشفت فاطمة سر لفظ البلابيصا لكنها لم تعرف من هو على الذى يرد ذكره فى الأغنية أو من هى المرأة التى ماتت وما علاقة كل ذلك بجمل برطع فكسر المدفع.

تعجبت من احتفالهم واهتمامهم بمناسبة تخص الأقباط المسيحيين كما تعجبت من احتفالهم أيضا بسبت النور وأحد الخوص (السعف) وخميس العهد تلك الأيام التى تأتى قبل يوم عيد القيامة وتطبخ النساء فيها طبخات خاصة لكل يوم منها حريصات على أن تتناول أسرهن البصل الأخضر والحلبة الخضراء والخس، ولماذا يأتى يوم شم النسيم حيث يأكلون الملوحة والبصل فى اليوم التالى لعيد القيامة. كانت أم فارس تحكى لهن أن الأسبوع الذى يسبق شم النسيم وينتهى بعيدهم الكبير عيد القيامة هو "أسبوع الآلام" الذى صلب فيه السيد المسيح "يسوع" فى "أورشليم" على يد اليهود وقام بعد ثلاثة أيام من الصلب، وكانت فاطمة وصديقاتها من المسلمات يستمعن للحكاية دون تعليق وهن يسترجعن قصة النبى "عيسى" فى القرآن حيث ينص

كتابهن أنه لم يصلب ولكن شبه لهم، لكن ذلك لم يكن يمنع استمتاعهن بمناسبة العيد وحفاوة الجارة الطيبة، لم تبح فاطمة لأحد بذكرياتها التى تربط البلابيصا وشم النسيم بالعيدين المسيحيين لكنها احتارت كيف يحتفل أناس ليس بينهم مسيحى واحد بل ينتسبون لبيت نبى الإسلام بأعياد مسيحية بهذا الاهتمام.

رغم استمتاعها بطقوس البلابيصا إلا أنها كانت تحب يوم فطام الأرض أكثر.

لم تنتم فاطمة يوما لحياة المزارعين، فجدها وأبوها وعمها لم يكونوا منهم وعندما تزوجت كان نصيبها الإنتماء لعائلة يعمل رجالها فى البترول، كان خالها على هو الرجل الوحيد من أقاربها الذى يعمل فى الزراعة لذلك كانت علاقتها بحياة المزارعين علاقة ضيفة مدللة يحرص الجميع على إكرامها وراحتها ويحلفون عليها ألا تمد يدها فى أى عمل، وتأتيها خيرات الأرض من الفواكه والخضروات على الطبلية أو فى قفة يحملها أحد أبناء خالها وهو يوصلها لتركب الحلزونة عائدة لبيتها فى المخادمة، لذلك لم تعش يوما تفاصيل تلك الحياة وطقوسها التى كانت تسمعها من غالية التى يعمل معظم إخوتها فى زراعة الأرض الموروثة من الجدود، تذكرت فاطمة حكاية يوم فطام الأرض التى سمعتها من حماتها فى أيام السويس الهانئة فطلبت من غالية أن تذهب معها لبيت أهلها عندما يحين الاحتفال به لتشاركهم فيه، فى المرة الأولى أرسلت لها غالية ولدها هاشم فى المساء ليبلغها أن أمه ستمر عليها فى الصباح وهى فى طريقها لبيت أهلها فى أولاد مالك، كان أمين رضيعا

وقتها وتفكر فى فطامه فلفتت نظرها تلك الصدفة، فى الصباح جهزت الإفطار وانتهت من أعمال البيت الضرورية ثم حملت رضيعها ومشت مع غالية فى الشوارع والدروب الجانبية حتى وصلتا، أحست فاطمة وهى بين الناس بإحساس رائع عميق لم تجربه من قبل، شعرت بأنها وجدت نفسها الضائعة بين تلك الجموع الفرحة وأن فرحتهم وهى وسطهم تشفيها من كآبة الغربة، شعرت أنها تنتمى لهم رغم أنهم ليسوا أقاربها فطفرت الدموع من عينيها بينما غالية تربت على كتفها متفهمة معاناتها وأشواقها للسعادة الضائعة، وفى المساء عادت لبيتها وهى تنهج من فرط التعب ولكنها سعيدة بتلك الساعات التى صنعت فارقا فى حياتها وجعلتها أكثر ارتباطا بالبلد التى شاء الله أن تعيش فيها، وحرصت على حضور الاحتفال بفطام الأرض كل عام مصطحبة أولادها بعد أن صارت تعرف موقعه بين الأيام والشهور القبطية التى يعرف أهل البلد منها مواقع أيامهم المتشابهة.

8

عندما رأتها للمرة الأولى لم تصدق فاطمة أن تلك المرأة الضئيلة الجسد والتى ليس لها من جمال الأنوثة نصيب كبير هى الأخت الصغرى لحماتها التى كانت تحكى لها عنها فى جلساتهما الرائقة هناك فى السويس، ولم تكن تعرف أن تلك المرأة ستكون دون أن تقصد السبب المباشر فى "العيطة" (المعركة) التى كانت أول شيء دفعها

للتفكير فى حياتها ومصيرها ومصير أولادها بطريقة مختلفة واتخاذ قرار سيكون بداية لمرحلة جديدة فى حياتهم جميعا دون أن تستطيع تحديد الوقت المناسب لتنفيذه.

لم يكن كثيرون يعرفون اسمها الحقيقى، فلم تعرف "عائشة" بين الناس سوى باسم "البسطاوية" نسبة لاسم جدها البسطاوى، كانت تبدو أكبر من سنها ورغم أنها كانت فى حدود الخمسين أو أقل قليلا إلا أن الناس كانوا يعتقدون أنها أكبر من آمنة، ربما لقصر قامتها وضآلة جسمها وضعف نظرها الشديد إذ كانت تكاد لا ترى.

كان أكثر ما حير فاطمة فيها هو طبيعة علاقتها بأختها، شعرت فاطمة أن شيئا ما يعكر ما بين الأختين، لم تسأل أحدا بشكل مباشر عن ذلك لكنها تركته للأيام علها تكشف لها ما تعتقد أنه سر يغلف العلاقة بينهما. كانت البسطاوية امرأة عجيبة، أمية كبقية بنات جيلها فى تلك النواحى لكنها حكاءة من طراز فريد وتحفظ تفاصيل وقائع تاريخية وقعت فى العصور الغابرة وتفاصيل السير الشعبية الشهيرة وفى مقدمتها السيرة الهلالية وتتابع ما يذيعه الراديو خاصة القرآن الكريم الذى كانت تحفظ أصوات قارئيه وتستطيع أن تميز كلا منهم دون أخطاء، وكان بعض الناس يعتقدون أن لها علاقة بالعالم السفلى، عالم الجن والعفاريت بسبب قدرتها المذهلة على تهدئة "الممسوسين"، كانت الأمهات إذا أعيتهن الحيل فى تهدئة طفل رضيع أو مراهق ثائر يأتين لها فتضع يدها على رأس الولد أو البنت وتبدأ شفاهها فى التمتمة بينما يصدر من جوفها صوت يشبه قرقرة القطط وخلال لحظات يكون "الممسوس" قد هدأ وربما راح فى نوم عميق،

غير أن أكثر ما كان يميزها هو قدرتها السحرية على اكتساب قلوب الأطفال، كان أحفاد آمنة ينتظرون زياراتها المتباعدة ويتنافسون عليها لكى تقيم فى بيوتهم ما كان يشعل خناقاتهم التى تنهيها هى بتقسيم أيام زياراتها بين البيوت حيث كانت تتعمد إطالة الإقامة فى بيت أختها رغم ما تلاقيه منها من جفاء نظرا لارتباطها الشديد بمصطفى ابن أبو بكر وغالية.

بعد الهجرة مباشرة جاءت البسطاوية لتزور أختها وأبناءها وأحفادها القادمين من المدينة، لم تكن طوال حياتها قد ذهبت لمدينة فلم تعرف معنى لها غير أنها مكان أكبر من بلدها الشويخات يأكل فيه الناس أطعمة غير التى يأكلونها فى بلادهم الفقيرة ويلبسون ملابس غير التى يعتادها الناس فيها وكانت تخاف من الأشياء الحديثة كالسيارات والجرارات التى تصدر أصواتا مزعجة كأنها الوحوش أو الكائنات الخرافية التى تملأ الحواديت التى تحفظها وتقصها على الأطفال فتلون خيالهم بالرعب والمتعة، كانت تأتى من الشويخات إلى المخادمة ماشية تتكئ على عصا تهش بها الكلاب ويساعدها سمعها الحاد فى اكتشاف مكامن الخطر فتتجنبها، لكنها شيئا فشيئا قبلت أن تركب الحلزونة بعد أن صارت تعانى من آلام ركبتيها ونتيجة لإلحاح أبناء أختها وأولادهم. فى تلك الزيارة الأولى كانت فاطمة بالصدفة فى بيت حماتها تزورها وتزور غالية ونصرة وتطمئن على الرضيع مصطفى الذى مكث عدة أيام وليال لا يكف عن البكاء، عندما دخلت عليهم ألقت السلام وقامت آمنة لتسلم عليها وتأخذ بيدها للجلوس فى السقيفة، لم تكن آمنة قد رأت أختها طوال سنوات وجودها بالسويس

سوى مرتين فصل بينهما عدة أشهر عندما مات أبوهما ذات صيف وتبعته أمهما فى الشتاء الذى تلاه فجاءت آمنة فى المرتين وذهبت بمجرد انتهاء أيام العزاء الثلاثة، لم يكن أحد من أبناء أختها بالبيت وكان الأولاد يلعبون فى الخارج، تناهى لسمعها صوت بكاء الولد من الدور الثانى فسألت أختها:

- مين اللى بيبكى ده يا حاجة؟
- ده مصطفى ود أبو بكر.
- ود غالية، إندهيها تاجى بيه.

كانت آمنة تعرف فى أختها القدرة على تهدئة الممسوسين، ردت عليها:

- كفا الله الشر، الواد مش ممسوس يا خيتى، شوية ويروق.

لم تكن البسطاوية تعرف من كنات إختها سوى نصرة وغالية فالأولى تزوجت محمد قبل هجرة العائلة للسويس بعد وفاة هاشم والثانية هى قريبتها التى عرفتها طفلة قبل أن تسافر لأخيها فى السويس، عندما نزلت النسوة اللاتى كن مع غالية بالأعلى أقدمت نصرة لتسلم عليها، إحتضنتها بشغف وسألتها عن الحاج محمد وعن بناتها وأولادها، قالت آمنة:

- سلموا على خالتكم عيشة يا بنات.

توجهن إليها وعندما مدت فاطمة يدها شعرت بشيء خاص فى تلك المرأة التى بادرتها:

- إنتي فاطنة مرة عبد الله، ريحتك حلوة يا بنيتى وباين عليكى بنت حلال.
- ربنا يخليكى يا خالتى.
- قولى لى بسطاوية، عبد الله عامل كيا (كيف عبد الله)؟
- بخير يا خالة بسطاوية.
- والنبى اشتهيته، قوليله خالتك عايزة تشوفك.

ثم ضحكت ضحكة خافتة وهى تسخر من نظرها الضعيف وأردفت وهى مازالت تضحك:

- لا قوليله عايزة تشمك.

ابتسمت فاطمة ابتسامة الشفقة عليها وتذكرت شذرات من حكايتها التى سمعتها من آمنة وودت لو تسمعها من صاحبتها مباشرة، سلمت البسطاوية على كاملة وسألتها عن حسين ثم على زينب التى كانت تحمل مصطفى الباكى فأثنت على جمالها الذى لم تخطئه عينها الكليلة وتمتمت بما يعنى أن ربنا عوض عبد الرحيم بها، أخذت الرضيع إلى حضنها وأنفاسه تكاد تنقطع من حدة البكاء، ضمته و"دفست" رأسه فى الفراغ الواسع بين نهديها الصغيرين وجلست به على أرضية السقيفة وهى تتمتم بآيات القرآن وتمسد رأسه الصغير حتى نام، سألت عن غالية فأخبرنها أنها لم تنم منذ ليلتين بسبب بكاء الولد وأنهن أخذنه منها كى تستريح قليلا، مدت يدها بالولد لفاطمة وطلبت منها أن تصعد به لتضعه بجوار أمه، كان الوقت عصرا وظلت غالية وطفلها نائمين حتى صباح اليوم التالى،

منذها ارتبط الطفل بأخت جدته برباط خاص صار حديث العائلة زمنا طويلا.

كانت البسطاوية امرأة فقيرة لكن الفقر لم يكن يعنيها كثيرا، كانت تتعامل معه كجزء من قدرها الذى رضيت به ولم تكن تطلب من الدنيا سوى كسوة بسيطة ولقيمات تسد جوعها وكانت متعتها الكبرى أن تشرب أكواب الشاى المسكر واحدا تلو الآخر على مدار اليوم وأن تجد أرواحا وآذانا تسمع حكاياتها التى لا تنتهى، لذلك لم تبذل فاطمة جهدا كبيرا لتعرف حكايتها وتتوصل لسر الجفاء الذى لاحظته فى تعامل آمنة معها.

نشأت عائشة فى بيت أبيها الذى لم يرزقه الله من الذرية سوى بها ومن قبلها أختها آمنة، كانت عائشة فى العاشرة من عمرها عندما تزوجت أختها فى المخادمة وبقيت هى فى بيتهم بالشويخات ترعى أباها وأمها وتنتظر "العدل" الذى جاءها وهى لم تبلغ الثالثة عشر. كان الخاطب شابا من شباب القرية يعمل مزارعا أجيرا، كان قويا ووسيما والأهم أنه كان أبيض البشرة ما جعل الناس تتعجب أن يتقدم مثله لخطبة البنت القصيرة النحيفة العجفاء "السودة"، لم يجد أحد إجابة للسؤال لكن الجميع أرجعوا ذلك للقسمة والنصيب وتم الزواج الذى أثمر ولدا مات رضيعا ثم بنتين وقد ولدوا جميعا خلال السنوات الأربع الأولى من الزواج. منذ ليلة الدخلة شعرت عائشة بنفور من زوجها لم تدر له سببا فقد كان طيبا وعطوفا ورجلا مكتمل الرجولة فى السرير، كان فقيرا لكن الفقر لم يكن أيضا سبب نفورها منه فقد كان كل من حولها فقيرا يكسب عيشه يوما بيوم، عندما

ألمحت لأمها عن شعورها تجاهه نهرتها بشدة وحذرتها أن تفضحهم أمام الناس، استمرت بها الحياة ترعى طفلتيها وتنتهز الفرص لتقيم فى بيت أبيها تاركة زوجها فى البيت، حاول أن يفهم سر جفائها معه لكنه لم يصل لشيء فلم يلح عليها وتركها تفعل ما تشاء، تزوجت البنتان واحدة تلو الأخرى زواجا فقيرا وانشغلتا بأمور الحياة والأولاد وانشغلت هى بخدمة والديها قبل موتهما ثم أقامت بعده وحدها فى البيت الخالى متجاهلة كلام الناس الذين كانوا يتعجبون من أن تنفر مثلها من زوج يرونه أكثر مما تستحقه، لذلك بدأت همساتهم ونميماتهم وتكهناتهم أنها "مخاوية" خاصة وقد كانت مولعة بقصص الجن والعفاريت وتظل فترات طويلة وحدها فى البيت المظلم الخالى لا تقطعها سوى زيارات خاطفة للاطمئنان على بنتيها وأحفادها حتى حدثت الهجرة وجاءها خبر قدوم عائلة أختها للمخادمة فجاءت للسلام ثم توالت زياراتها قصيرة فى البداية ثم صارت تطول شيئا فشيئا استجابة للود الذى أبدته تجاهها كنات آمنة وتعلق الأحفاد بها لدرجة المنافسة عليها كى تبقى فى بيوتهم، كان الإخوة فى البيت الواحد يتنافسون على النوم فى حجرها فى الأمسيات حيث تحكى حكاياتها العجيبة بينما تمرر أصابعها فى شعر الطفل الذى يسند رأسه على فخذها وهى تدلك فروة رأسه ببطئ ووهدوء شديدين فيسرى الخدر اللذيذ فى الجسد المنهك من اللعب و"الهجى" (كثرة التنقل من مكان لآخر) طوال النهار فيظل محيرا بين رغبته فى تتبع الحكاية المثيرة التى يتلون فيها صوت البسطاوية مع الأحداث ورغبته فى الاستسلام لسلطان النوم الذى تستدعيه أناملها وهى تداعب رأسه، كانوا يحبون

حكاياتها الممتلئة بكائنات غريبة وقصور فارهة وأميرات جميلات وأمراء وسيمين وعرائس بحر وأبطال مغاوير وجنيات وعفاريت يضفى وجودها على الحكايات جوا من الرعب والإثارة يظل عالقا فى نفوسهم مجسدا عالما أسطوريا وغنيا يسرحون بخيالهم فيه ويستعيدون تفاصيله فى أحاديثهم أثناء اللعب.

لم تكن البسطاوية تحب الدخول فى تفاصيل علاقتها بأختها وكانت عندما تأتى سيرتها تتحدث عنها باحترام وتبجيل وتدعو لها أن يبارك لها فى أولادها وأحفادها الذين أكرموها فى ضعفها وآنسوا وحدتها ولم يبخلوا عليها بشيء فعاشت فى كنفهم الحياة التى حرمت منها، لكن فاطمة أدركت الفرق بين الأختين، كانت ترى حماتها امرأة قوية شاءت أقدارها أن تتحمل مسئولية أبنائها السبعة مبكرا وأن تواجه الحياة فى سن صغير دون رجل وكانت طبيعتها طبيعة امرأة صعيدية لا تتهاون فى مراعاة الأصول والواجب وتبث فيمن حولها قيمة المحافظة على العادات والتقاليد دون أن تهتم كثيرا بالمشاعر التى تراها ضعفا يجب ألا ينكشف أمام الناس، بينما كانت البسطاوية امرأة بسيطة حنونة و"غلبانة" زادها الفقر وذهاب البصر ضعفا على ضعفها الظاهر لكنها امتلكت قوة فى داخلها جعلتها قادرة على تحدى الجميع فى قرارها ألا تعيش مع رجل لم تستطع أن تحبه، رجحت فاطمة أن هذا ربما يكون العامل الأكبر فى تحديد طبيعة العلاقة بين الأختين ووجدت نفسها محيرة إلى أى جانب تتعاطف لكنها لم تتوقف عند ذلك طويلا فهى تحبهما معا رغم اختلاف كل منهما عن الأخرى. سألتها يوما:

- إنتي حفظتى كل الحكايات دى إزاى يا خالة؟

ضحكت المرأة ضحكتها الخافتة، ردت:

- يا فاطنة زى ما انتي شايفة وخابرة، أنا نظرى راح من مدة وكنت بقعد كتير لحالى (وحدى)، ما كنش قدامى غير الحكاوى مع النسوان العجايز والراديو، أنا أول واحدة جبته فى الشويخات، كان بيسلينى وسمعت منه حاجات كتيرة قوى وحفظت منه قرآن كتير.

- عشان كده بتعرفى أصوات المقرئين؟

- اللى حببنى فى سماع القرآن الشيخ محمد رفعت، كنت بابكى لما أسمعه، وبعدين كنت كل ما أسمع مقرئ أحفظ اسمه، كل واحد منهم ليه طريقة، مصطفى إسماعيل غير الحصرى غير البنا غير المنشاوى غير عبد الباسط.

- طيب ابقى قوليلى أساميهم لما نسمعهم بالليل.

سألتها يوما عن سر حبها لمصطفى ابن غالية فذكرتها أنه كان أول طفل تراه من أحفاد آمنة وأنها عندما احتضنته لتسكته عن الصراخ شعرت بألم لذيذ فى ثدييها كأنهما يريدان إرضاعه وعاد إليها إحساس قديم كادت أن تنساه بالأنوثة والأمومة وربما تهيأ لها أنه يشبه وليدها الذى مات رضيعا، المهم أنه من ذلك اليوم دخل مصطفى إلى قلبها ولم يكن هو يفارقها طوال بقائها فى بيتهم ويظل يلاحقها عندما تكون فى بيت عم من أعمامه.

لم يكن الحديث ينقطع بينها وبين البسطاوية طوال مدة وجودها ببيتها وهى تساعدها فى أعمال البيت ورعاية الطيور التى تربيها فى الحوش وكانت تسليها فى الأمسيات حيث يجلسان ومعهما زينب أبو زيد وبعض الجارات بينما يلعب الأولاد والبنات حول مجلسهن أو يستمعن إلى حواديتها التى كانت تنتظرها أيضا بشغف كأنها عادت طفلة، كانت تلك الأمسيات تخفف عنها ألم غياب عبد الله الذى سدت كل الطرق أمامها وهى تحاول استعادته ليشاركها عالمها الذى يتشكل من جديد.

9

إستمرت العيطة منذ الظهيرة حتى الساعات المتأخرة من الليل التى رأى الناس فيها للمرة الأولى سيارة الشرطة المحملة بالجنود المسلحين قادمة من المركز، لم يحدث قبل هذا اليوم ما يستدعى وجود الشرطة فى المخادمة، كانت الخلافات والمشاكل التى تحدث تحل بتدخل الكبار قبل أن تتسع دائرتها لأطراف أخرى وكانت أواصر القرابة والنسب بين العائلات كفيلة بإخماد الفتن قبل أن تتحول إلى معارك، وكان امتلاك السلاح فى تلك النواحى مقتصرا على عدد قليل من الناس من أصحاب الأراضى الكبيرة وحظائر تربية البهائم لحماية أنفسهم وثرواتهم من العصابات المسلحة التى تحترف السرقة أو تلك التى تستأجر لحرق المحاصيل أو قتل الخصوم، أما حوادث الثأر ومعارك الرصاص فكانوا يستمعون إلى تفاصيلها خلال تنقلاتهم بين القرى والمركز ويتبادلونها فى

جلسات السمر، كانت خلافاتهم تصل أحيانا لدرجة العراك لكنها لم تصل لاستخدام الرصاص أو القتل نهائيا رغم كل شيء أهل يجرى فى عروقهم نفس الدم ويتفرعون من نفس الجذر".

رغم أن رصاصة لم تطلق ذلك اليوم - الذى صار يسمى فى أحاديث ناس المخادمة بيوم العيطة - إلا أنه كان مختلفا.

كعادتهما من وقت لآخر اتفق عبد الله وأبو بكر على الذهاب لقنا لكسر الملل ولكى يزورا أخاهما محمود الذى لم يرياه منذ فترة، كان محمود يأتى لزيارتهم مصطحبا زوجته وولديه شوقى وسناء اللذين يبقيان أحيانا لقضاء أيام مع أولاد وبنات أعمامهم خاصة فى المسامحة الكبيرة وكان كل من يذهب لقنا لشراء شيء لا يتوافر فى المخادمة أو للكشف عند الطبيب أو حضور "ليلة النص" (ليلة النصف من شعبان وهى الليلة الختامية لمولد سيدى عبد الرحيم القناوى) يمر على بيت محمود ليسلم ويستريح و"ياكل لقمة" ويتبادل الأخبار والحكايات. يومها وصل الأخوان قنا فى الضحى فتمشيا قليلا فى الشوارع وتناولا ساندوتشات الطعمية التى يحرصان عليها كل زيارة فى محاولاتهما لاستعادة لمحات من حياتهما بالسويس حتى لو كانت عبر أشياء صغيرة كتلك، بعد الإفطار توجها للمقهى وقد قررا أن يذهبا لمحمود بعد أن "يحبسا" بالشاى، فى جلستهما لمحا "عباس أبو ستة" سائق الميكروباص بين المخادمة وقنا جالسا على منضدة قريبة معطيا ظهره لهما، عندما جاء الجرسون بالشاى صاح عبد الله:

- وهات شاى كمان للريس عباس على حسابى.

إلتفت الرجل إلى مصدر الصوت وعندما رأى وجه عبد الله مبتسما قلب وجهه ورد صائحا:

- ما عايزش شاى منيك يا وُد الداية إنت.

أدرك عبد الله أن الرجل يقصد معايرته بمساعدة أمه فى توليد نساء البلد، تلك العادة التى كانت تحبها لأنها تحب استقبال المواليد علىٰ يديها ولا تنتظر من وراءها شيئا لدرجة رفضها لتناول حتى كوب الشاى فى بيت الوالدة، عندما طلب عبد الله له شايا كان يحاول أن يبادره بالصلح بعد خلاف عابر حدث بينهما فى أحد الأفراح وهما تحت تأثير الخمر لكنه فوجئ بردة فعله وكلماته المسيئة لأمه، رد عبد الله:

- وإنت عرفت كيا إنها داية؟ كانت ولدت أمك فيك يا واطى؟ آدى أخرة المعروف فى اللى ما يستاهلوش.

بدأ الاشتباك الذى فض سريعا بعد أن فصل زبائن المقهى بين الطرفين، أسرع عباس خارجا متوجها لسيارته فتوقع الشقيقان أن الأمر ربما لم ينته بعد، مرا على شارع الصهريج فاشتريا عددا من الشوم وتوجها للموقف للعودة للبلد.

على الطريق الرئيسى للبلد كان حسين يصطحب خالته بسطاوية لتركب الحلزونة عائدة للشويخات، بينما كانا واقفين على جانب الطريق فوجئا بسيارة ميكروباص تندفع فى اتجاههما بسرعة وتكاد أن تصدمهما معا لولا أن حسين تنبه فحمل خالته بين يديه وقفز بها بعيدا، سقطا على الأرض وقد أدركت هى ما يحدث فانطلق صراخها

عاليا من الرعب والألم من أثر السقوط على ذراعها الذى اكتشف بعدها أنه قد كسر. فى تلك اللحظة كانت السيارة التى يركبها عبد الله وأبو بكر قد وصلت إلى المكان فانتبه من فيها لصوت الصراخ ونزلوا لاستطلاع الأمر، حكى حسين لأخويه ما حدث فبادره عبد الله بالسؤال:

- مين السواق يا حسين؟
- عباس أب ستة.

عاد عبد الله وأبو بكر للسيارة، نزلا فى ساحة السوق فوجدا بعض رجال عائلة أبو ستة مجتمعين بجوار سور المدرسة الإعدادية وفى أيديهم الشوم، جريا للبيت وأرسل أبو بكر ولديه هاشم وجبر، وابن أخيه خالد الذى كان موجودا معهم بالصدفة ليخبروا رجال عائلة أبو زيد بما حدث، بعد دقائق تجمع الرجال أمام البيت بالشوم بينما بدأت آمنة فى تجميع العلاوى والمواجير والدوار وحملها للسطح بمساعدة كناتها ونساء العائلة اللاتى هرولن إليها عند سماع الخبر بينما وضعن الشوم الذى اشتراه عبد الله وأبو بكر من قنا بجوار الباب من الداخل لإمداد من يحتاج إليه من الرجال به عند احتدام القتال.

لايذكر أحد كيف بدأت المعركة فقد تحولت الساحة والشوارع الجانبية لها فجأة إلى ساحة حرب، التحم الرجال وأخذ كل منهم يسدد للآخر اللكمات وضربات الشوم فى كل مكان تطوله يده، مع مرور الوقت كان عدد المتصارعين يزيد حتى امتلأ المكان بأجساد الرجال التى تصببت عرقا ودما وتصاعدت تأوهات بعضهم من تأثير

ضربات الشوم على الأذرع والسيقان والرؤوس، احتدمت العيطة فاستدرج رجال أبو زيد خصومهم ناحية بيت هاشم أبو زيد فصار من يحاول الهرب منهم هدفا سهلا لنساء فرقة آمنة اللاتى اعتلين سطح المنزل ليلقين عليهم الأشياء التى جمعنها، لم تقتنع زينب أبو زيد بما تفعله النساء فطلبت من غالية جلبابا من جلابيب زوجها، ارتدته وربطت شالا على رأسها وخرجت وفى يدها شومة قاتلت بها كالرجال لتعوض غياب أخيها أبو زيد الذى لم يظهر فى العيطة محتجا بمرض أبيه وبقائه بجواره، وقفت فاطمة تتابع المعركة من خلال الباب المفتوح وهى تبكى خوفا على عبد الله وتردد مولولة:

- قولتله بلاش إحنا ورانا عيال ما سمعش كلامى.

استمرت العيطة حتى الليل وكانت محصلتها النهائية كثيرا من الجرحى معظمهم من عائلة أبو ستة لكن أحدا لم يمت، عندما جاءت قوات الشرطة كانت المعركة قد حسمت لصالح عائلة أبو زيد وكان رجالها رغم جرح بعضهم سعداء بأنهم أدبوا عباس وأهله وردوا كرامتهم، قبضت الشرطة على عدد من رجال العائلتين كان من بينهم عبد الله وأبو بكر وعبد الرحيم وعباس واثنان من إخوته بينما استطاع حسين التخفى فى الظلام فلم يقبض عليه وسافر لقنا فى الصباح ليختبئ فى بيت أخيه محمود بناء على تعليمات أمه، حشر الرجال فى سيارة الترحيلات التى انطلقت عائدة بهم إلى قنا، فى الطريق للمركز ورغم الألم الذى كان يشعر به فى ذراعه كان عبد الله ينظر مبتسما لوجه عباس الذى ملأ الدم وجهه وتورمت عيناه.

بعد كتابة المحضر وحصر المقبوض عليهم والمطلوبين أخذ المصابون للمستشفى لإسعافهم حيث تبين كسر فى ذراع عبد الله لف الطبيب جبيرة حوله، فى غرفة الحجز كان الجميع فى انتظار تحويلهم للنيابة وقد أدركوا الحماقة التى أقدموا عليها وهم أقارب من نفس البيت بيت أولاد مرعى ينبغى عليهم أن يحلوا خلافاتهم بالأصول، كانوا قد علموا أن أحد رجال بيت أبو زيد قد شج أبو بكر رأسه بضربة شومة لكنه رفض أن يشتكى للمركز حرصا على "ود عمه" الذى أصابه واتفق مع تمورجى الوحدة الصحية أن يغير له على الجرح كل يوم.

كان محمود يأتى بالطعام للمركز للجميع فيجتمعون عليه كأسرة واحدة وهم يتبادلون الحديث والتنكيت ويطلقون الضحكات ما أدهش الحراس والضباط من أولئك الخصوم الذين يأكلون معا ويتبادلون القفشات والسجائر وينتهى حديث كل منهم للآخر بكلمة "يا با خوه" (يا أخى). فى البلد كان العقلاء من الجانبين وعلى رأسهم الحاج "طلب" شيخ البلد الذى كان نسيبا وقريبا لعائلة أبو ستة والحاج محمد كبير أبناء هاشم أبو زيد ومعهما عدد من رجال العائلتين الكبار قد اجتمعوا فى بيت العمدة وبحضوره واتفقوا على إنهاء الموضوع بالتصالح والتنازل وشكلوا وفدا على رأسه الحاج طلب للتحدث مع الرجال فى الحجز والتدخل لدى المركز وتواعدوا على السفر لقنا فى الصباح الباكر، ليلتها مات الحاج أحمد أبو زيد بعد مرض لم يستمر طويلا فطلب شيخ البلد من ولده أبو زيد ألا يدفنه إلا بعد عودتهم.

رغم حزنه على وفاة الحاج أحمد رأى شيخ البلد أن موت الرجل سيكون خير معين له فى إقناع الضباط ووكيل النيابة بغلق الموضوع، دخل الوفد على مأمور المركز الذى رحب بهم وبادره شيخ البلد:

- حضرة المأمور إحنا خابرينك زين، راجل بتفهم فى الأصول.
- خير يا حاج.
- لينا طلب وياريت ما تخزيناش (ما تكسفناش)، دلوقيتى اللى فى الحجز دول كلهم ولاد عم ومن جدر واحد وفيه كبير من كبراتهم مات فى الليل وعايزينهم يعاودوا معانا المخادمة عشان ندفنه قبل العشية.
- إزاى يا شيخ البلد؟ دا المحضر خد رقم وخلاص راح النيابة.
- عشان خاطرنا كلم وكيل النيابة وإحنا نعمل محضر صلح، عايزين ندفن الراجل وانت سيد العارفين إكرام الميت دفنه.

ترك الرجال مكتب المأمور وتوجهوا للحجز، صاح شيخ البلد فى الجميع:

- هى كلمة واحدة، إنتوا كلكم ولاد عم، الحاج أحمد أبو زيد اتوفى فى الليل وعاوزين نعاود البلد ندفنه قبل العشية، فضوها وبلاش قلة قيمة قدام الناس، اتصالحوا وخلونا نعمل الأصول.

وجم الجميع وتطلعوا فى أوجه رجال العائلتين الذين جاءوا معا دون ضغينة، ترقرقت عينا عبد الله بالدموع، كان يحب عمه الراحل ويحفظ له الفضل فى وقوفه بجانبهم ودفعهم للعمل فى البترول، تأثر عباس بدموع عبد الله وتوجه إليه:

- البقية ف حياتك يا ود عمى وحقك على.
- تعيش يا عباس، الضفر ما يطلعش م اللحم يا با خوه.

قرأوا الفاتحة على الصلح ونسيان الأمر بعد أن اشترط عبد الله أن يذهب عباس لأمه الحاجة آمنة البسطاوى ليطلب منها السماح، سوى المأمور الأمر مع وكيل النيابة الذى أصدر قراره بحفظ التحقيق وصرف المحبوسين وأنهى المأمور الإجراءات سريعا، كان محمود وحسين فى انتظار الجميع خارج المركز وقد جهزوا سيارات تكفى الجميع للعودة للبلد على الفور، قبيل مغيب الشمس ساروا فى الجنازة جنبا إلى جنب وفى الليل فتح الديوان وتجمع رجال البلد يستمعون للقرآن وأخرجت الصوانى من البيوت ليتعشى المعزون وهم يتبادلون الأحاديث حريصين ألا يذكروا وقائع الليلة الدامية. فى الصباح توجه عباس بوجهه المتورم بصحبة أمه وزوجته ليزوروا الحاجة آمنة ويراضوها، أشارت آمنة للمرأتين:

- اتفضلوا اقعدوا يا خياتى، وانت ما تقعدش غير لما نسمع كلامك.
- يا حاجة العفو والسماح انتي كبيرتنا وما نقدرش على زعلك، كانت زلة لسان.
- يبقى تقعد وتستنى الشاى.

بمرور الوقت صار يوم العيطة حدثا عابرا يحكى للتسلية فى جلسات الرجال تحت اللبخة وفى أمسيات النساء أمام البيوت ولعبة يلعبها الأولاد حيث يقسمون أنفسهم لفريقين ثم يجرون قرعة تحدد أيا من الفريقين سيمثل بيت أبو زيد وأيهما سيكون بيت أبو ستة

وتشترط اللعبة أن يكون العراك صوريا دون عنف وأن تكون الغلبة فيه لفريق أبو زيد دون اعتراض من الفريق الآخر وأن يتبادل الفريقان موقعهما حتى يملا من العراك.

لكنه كان بالنسبة لفاطمة كابوسا مفزعا أدركت بسببه أن استمرار بقائهم فى المخادمة هو الهلاك بعينه فماذا ستفعل إذا جاءوا إليها بعبد الله مدرجا فى دمه بضربة شومة أو طلقة رصاص أو طعنة سكين هو الذى يوغل فى نزقه وحدته لأبعد مدى؟.

***

مضت الأيام والشهور ثقيلة على الجميع، كبر الأطفال الذين ولدوا فى السويس وولد إخوة لهم فى المخادمة وضاق الحال أكثر بينما لا تظهر فى الأفق أية إشارة لتغير الحال، كان حسين قد طلب من صديقه على توفيق فى زياراته الشهرية لتسليم المرتبات أن يبحث له عن شقة إيجار بجواره فى الوايلى، كان يفكر أن ينتقل للقاهرة لعله يجد هناك فرصة لحياة أفضل من تلك التى يعيشها هنا بجنيهات راتبه الأساسى القليلة والتى لم تزد بينما زاد عدد أولاده بعد أن أنجبت له كاملة بنتين فصاروا أربعة، وجد له صديقه شقة صغيرة جاهزة للسكن بإيجار معقول فأعلن لأمه وإخوته أنه راحل للقاهرة، وفى بدايات العام 1974 استقر حسين وأسرته فى القاهرة حيث أخبرهم فى إحدى خطاباته أنه فتح دكانا لبيع الخردوات قريبا من سكنه بالحى الشعبى وألحق أولاده بالمدارس القريبة ودعاهم لزيارته، لم تبذل آمنة جهدا لإقناع ولدها بالبقاء حتى يأذن الله بعودتهم جميعا للسويس فقد كانت

تدرك أنه لم يعد يحتمل ضيق الرزق خاصة مع ارتفاع الأسعار وزيادة طلبات الأولاد فتركته يتصرف كما يريد وهى تشعر بغصة فى حلقها فها هو أحد أولادها يفارقها وحيدا دون أخ يؤنسه فى غربته الجديدة ويذهب بعيدا عنها هى التى لم تسامح محمود لأنه أقام فى قنا التى لا تبعد عنها سوى دقائق بالسيارة فما بالها بمسافة يقطعها القطار فى أكثر من نصف يوم، برحيل حسين شعرت أن عقد أبنائها ينفرط فعادت لتلعن الحاجة وضيق الرزق وتحن لأيام السعة والرغد عندما كانت تفاخر نديداتها بأولادها الخمسة الذين يعملون فى الشركة وخاصة ولدها عبد الله عضو النقابة وصديق المديرين والمهندسين وصاحب الكلمة المسموعة لديهم.

بعد شهور من رحيل حسين وأسرته للقاهرة جاءها عبد الرحيم قائلا:

- أنا راجع السويس يا مه.

ضربت على صدرها وصرخت:

- بووو، والحرب يا عبد الرحيم.
- يا مه الحرب خلصت والسادات شكله مش ناوى يحارب تانى والمفاوضات شغالة.
- ما ليش صالح (لا شأن لى) باللى بتقوله، يا ولدى الصهاينة ما لهومش أمان.
- ما تخافيش يا حاجة، يعنى عاجباكى عيشتنا؟، أنا هافتح دكانى والأعمار بيد الله.

حاولت كثيرا أن تثنيه عن قراره دون جدوى وحاول إخوته أن يقنعوه بالانتظار حتى يعودوا معا خاصة أنهم سمعوا بقرب انسحاب إسرائيل من حقول البترول فى بلاعيم لكنه أصر أن يعود وحده مع زوجته وأبنائه، كانت زينب قد أنجبت له فى المخادمة بنتا وولدين وكانت كبرى بناته أمانى قد بلغت السابعة وأنهت الصف الثانى الإبتدائى منذ أيام فحزم عبد الرحيم وزينب متاعهما القليل وسافرا بعد وداع سريع لم تنقطع فيه دموع آمنة التى أوصت ولدها بالحذر وقراءة الفاتحة فى مقامى "الغريب" و"الأربعين" حتى يحفظه الله من كل سوء.

أما فاطمة فلم تكف منذ يوم العيطة عن الإلحاح على عبد الله أن يرحلوا وقد بلغ رعبها مداه عندما عاد إليها ذات ليلة شاحبا بينما اتسخ جلبابه بالوحل، كان معه أبو بكر الذى حكى لها باقتضاب أن أحدهم كان يتربص بعبد الله مختبئا فى الزراعات المنتشرة على طريق عودته من "القناوية" بعد حضور فرح لكنه ظهر فى الوقت المناسب لينقذ أخاه، وعدها أنه لن يهدأ حتى يعرف من الذى كان سيؤذى أخاه وإن كان صاحب خصومة معهم أم أن أحدا "كراه" (إستأجره)، نظرت إلى زوجها بإشفاق وسألته بلهفة:

- وإيه اللى وسخ جلابيتك كده؟

رد أبو بكر:

- معلاهش أصل الراجل هجم ع البغلة فخافت ووقعت عبد الله ف الطين.

لاحظت أن قوائم البغلة وبطنها متسخة أيضا فأدخلتها الحوش وأجلت تنظيفها للصباح، ظلت تبكى وهى تغير له ملابسه وتغسل له وجهه ورأسه بينما هو مستسلم لها دون أن يواجه عينيها اللتين يعرف نظرتهما جيدا.

لم تكن الخمر هى خصمها الوحيد، فقد لاحظت أن عبد الله لم يعد يقربها إلا نادرا، أراحها ذلك لكنه لم يرضها، توجست أن مشاويره إلى قنا لم تكن بريئة تماما خاصة وأنها تشك وتسمع ما يعزز شكوكها حول طريقة معاملة عبد الله لنسوة "الحلبة" (الغجر).

كان الحلبة مجموعات من الرحل تأتى من أطراف قنا يدورون على القرى ويمكثون فيها أياما ثم يرحلون، مع مرور الوقت استراحت جماعة منهم للمخادمة فاعتادت المجئ إليها كل عام فى موسم حصاد "القيضى" (الذرة العويجة) لتتسول نساؤهم أرغفة البتاو من بيوت البلد ويساعدن أحيانا فى أعمال الخدمة بالبيوت، ويعمل رجالهم فى الحدادة باستخدام "الكير" حيث يصلحون حدوات الحمير والخيل وأسلحة النوارج (النورج هو آلة زراعية بدائية يجرها حيوان وهى عبارة عن مجموعة من أسلحة حديدة مقوسة تستخدم فى درس القمح أى فصل حباته عن السنابل)، واختار عدد منهم منذ أيام ما قبل الهجرة مكانا بالقرب من بيت هاشم أبو زيد ينصبون فيه خيمتهم وكيرهم ويتلقون عطفا من أهله وجيرانهم حتى صار يطلق عليهم "حلبة هاشم أبو زيد"، كانت نساؤهم بيضاوات ذوات شعر أصفر يلبسن ثيابا مهلهلة تكشف عن أجزاء من أفخاذهن البضة وصدورهن الناهدة ولم يكن سلوكهن متحفظا كنساء البلد "الشريفات" فلا شيء يمنعهن من

تبادل الحديث مع الرجال وربما الضحك بجرأة معهم وقضاء حاجتهن فى الطرقات إذا لم يجدن بيتا يفتح لهن ما جعلهن محطا للشكوك رغم فقرهن وربما بسببه.

توالت المواقف والشكوك التى كانت تؤكد لها ضرورة الرحيل وتوالت غضباتها لدى عمها دكرونى وخالها على بالبطاطخة حتى قررت فى إحداها أن تغضب عند أبيها فى مصر، باحت بالسر لصديقتها زينب أبو زيد التى حاولت أن تهدأها وتقنعها بألا تفعل لكنها وجدت فيها إصرارا وعنادا لم تعهدهما فيها من قبل، لم تخبرها فاطمة أنها قررت ألا تعود للمخادمة ثانية مهما حدث، ذهبت لتودع حماتها دون أن تخبرها بأمر رحيلها، تذكرت قصة هجرة آمنة وأولادها إلى السويس والتى كان عبد الله هو بطلها، وجدت أن شيئا مشتركا بين قصتها وقصة آمنة فإذا كانت حماتها قد فقدت رجلها بالموت وهاجرت لتنقذ أولادها من حياة لا أمل فيها، فقد فقدت هى رجلها وهو على قيد الحياة وآن الأوان لتنقذه وتنقذ أولادها من مصير صار يلوح لها كالكابوس، بكت وهى تسلم عليها ما أثار اندهاش آمنة التى دعت لها:

- ربنا يهدى سرك يا بتى.

خلال اليومين التاليين أعدت خطتها وجهزت لرحيلها دون أن تلفت انتباه عبد الله الذى فوجئ بها توقظه من النوم فى الفجر، همست:

- خد بالك يا عبد الله من نفسك ومن نهى وأمجد؟

- خير يا فاطنة إنتي رايحة فين؟
- مسافرة مصر عند أبويا وهاخد معايا خالد والعيال الصغيرين.
- ليه بس يا بت الناس؟ اقعدى نتفاهم.
- خلاص يا عبد الله مفيش وقت سيبنى ألحق قطر سبعة.

لم يجادلها كثيرا، كان يشعر بالتعب والإشفاق عليها والندم لما آلت الأمور إليه بينهما، خرج إلى السقيفة، كان خالد وأمين ومايسة يرتدون ثياب الخروج ويقفون بجوار الحقيبتين اللتين وضعت فيهما فاطمة ثيابهم وتبدو على وجوههم فرحة يشوبها الانكسار فهم مسافرون لمصر التى كان السفر إليها حلما بعيد المنال ولكنهم كانوا يدركون بفطرة الأطفال أن وراء ذلك السفر شيء خطير وقع بين والديهما، دخلت فاطمة للغرفة التى وضعت فيها الرضيع "أسامة" بجوار أخويه النائمين نهى وأمجد، قبلتهما حتى بللت وجهيهما بدموعها وحملت الرضيع وخرجت، قبل عبد الله أبناءه وسلم على فاطمة وعندما اطمأن أنهم ابتعدوا عن البيت بدأ النحيب وجرت دموعه التى لم تجر منذ يوم موت عبد الناصر، كان يفكر ماذا سيقول لولديه النائمين عندما يستيقظان فيجدان البيت خاليا من أمهما وإخوتهما، وماذا سيقول لأمه وإخوته إذا سألوه كيف لم يحافظ على امرأة مثل فاطمة، لحظتها أدرك عبد الله كم أوغل فى عبثه بحياته وحياة أسرته وكم أهان نفسه واسمه الناصع الذى صنعه بالعمل الدؤوب طوال سنين.

تمنى أن يكون ما يحدث كابوسا سوف يصحو منه عما قليل، لكنه لم يكن.

10

عندما وصل القطار محطته الأخيرة وبدت معالم الرصيف المزدحم بالناس شعرت فاطمة أنها خلال الدقائق القادمة ستخطو خطوتها الأولى فى عالم جديد لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها فخفق قلبها خوفا ولهفة، كانت قد أيقظت أطفالها الذين راحوا فى النوم مع انتظام سرعة القطار ورتابة صوت هزاته على القضبان بعد أن قضوا ساعات طويلة يطلون من الشباك على الأرض التى تفر أمام أعينهم ومشاهد البلاد التى يمرون عليها، أمرتهم أن يعدلوا ثيابهم التى تجعدت من النوم الطويل والعرق الذى ظلت تجففه لهم طوال الطريق وأن يمسكوا بأيدى بعضهم البعض، توقف القطار فحمل خالد إحدى الحقيبتين بيد وأمسك باليد الأخرى يد أمين الذى تشبثت مايسة بساعده الآخر وجرت فاطمة الحقيبة الأخرى وهى تحمل رضيعها على يديها ومشت خلفهم ونظرها لا يفارق الطابور الصغير حتى نزلوا من القطار فتقدمتهم إلى كافيتريا المحطة حتى رأت أخاها محمد واقفا يتطلع فى أوجه القادمين من ناحية القطار بحثا عنهم، نادت عليه فجرى ناحيتهم وسلم عليهم وحمل حقيبة أخته وهو يشير لهم إلى طريق باب الخروج من المحطة، كانت الشمس قد غربت وبدأت الأنوار تتلألأ فى الميدان الذى يتوسطه تمثال رمسيس المهيب، أخذ الصغار بالمشهد وأبطأت خطواتهم وزاغت عيونهم فى جنبات الميدان الفسيح بينما فاطمة تزعق فيهم بلهفة:

- إمشى يا خالد، مد يا أمين، اجمدى يا مايسة، حاسبوا من العربيات.

وصلت القافلة الصغيرة إلى محطة قطار المرج فوضعوا الحقيبتين على أرضها وذهب محمد وخالد لشباك التذاكر، فى عودتهما أخذ خالد يتفحص التذاكر الورقية الصغيرة محاولا قراءتها، بعد دقائق ركب الجميع القطار المزدحم وأخذ محمد يقرأ لخالد أسماء المحطات التى بدت غريبة على سمعه "غمرة" "الدمرداش" "منشية الصدر" وغيرها ويشرح له المعالم التى يمرون بها، إنبهر خالد وأمين بقصر القبة الذى يبلغ طوله ثلاث محطات كاملة وبحركة السيارات المسرعة فى الشوارع الواسعة واللافتات التى تعلو الدكاكين ويحمل كل منها اسما كتب بخط كبير كتلك الخطوط التى يكتبون بها على جدران بيوت الحجاج فى المخادمة. عندما تحرك القطار من محطة "المطرية" نبه محمد أخته أنهم سينزلون فى المحطة التالية "عين شمس"، شرح لها أن أباه اختار السكن فيها كى يكون قريبا من بداية قطار السويس الذى يبدأ منها على بعد خطوات من المكان الذى سينزلون فيه وأن أباه يستيقظ كل يوم مع الفجر ليركب قطار السويس الذى يمر بعجرود ويعود به فى المساء كل يوم. مشوا فى الشوارع الضيقة الرطبة حتى وصلوا للبيت، كان الريس عبد المطلب قد عاد من عمله وجلس منتظرا وصولهم حتى يتغدوا معه بعد سفرهم الطويل، بعد السلام والأحضان والدموع تناولوا طعامهم وذهب الأولاد ليلعبوا مع أخوالهم بينما انفرد عبد المطلب وسرية بابنتهما لتحكى لهما ما جعلها تقرر الرحيل إلى القاهرة.

فهم عبد المطلب دوافع ابنته ورأى نظرة التصميم فى عينيها وهزه نشيجها وهى تحكى بمرارة وخيبة أمل عما عانته هناك فى الصعيد فلم يلح عليها كثيرا فى أن تراجع نفسها، كان يعلم أنه ضغط عليها فى كل المرات التى جاءت إليه غضبى كى تعود لزوجها لكن الأمر يبدو هذه المرة أكبر من قدرته على الضغط أو قدرتها على الاحتمال، عندما استراح لتلك النتيجة قرر أن يمنحها الوقت كى تستريح وأن يشجعها على البوح بما تفكر فيه ثم يساعدها دون إجبار أو إكراه.

استراحت فاطمة واستمتعت بحنان أمها وأبيها واستمتع أولادها بوجودهم فى بيت جدهم بين أخوالهم وبهرتهم تفاصيل الحياة فى القاهرة، استرجعت فاطمة ما مر من حياتها وهى تحاول اكتشاف موطن الخلل، كانت تقدر الظروف العصيبة التى وجد فيها عبد الله نفسه وتعذره فى عدم قدرته على احتمال صدمة الهزيمة وما سببته من انهيار عالمه الذى كان يبنيه بجهده وأحلامه وتدرك مدى ارتباطه بعمله الذى جعله يشعر بذاته وقيمته أمام نفسه وأمام الناس، كانت تعرف فيه اعتزازه الشديد بنفسه وعدم تقبله لفكرة أن يكون محتاجا ولذلك اهتم بأن يجتهد فى عمله بالجزارة لكى يكون له دخل يكفيهم وتحفظ له أنه لم يبخل عليها وعلى الأولاد وأنه وفر لهم حياة لائقة كانت مثار حسد الكثيرين، لكنه حرمهم الحنان ولم يرعهم كما ينبغى فألقى عليها بالحمل الذى تحملته كثيرا ومستعدة لتتحمله عنه إذا هو أشعرها أن هناك أملا فى عودته، لكنها ناءت به عندما تأكدت أن ذلك الأمل يبتعد فى كل لحظة تمر من عمرها المسروق، كانت تسأل نفسها ألم تتعرض هى وغيرها لنفس الصدمة، فلماذا أهمل عبد الله نفسه ورضى

أن يبدو أمامها وأمام الناس بما لا يليق به ولم يحاول أن يقاوم كما قاومت هى وغيرها، أم أن ثقته فيها جعلته يركن إليها معتمدا على أنها ستصون بيتها وأولادها فانطلق وراء نزواته ومتعه أو وراء ضعفه وقلة حيلته، كانت توقن كل لحظة أن قرارها بالرحيل هو القرار الصائب وتلوم نفسها أنها تأخرت فى اتخاذه، هداها تفكيرها أنها لا بد أن تتعامل مع الأمر باعتبار زوجها مريضا مسلوب الإرادة مشوش التفكير وأن قدرها أن تحل محله فى اتخاذ القرارات المصيرية المتعلقة بحياتهم وأن تكمل دورها لإنقاذ أسرتها وتكملة الطريق الطويل.

لاحظت سرية ميل ابنتها للصمت وكانت تقرأ فى عينيها أن هناك فكرة تختمر فى ذهنها، تركتها حتى تبوح بما تفكر فيه دون استعجال، ذات مساء وبينما كان الأولاد منشغلين فى اللعب جلست مع والديها يشربون الشاى، قالت:

- أنا عايزة أدور على شقة هنا يا بابا.

- ندور يا فاطنة بس قوليلى بتفكرى فى إيه.

كان الرجل منذ قدوم ابنته يظن أنها سوف تطلب الطلاق وكان مهموما بالتفكير إذ كيف سيتدبر الأمر إذا وقع الطلاق، أين ستقيم ومن أين تنفق وما موقف ولديها اللذين تركتهما هناك فى المخادمة، وهل يوافق زوجها على الطلاق أم أن باب المشاكل سيفتح على مصراعيه، خمنت ما يدور بذهنه:

- ما تقلقش يا بابا مش ها طلب الطلاق، أنا مش هابهدل ولادى وبعدين أنا باعتبر عبد الله مريض وهاصبر عليه لحد ما يخف.
- عين العقل يا فاطنة.

بدأ عبد المطلب رحلة البحث عن شقة مناسبة بالإيجار، سأل فى نطاق أقاربه ومعارفه ممن يسكنون حوله وسأل زملاءه فى العمل، أخبره زميل له من الأشراف يسكن فى السويس أن قريبا له يسكن فى حى حلمية الزيتون بالقرب من محطة القطار قرر العودة للسويس، أخبره أن قريبه هذا تاجر يمتلك بيتا وعدة محلات فى شارع النمسا وشارع الكسارة فى السويس وأنه أغلق محلاته عند وقوع الحرب وأقام بالقاهرة حيث استأجر محلا فيها ليكسب عيشه فى فترة الهجرة وآن أوان عودته ليفتح محلاته قبل أن يستولى عليها أحد وأنه سوف يترك شقة الحلمية ليعفى نفسه من إيجارها الكبير، طلب منه عبد المطلب أن يأتيه بعنوان الشقة ففعل الرجل وهو يعدد ميزات المكان ويمدح أخلاق صاحبها الذى حج بيت الله، أخبره أنه من أولاد مرعى وقريب زوج ابنته الباش ريس عبد الله، تفاءل عبد المطلب وذهب للعنوان دون أن يخبر ابنته بالأمر حتى يحدث الحاج أحمد صاحب الشقة، استقبله الرجل استقبالا طيبا ودار بينهما الحديث عن عائلات الأشراف وأصولها وعلاقات النسب بين أهلى المخادمة والبطاطخة، كان الرجل يعرف فاطمة زوجة "ود عمه الباش ريس عبد الله" فأثنى على أخلاقها وأصلها، شكره عبد المطلب وفاتحه فى أمر الشقة، قال الرجل:

- زى ما انت شايف الشقة واسعة وف مكان كويس وما تتعزش على ود عمى.
- ربنا يديم المعروف، بعد إذنك هاجيب أم خالد تشوف المكان واللى فيه الخير يقدمه ربنا.
- تشرفوا فى أى وقت، أنا موجود كل يوم بعد الضهر.

عندما عاد للبيت بشر فاطمة وأخذ يصف لها الشقة ففرحت وأحست بالأمل يسرى فى نفسها، كانت تتحرق شوقا لنهى وأمجد وتشعر كأن سكينا شق قلبها عندما تأتى صورتاهما فى عين خيالها فتنهمر دموعها، منت نفسها أنها خلال أيام سترسل لعبد الله تلغرافا كى يأتى بهما مع ما يصلح من عفشهم ليستقروا فى "مصر" ويعود عبد الله لعمله فى الشركة ولنفسه التى ضلت منه ليعلما أولادهما ويفرحا بهم.

جرت الأمور كما تتمنى، طلب الحاج أحمد مبلغا إتفقوا أن يقسطوه على أقساط شهرية واتفق مع صاحب البيت أن يغير العقد باسم المستأجر الجديد بعد إتمام السداد ووافقت فاطمة على زيادة الإيجار التى طلبها المالك، أرسلت لزوجها تلغرافا "إحضر حالا مع الأولاد والعفش .. لقيت شقة تكفينا وفى منطقة كويسة .. مستنياك".

فوجئ عبد الله بالأخبار، كان قد مر على سفرها حوالى شهرين تعذب خلالهما بالندم وهو يرى نظرة الانكسار فى عيون ولديه خاصة نهى التى كانت تحاول وهى الطفلة ابنة الثانية عشر أن تقوم بدور أمها فى أعمال البيت كى ترضيه وفى العناية بأخيها الصغير وتسليته عن

غياب أمه، وكان يلاحظ بقايا الدموع فى عينيها رغم مجاهدتها أن تخفيها عنه، كانت نظرتها تسأله لماذا فعلت هذا بنا وبنفسك؟، عندما جاءه التلغراف شعر أن روحه ردت إليه وأن الدنيا تصالحه من جديد فقد جاءت الأخبار بقرب عودتهم للعمل بعد انسحاب الصهاينة من بلاعيم وأبو رديس، كان يتمنى أن يعود للسويس لكن فاطمة اختارت أن تعود للقاهرة ربما لتبقى بجوار أهلها الذين اغتربت عنهم كثيرا لتشعر بالأمان فى قربهم بعد أن بدده هو لديها، قرر أن يبدأ من جديد فتوقف عن الشرب وحضور الأفراح وركز فى عمله ورعاية ولديه حتى جاءه طلب فاطمة بالسفر، فى البداية أسر لنهى بالخبر فتبدل حالها ورأى السعادة تغمرها والحماس يملؤها وعندما أتم التجهيز للسفر أخبر أمجد وأوصاه ألا يبلغ أحدا، ذهب لأمه ليسر لها بأنه "مسافر مصر" وأنه ربما يبقى هناك إذا أعجبته الشقة التى وجدتها فاطمة هناك، قال لها أنه يريد أن يبقى ذلك سرا بينهما فهو لا يعلم كيف ستصير الأمور وأنه عما قريب سيراهم جميعا عند عودتهم للسويس التى اقترب أوانها بعد أن أعاد السادات افتتاح القناة وتواردت الأخبار عن انسحاب الصهاينة من حقول البترول فى سيناء، ذهب إلى قنا وأتم إجراءات شحن العفش فى قطار البضائع على أن يتسلمه فى محطة مصر، حجز تذاكر السفر وذهب لمدرسة قنا الثانوية الذى تقدم إليها خالد بعد حصوله على الإعدادية ليسحب ملفه ليقدم له فى مصر، وأجل سحب ملفات نهى وأمجد وأمين من مدرسة المخادمة الإبتدائية لليوم السابق على سفره حتى لا ينتشر خبر رحيلهم، شحن العفش فى سيارة وسلمه فى قنا، إبتسم بمرارة وهو يحاول أن يتذكر

عدد المرات التى كان فيها رفيقا للعفش، شعر أن حياته قد تهالكت كما تهالك الأثاث من كثرة "الشيل والحط" لكنه أمل أن تكون تلك الهجرة هى آخر الهجرات، وفى فجر يوم السفر أيقظ ولديه وتسحب بهما فى الظلام ليلحقوا بالقطار.

بعد استقرارهم بالقاهرة أرسل خطابا باسم أخيه أبو بكر يبلغه فيه بأخباره فجاءه الرد بعد أسبوعين أنهم يجهزون أنفسهم أيضا للعودة للسويس بعد أن أبلغهم على توفيق أن عودتهم للعمل بسيناء صارت قريبة وأنهم سيسافرون خلال أيام، وفى بداية شهر نوفمبر من العام 1975 كانت كل العائلة قد تركت المخادمة لتصير أيامها ذكرى يعودون إليها فى قادم أيامهم.

السويس – القاهرة (1975 - ....)

فى السنوات التى تلت هجرتهم من المخادمة للسويس والقاهرة عاشت "قبيلة آمنة" كل الأحداث والتحولات الكبرى التى مرت على البلاد، كان الكبار منهم يرون عالمهم القديم ينهار أمام عيونهم وعبد الناصر زعيمهم الملهم وهو يتحول إلى ذكرى باهتة تلوكها بالسوء ألسنة السادة الجدد، وإسرائيل التى يكرهون سيرتها وهى تتحول لدولة صديقة بعد أن تعهد السادات أن أكتوبر هى آخر الحروب معها ومضى فى طريقه لعقد معاهدات السلام مع زعمائها، وأمريكا قائدة الإمبريالية العالمية كما كان يسميها ناصر وهى تتحول لدولة راعية للسلام وتملك 99 فى المائة من أوراق اللعبة، وتصير مصر مجرد دولة تابعة فى فلكها بعد أن كان العالم يحبس أنفاسه انتظارا لما تقول أو تفعل، غير السادات وجهته وأخذ يمشى وراء خطوات ناصر "ليمحوها بأستيكة" كما كانت تقول النكتة الشهيرة حينها فبدأت مرحلة الانفتاح الاقتصادى التى ظهرت آثارها فى ارتفاع الأسعار وبداية موجات الهجرة للخليج وغيرها فاهتزت الثوابت واختلت الموازين، رغم شعورهم بالراحة لأنهم لن يواجهوا رعب الحرب ولن يضطروا للهجرة بعد الآن إلا أنهم لم "يبلعوا حكاية السلام" فالصهاينة مازالوا يحتلون قطعة من أرضهم فى سيناء ويرتعون فى "أرض فلسطين السليبة" كأنهم سيظلون سالبيها للأبد، لكنهم عاشوا يكدحون ليربوا الأولاد ليصيروا رجالا ويزوجوا من يجئ عدلها من البنات.

عاشت آمنة حتى اقترب عمرها من التسعين عاما وحظيت بالمزيد من الأحفاد الذين ولدوا فى السويس والقاهرة بعد العودة، وأصيبت فى سنواتها الأخيرة بأمراض الشيخوخة وآلامها، ماتت وقد امتلأ بيت الهويس بأحفادها أولادا وبناتا وظهر جيل أبناء الأحفاد فى زيارات هدى وليلى للسويس واستقبلت هى بيديها الابن الأول لحفيدها هاشم وهو ينزلق خارجا من رحم أمه وبلغ أحفادها الأصغر سنا أو كادوا يبلغون سن التخرج والزواج، ماتت بعد أن خبرت مرارة فقد الضنى مرتين فقد سبقها للموت ولدها محمود بعد أن أصيب بمرض القلب ومات قبل أن يكمل الستين ثم ولدها البكرى محمد بعد بضع سنين من خروجه على المعاش.

شهدت فى العشرين عاما الأخيرة من حياتها المديدة عالما جديدا يتشكل حولها لم تعد هى مركزه، كان "الفلاحون" قد غزوا "الشركة" التى كانت تعتبرها جزءا من عالمها الراسخ فقد كان خمسة من أولادها الستة وزوج ابنتها الوحيدة يعملون بها والتى شكل الأشراف وخاصة أشراف المخادمة الغالبية العظمى من العاملين فيها فى الخمسينيات والستينيات، لكنها امتلأت بعد ذلك بالرجال من كل الجهات صعايدة وشراقوة ومنايفة وإسكندرانية، وعبد الناصر التى جرت وراء قطاره المكشوف يوما وكادت تدهسها أرجل المزدحمين لينالوا نظرة إليه، الذى أنصف الفقراء وأمم القناة وبنى السد صار طاغية تسبب فى الهزائم والتخلف، والسويس التى كانت مدينة أحلامهم أصابها التشوه من أثر الخراب رغم محاولات الإصلاح السريعة ونشأت فيها أحياء جديدة قبيحة المبانى وامتلأت بالغربان والغرباء الذين جاءوا من

كل مكان، وصارت المخادمة التى عاشت فيها عمرا مكانا غير الذى تعرفه فقد كان القادمون منها للزيارة أو الزواج أو البحث عن عمل يحكون لها عما حدث لها:

"فاكرة ياحاجة مكان ديوان ولاد مرعى، رجعوا الباب البرانى بتاعه لورا وعملوا بوسطة وسنترال وبنوا مدرسة ثانوى جنب المدرسة الإعدادى".

"عارفة يا حاجة الأرض الخلا اللى شرق البلد اللى كان فيها المنبر اللى كنا بنصلى العيد عنديه، إتملا عماير طوب واسمنت فيها شقق زى اللى هنا".

"يا حاجة إنت لسه فاكرة إن الناس بتركب الحمير، دى العربيات الملاكى دلوقيتى مرصوصة قدام البيوت"

" يا حاجة ماحدش النهارده بيدور يشتغل فى الشركة، الشباب كلهم عايزين يسافروا السعودية والكويت يشتغلوا ع البراريم اللى بتقبضهم بالدولار وبرجعوا يهدوا بيوت أبهاتهم ويبنوها بالطوب والاسمنت .. دى المخادمة دلوقيتى بيسموها تكساس".

سألت حفيدها هاشم عن تكساس تلك فأخبرها أنها ولاية فى أمريكا تشتهر بالبترول، مصمصت بشفاهها وأزاحت من خيالها كل ما كانت تسمعه لتبقى صورة المخادمة القديمة وفى القلب منها بيتها وقبر زوجها كما كانت فى الزمان القديم، زمن هاشم أبو زيد.

صار حديثها عن الأشراف وأصلهم الكريم مثارا لاعتراض أحفادها وتهكماتهم بعد أن "أفسدهم" اختلاطهم فى المدارس والجامعات بأبناء

"الفلاحين"، وأصبحت خطتها فى تزويج أحفادها بحفيداتها ضربا من الأحلام التى تجترها يوما بعد يوم فلم تشهد فى حياتها سوى زيجتين فقط لحفيدين بحفيدتين لها وتمت الثالثة بعد موتها بسنين، أما باقى الأحفاد الذكور فقد تزوج بعضهم من بنات عائلات الأشراف والباقى من بنات "الفلاحين" وتزوجت الحفيدات جميعهن من رجال من قبيلة الأشراف فى قنا والبحر الأحمر والسويس إلا واحدة كان قطار الزواج على وشك أن يفوتها فأصرت على أن تتزوج من فلاح تقدم لأبيها وظل سنتين منتظرا حتى رضخ الرجل تحت ضغط البنت وتهديدها بقتل نفسها.

كان الوهن قد أصابها ولم تعد صحتها كما كانت لكن ما عز عليها هو ضعف نظرها، كانت نهى فى زيارة لها يوما وقد جاوزت الثمانين، وقفت أمام باب الشباك المفتوح وأشارت إلى حفيدتها الشابة كى تنظر معها، قالت:

- واعية (شايفة) يا نهى العمارة الطويلة اللى هناك دى؟
- أيوة يا ستى شايفاها.
- نظرى راح يا بت ولدى ومش قادرة أشوفها زى زمان.

ضحكت نهى وربتت على كتفها:

- ربنا يديكى الصحة وطولة العمر يا ستى.

ثم قبلتها وهى تدارى ضحكتها.

كانت تذهب للقاهرة من وقت لآخر للكشف عند الأطباء والبقاء أياما عند ولديها عبد الله وحسين، لم تكن مصابة بمرض محدد ولكنها تعانى من الأعراض المعتادة فى الشيخوخة كانخفاض كفاءة

أجهزة الجسم والتهابات المفاصل وضعف النظر وكان الأطباء يصفون لها الأدوية الحديثة التى كانت تجربها فلا تخفف آلامها فتنحيها جانبا وتوصى عبد الله سرا أن يبحث لها عن "حتة أفيون"، كان عبد الله ينجح أحيانا وعلى فترات متباعدة فى تدبير قطعة صغيرة منه فيزورها فى السويس ويضعها فى كفها عند السلام دون أن ينتبه أحد، أسرت غالية لأبو بكر أنها لاحظت أن عبد الله لا يزورهم إلا فى أثناء وجوده بالجبل وأن حالة الحاجة تتحسن ونشاطها يزيد عقب كل زيارة له، شك أبو بكر فى الأمر وقرر أن يفاتحه فى الأمر عندما يلتقيه فى أبو رديس، ذات مساء كانا يجلسان فى صالة سكنهما يتسامران بعد يوم عمل، سأله أبو بكر فجأة:

- ما تعرفش تتصرف لأمك فى حتة أفيون يا باشريس؟
- ليه هى طلبت منك؟
- يا عبد الله بلاش لف ودوران أنا عارف إنك بتجيبهولها.

إبتسم عبد الله لكن أخاه لم يبادله الابتسام، قال محتدا:

- يا بوى كبدها تعبان والأفيون يتعبه أكتر وبعدين الدكاترة كاتبينها لها دوا.
- زى قلته يا بكر، أمك تعبانة وراقدة على طول ما تخليهاش تقضى يومينها اللى فاضلين وهى بتتعذب.
- ما هم الدكاترة ..

قاطعه عبد الله بحدة أشد:

- الدكاترة، الدكاترة، يا أخى هم الدكاترة دول ربنا، ده ربنا نفسه ساعات ما بنسمعش كلامه.

لم تهزمها الآلام لكن هزمها ما فعله هاشم فى زلزاله الذى ضرب العائلة ووصلت توابعه إلى عائلات الأشراف فى البراجيلى واتسعت موجاته حتى وصلت إلى المخادمة وغارب والغردقة والواحات والقاهرة، لم يكن أول الزلازل لكنه كان الأقوى.

دخل هاشم على أمه عائدا من القاهرة مساء يوم ظهور نتيجته بكلية الهندسة، كانت غالية مريضة ولم يكن رآها منذ عدة أيام، سلم عليها بلهفة فطمأنته أنها بخير "شوية تعب ويرحوا لحالهم"، بشرها بنجاحه وحصوله على البكالوريوس فنهضت من رقدتها وقد دب النشاط فى بدنها العليل وطفرت دموعها فرحة بابنها البكرى، أخذته فى حضنها وقبلته:

- مبروك يا باشمهندس، قلت لستك؟.
- لا، لقيتها نايمة.
- روح فرحها هى ما نايماشى دى تلاقيها راقدة من التعب.
- حاضر يا مه بس كنت عايزك ف موضوع.

قال لها أنه انتظر هذا اليوم طويلا ليطلب منهم ما سوف يطلبه، وأنه يتمنى منها أن تفهمه وتسانده، توجست المرأة فسألته:

- خير يا هاشم.
- أنا بحب بنت زميلتى فى الكلية وعايز أتقدم لها.
- ومين من الأشراف عنده بت فى الهندسة؟

- ما فيش يا مه، أصلها مش من الأشراف.

دبت غالية على صدرها وهى تحاول ألا يخرج صوتها عن الغرفة حتى لا تسمع حماتها أو أحد من أبنائها، حمدت ربها أن أبو بكر فى الجبل، شعرت أن هذه جذوة نار لابد أن تطفأها قبل أن تصير حريقا، سألته:

- تاجى منك انت يا هاشم؟ ده أنت أول فرحتى وأكبر ولد ولد هاشم أبو زيد، عايز الناس تاكل وشنا؟
- ليه يا مه هو الحب والفرح حرام؟
- وهى الشريفة ما تفرحش عاد؟

إستبد بها الغضب لحظة ثم خفق قلبها عندما طالعت نظرة الألم فى عينى وليدها وغلبها الحنان، إقتربت منه وهو جالس على حافة السرير، قالت بصوت خفيض:

- يا ولدى ربنا يهديك، إنت كبير وعاقل وعارف إن أبوك وستك هيولعوها نار لو سمعوا حديتك الماصخ ده.
- حديتى مش ماصخ يامه، أنا بحب ومش عايز إتجوز من وراكم.
- ياه يا هاشم، للدرجة دى .. طيب إعمل اللى ف مصلحتك بس ما تصدرنيش لأبوك وستك.
- بتتخلى عنى يا مه؟
- أنا بامنعك من الغلط.
- وفين الغلط إنى أخطب وأتجوز، هما الفلاحين مش ناس زينا؟

- آه م الكتب وقعدتك ف مصر اللى بوظوا عقلك .. إطفى النور يالله عايزة أنام، بوظت عليا فرحتى بنجاحك.

عندما حصل هاشم على الشهادة الثانوية بمجموع يؤهله للالتحاق بكلية الهندسة رفض والداه رغبته أن يدرس فى هندسة القاهرة قسم البترول، قال له أبوه لماذا تدرس فى القاهرة ولدينا فى السويس كلية خاصة لهندسة البترول والتعدين وليس مجرد قسم، واعترضت أمه على أن يتغرب بعيدا عنها فيعيش وحيدا "عيشة العزاب" دون أن يهتم أحد بطلباته، كان ذلك أول خلاف كبير بين هاشم وبينهما إذ أصر على رغبته محاولا إقناعهما أنه يريد أن يلتحق بجامعة القاهرة العريقة ليدرس فيها منهجا قويا على أيدى أساتذتها الكبار ويستفيد من مكتبتها المليئة بالمراجع والدراسات التى سوف تفيده وترفع مستواه، لم يكونا يشكان فى سلوكه وأخلاقه لكنهما خافا أن يبقى فى القاهرة الكبيرة دون عائلة تتابعه وترعاه وخشيا عليه من أصدقاء السوء الذين يغرون الشباب بما لا يحبان أن يصدر عن ولدهما الذى كان مثالا للأدب، لم يقتنعا بمنطقه وشعرا أنه يبتزهما لينال الفرصة للانطلاق فى القاهرة دون رقيب ولم يكن ذلك بعيدا عن حقيقة ما يفكر فيه، كان ينتظر تلك اللحظة ليرتبط بالقاهرة العاصمة، بشوارعها وأحيائها القديمة، بآثارها ومتاحفها وأماكن النزهة فيها، بمسارحها ودور السينما بها، بالندوات الثقافية والمنتديات السياسية والمكتبات، كان كل ذلك يمثل عالما سحريا يملك عليه نفسه، لم يكن حلمه أن يصير مهندسا فحسب بل أن يصير مثقفا يفهم الحياة ويملك خبراتها ويستمتع بمتعها البريئة وكانت السويس

أصغر من أن تتسع لحلمه الكبير، بعد إلحاح دام طوال فترة التقديم رضخ الوالدان لما يريد بعد أن أسمعاه شروطهما ووافق عليها، إشترطا عليه أن يقضى نهاية الأسبوع فى السويس وأن يزور عميه عبد الله وحسين كل أسبوع وألا يسهر بالخارج لأى سبب وأن يهتم بدراسته قبل كل شيء فإذا لم يحصل على تقدير جيد على الأقل لن يكمل الدراسة فى القاهرة.

فى البداية تنقل هاشم ضيفا بين بيتى عميه أياما إلى أن وجد شقة مفروشة صغيرة فى وسط القاهرة استأجرها رغم إلحاح عميه وزوجتيهما أن يبقى كما يحب لكنه وجد أن إقامته عند أحدهما سيقيد أهل البيت ويقيد حركته هو، كما أن وسط القاهرة مركز الأحداث والقريب من الجامعة هو المكان الذى يتفق مع أحلامه فى التوحد مع روح المدينة، مضت أيامه بين الدراسة والتصعلك المحسوب هادئة بعد أن التزم بكل شروط والديه وبث الطمأنينة فى قلبيهما بالنجاح كل عام بتقدير جيد واعتزامه أن يسعى للحصول على تقدير جيد جدا فى السنة النهائية.

فى بداية السنة الأخيرة من دراسته الجامعية رآها لأول مرة، كان خارجا لتوه من مناقشة حامية مع طالب ملتح يرى أن السادات كان طاغوتا وأن قتله من أعمال الجهاد فى سبيل الله، وكان هاشم يحاول إقناعه أن السادات كان حاكما مستبدا تجب مقاومته بأساليب السياسة التى يصل مداها للثورة عليه وليس لقتله، فقتل حاكم يمنح الحاكم الجديد دائما مبررا جاهزا للقمع والبطش والقتل أيضا ليجنب نفسه مصير سلفه وأن الحل هو توعية الناس ليطالبوا بحقوقهم

السياسية والاقتصادية حتى ينتزعوها بالطرق السلمية كالمظاهرات والإضرابات والاعتصامات وصولا للعصيان المدنى، عندما طالت المناقشة واحتدمت تكونت حلقة من الطلبة حولهما وقد انقسموا بين الرأيين ثم انصرفوا عندما لم تبد أى فرصة للاتفاق على نقطة التقاء. فجأة شعر هاشم أنه يسير وسط خضرة شاسعة تمتد حتى الخط الفاصل بين الأرض والسماء بينما النسيم المعطر برائحة الفواكه يداعب صفحة وجهه، لم يكن قد جرب مثل تلك النشوة من قبل لكنه فى نظرة هاتين العينين الخضراوين كان يعاين الجنة ويذوق حنان الله، غمرته السكينة فامتلك شجاعة لم تكن لديه أمام النساء، سألها:

- إنتي معانا ف الكلية؟
- أيوة فى سنة أولى عمارة.
- ممكن أعزمك على حاجة؟

لم ترد لكنها تحركت ونظرها يتجه ناحية الكافيتريا التى تبعد خطوات عنهم ففهم أنها قبلت الدعوة، تحدثا طويلا حول المناقشة التى كانت السبب فى لقائهما، أخبرته أنها تؤيد رأيه وأنها تكره العنف والتطرف وتحلم بعالم يسوده السلام والعدل والحرية، تأثر بمثاليتها ورقتها وذابت روحه فى سحر جمالها وهدوءها الأخاذ، أتاه اليقين كأنه الوحى أن تلك التى تجلس أمامه كملاك ترتشف فنجان قهوتها بشفتين تشبهان زهرتين قانيتين، والتى لم يمض على رؤيته لها للمرة الأولى سوى دقائق، ستكون امرأة حياته.

عرف أنها من السويس وأنهم هاجروا وقت النكسة لبلدهم فى منيا القمح بالشرقية وأن لهم قطعة أرض صغيرة هناك لكن والدها لا يعمل فى الزراعة ويؤجر الأرض لمن يزرعها وأنه موظف فى الشهر العقارى وأنهم خمسة أشقاء ثلاثة صبيان وبنتان هى كبراهما، فى اللقاءات التالية وجد نفسه ينطلق فى الحديث كأنه يعرفها منذ زمن، أخبرها أنهم ستة أشقاء كلهم ذكور وأن أمه ما زالت تحلم بإنجاب بنت رغم كبر سنها وخطورة الحمل عليها، حدثها عن عمل أبيه وأعمامه الأربعة فى "الشركة" وحديثهم الدائم عن البترول وكيف غرسوا فيه دون قصد حلمه أن يصبح مهندسا متخصصا فيه، حدثها عن جدته آمنة، عن أمه غالية وأبيه أبو بكر، وعمه عبد الله وزوجته فاطمة، عن البسطاوية وعن سنوات الهجرة وتفاصيل حياتهم خلالها فى قرية بعيدة كأنها على أطراف الدنيا لا يعرف أحد اسمها الغريب، عن الأساطير والحكايات والطقوس والألعاب التى شكلت جزءا من وعيهم ورؤيتهم للعالم، وعن الألم الذى سببته الهزيمة لأهله والذى لم يستطع النصر أن يزيل كل آثارها فى نفوسهم، لكنه لم يحدثها عن القبيلة وتحريمها زواج أبنائها من غير بناتها، لم يشأ أن يعكر صفو علاقتهما الواعدة وقرر أن يلبى نداء قلبه المفتون، أن يبحر فوق صفحة نهر عينيها الرائق ما وسعه الإبحار قبل أن تواجهه خيول الموج الجامحة الحرون، وقبل أن تعصف بحبه العواصف والأنواء التى سيأتى حينها لا محالة كالقدر.

تفائل باسمها "أمل" وجرفه تيار حبه لها فقرر الانتظار حتى تخرجه ليفاتح أهله، كان يدرك أنه مقبل على صراع مرير لكنه كان موقنا أنه يمتلك القوة التى ستنهى الصراع لصالحه، الحب. كانت خطته أن

يخطبها ثم ينهى خدمته العسكرية ويلتحق بالعمل ثم يتزوجا بعد فترة مناسبة يكون قد استعد خلالها للزواج وتكون هى قد تخرجت، لم يفاجأ بموقف أمه ونوى أن يفاتح أباه عند عودته، إتصل به تليفونيا وأبلغه بنجاحه بتقدير جيد جدا فانتشر الخبر فى أبو رديس وجاء الرجال يهنئون أبو بكر ويمازحونه أن ولده سيكون "ريس عليه" عما قليل، أجابهم:

- وماله، علمنا مهندسين كتير كانوا عاملين ريسا علينا، يعنى جات على عيالنا؟

إنفرد به مساء يوم عودته للبيت ليفاتحه فى الأمر، جلسا فى الصالة وكانت آمنة راقدة فى غرفتها كعادتها منذ اعتلال صحتها، نهره أبو بكر وهدده أن يتبرأ منه إذا عاد للموضوع مرة أخرى، كانت آمنة بين الغفوة واليقظة فأتاها حديثهما الذى بدأ خافتا كأنه "خروشة" الراديو لكنها تنبهت وأرهفت السمع عندما بدأ صوت ولدها يعلو محتدا على ولده، فهمت أن الأمر يتعلق بالزواج لكنها لم تدرك سبب انفعال أبو بكر وتهديده، غادرت سريرها وهى تتسند على الجدران، كان هاشم قد غادر البيت وأبو بكر جالسا على الكنبة واضعا يده فوق رأسه غير منتبه لحركتها، وجدها فجأة فوق رأسه:

- مالك يا وليدى بتزعق لولدك بدل ما تفرح بنجاحه؟

رفع وجهه إليها، كانت عيناه تنطقان بخيبة الأمل، جاهد أن يخرج صوته طبيعيا:

- ما فيش يا حاجة، أهو جلع (دلع) عيال ماصخ.

- ما بتعرفش تكدب يا بكر.
- اقعدى يا مه ارتاحى هاقولك.

أخبرها فدبت على صدرها وهتفت بصوت متهدل:

- يا مرى.

لم يجل بباالها يوما أن هاشم، الذى فرحت به كانه ابن بطنها وربته على يديها ليكون كبير عائلة هاشم أبو زيد فى الزمن القادم، سيخالف ما ظلت تؤكد عليه طوال حياتها وما استقرت عليه عاداتهم طوال قرون، أن يكون -هو حفيدها الأول- من سيجعل ألسنة الناس تلوك سيرتهم بالسوء وتسمعهم ما لا يحبون ويفتح للقادمين بعده إخوته وأبناء أعمامه الأصغر طريق التمرد، لم تحتمل البقاء جالسة بعد أن تكاثفت آلامها مما سمعته للتو فعادت إلى غرفتها وهى تتمتم بالدعاء "سترك يارب".

حدث ما يشبه القطيعة بين هاشم ووالديه وجدته، لاذوا بالصمت فى حضوره عسى أن يراجع نفسه ويصرف النظر عن الموضوع وراهنوا على الوقت، كان هاشم يستعد للالتحاق بالجيش ففضل ألا يفتح بابا للمناقشة فيعقد الأمر، كان يحبهم ويتمنى ألا يغضبهم لكنه لم يكن على استعداد أن يتخلى عن حبه مهما كلفه ذلك فرأى أن يدير الصراع بسياسة النفس الطويل خاصة أن الوقت لم يكن ضاغطا عليه فحبيبته مازال أمامها سنتان للتخرج، جاء تجنيده الذى استمر خمسة عشر شهرا فى موقع عسكرى ناء بصحراء الشرقية ناحية الصالحية فكان يلتقى أمل حسب جدول أجازاته التى كانت أسبوعا بعد شهر

من الغياب، فى الأجازة الصيفية كان يراها فى السويس حيث ينطلقان لبور توفيق فيقضيان وقتا قصيرا حتى لا تثير أمل شكوك أهلها بعد أن طلب منها هاشم أن تؤجل إخبارهم حتى يستطيع إقناع أهله بالموافقة على زواجهما، أما فى فترة الدراسة فقد كان يلقاها فى الكلية حتى تنتهى من محاضراتها فينطلقان إلى وسط القاهرة ويقضيان اليوم كله معا وربما يبيت فى بيت عمه عبد الله أو عمه حسين حتى يلتقيها مرة أخرى أو أكثر، لم تكن مستريحة لذلك الوضع لكنها تفهمت ظروفه ووافقت على مقابلاته لأنها لا تملك سوى أن توافق، رغم حزنها من تعنت أهل حبيبها كانت تحبهم دون أن تراهم وتتفهم أنهم أسرى عاداتهم وتقاليدهم التى كانت لديهم أقوى من مشاعرهم ووعيهم وأقوى من تأثير الدين أيضا، حكى لها هاشم مرة عن إحدى قريباته التى كانت حريصة على زيارة قبرى والديها صباح أيام الأعياد فنصحها أحدهم بأن تجعل الزيارة فى ثانى يوم لأنها حرام فى العيد فردت عليه "ده لو ربنا نفسه نزل وقاللى ما روحلهمش يوم العيد برضه ها روح"، كانت تود أن يكون لهاشم أخت ربما تحبها وتكون عونا لهما فى إقناع أهلها ولم يكن مناسبا أن تتعرف على إحدى بنات أعمامه لتقوم بذلك الدور فقد كان مؤكدا أنهن سينظرن إليها كخصمة خطفت ابن عمهن وحرمتهن من احتمال أن يختار إحداهن كما كانت جدته وأمه تخططان، أنهى هاشم تجنيده وصار جاهزا للالتحاق بالعمل، كانت علاقته بأبيه لم تزل على حالها فلم يكونا يلتقيان إلا مرات قليلة لا يتبادلان فيها سوى كلمات خاطفة وقد شعر كل منهما أن الآخر مازال على موقفه لم يتزحزح عنه، لم يطلب من أبيه أن يساعده فى

تقديم أوراقه للشركة لكنه لجأ لعمه الحاج محمد الذى تولى الأمر حتى عين هاشم بها، إكراما لأبيه وأعمامه خيره المدير الكبير فى المركز الرئيسى بالقاهرة والذى سيعمل تحت رئاسته بين العمل فى أبو رديس أو فى أبو ماضى وشرح له الفرق بين الموقعين، كانت أبو ماضى الأفضل بالنسبة لمهندس حديث التخرج لأنها منطقة إنتاج غاز والخبرة فيه نادرة لكنه فضل أبو رديس شارحا للمدير أنه يرغب فى اكتساب خبرة البترول السائل ثم التحول للغاز إذا واتت الفرصة، نظر إليه الرجل نظرة ماكرة فقد ظن أنه يريد أن يعمل تحت رعاية أبيه وأعمامه ليستفيد من علاقاتهم، لم يكن هاشم من ذلك النوع من الشباب لكنه أراد أن يكون بالقرب من أبيه لعل قربهما يعيد علاقتهما فيرق قلب أبيه ويوافق على زواجه من أمل كما أن حلمه أن يكون مهندس بترول بدأ فى أبو رديس عندما سمح للعاملين باصطحاب أولادهم ليتعرفوا على موقع عمل آبائهم بعد تحريره من الاحتلال، فاصطحبه أبوه مع أخيه جبر مرتين خلال أجازات صيف المرحلة الثانوية وجاء أولاد أعمامه مع آبائهم ليقضوا معا أياما يستمتعون فيها بالبحر وبالأكل مع الرجال فى "الميز" ومشاهدة أفلام السينما التى تعرض على شاشة بيضاء كبيرة تشد على حائط حيث كان يحب أن يجلس بجوار ماكينة العرض مراقبا الرجل الذى يشغلها مبهورا بالأشعة الخارجة منها للشاشة البيضاء لتتحول عليها لمشاهد مثيرة تجمع نجومه ونجماته المفضلات وكان يفرح إذا كانت بطلة الفيلم المعروض هى سعاد حسنى التى كان يراها نموذجا للجمال والأنوثة، غير أن السبب الأهم لبداية حلمه بالعمل فى البترول كان لقاءه بالمهندسين الذين كانوا يعاملونهم بحنان واهتمام ويحكون لهم

عن أفضال آبائهم عليهم وكيف تعلموا منهم أسرار الصنعة وإستفادوا من خبراتهم الطويلة وكانوا يخصونه هو بمرافقتهم لأماكن العمل بصفته الأكبر والأكثر إهتماما بعملهم، طوال اليوم كانوا يتجولون وهو معهم فى الورش والحفارات ومناطق المعالجة بعد أن يلبسوه خوذة الأمان كالتى يضعونها فوق رؤوسهم بعد أن يضبطوا تجويفها على مقاس رأسه الصغير، كان يعود من تلك الجولات مرهقا لكنه سعيد فيتذكر أحاديث أبيه وأعمامه عن البترول ويربطها بما رآه ويتخيل نفسه مهندسا كبيرا يراجع اللوحات ويقرأ الكتالوجات ويلقى بالتعليمات للعمال والمشرفين، هناك فى أبو رديس قرر الصبى هاشم أبو بكر أن يكون مهندس بترول وقد جاءته الفرصة ليحقق حلمه الكبير فى نفس المكان الذى تشكل فيه ذلك الحلم.

لم تنجح خطته وظل أبوه مغلقا أمام محاولاته لكن تطور علاقته بعمه عبد الله كان مفتاح الحل.

عرف عن قرب ما كان يسمع الناس تحكيه عن مهارة عمه وخبرته فى العمل وقوة شخصيته واحترام الجميع له، علمه عبد الله أسرار الصنعة كما علم أباه من قبل وأصبحا لا يفترقان بعد أن أكمل كل منهما الآخر فالباش ريس بخبرته العملية وهاشم بعلمه ومعرفته الجيدة باللغة الإنجليزية شكلا ثنائيا صار مثارا لإعجاب العاملين وبلغت سيرته للإدارة العليا فى القاهرة بعد أن نجحا فى تنفيذ أفكار جديدة لصالح العمل، كان أبو بكر سعيدا بولده وفخورا بأنه تعلم فى شهور ما يتعلمه أنداده فى سنين لكنه لم يبد له أى اهتمام ولم تصدر عنه أى إشارة أنه يراقبه من بعيد ويعرف عنه كل شيء.

فى جلساتهما المسائية حكى هاشم لعمه كل شيء وطلب منه أن يكلم أباه، كان يعرف قدر حب أبيه لعمه ويعرف أن هذا الرجل الذى منحه الرعاية وجعل منه مهندسا متميزا هو الذى فتح للعائلة طريقا للهجرة للمدينة والحياة الرحبة عندما ضاقت عليها السبل فى الصعيد، وكان يعرف أنه مختلف عن كل رجال العائلة ولا يتوقف كثيرا أمام مسألة الأشراف لأنه يرى الناس من منظوره الخاص والأهم من كل ذلك أنه يعرف الحب فقصة حبه لفاطمة معروفة للجميع، وكان يعرف أن خلف تلك الشخصية الصارمة المحتدة يقبع قلب مفعم بالرقة والحنان، سمع ذلك من جدته يوما والآن تأكد منه.

صارا كأنهما صديقين ما شجع هاشم أن يتجرأ ويسأل عمه يوما فى جلسة رائقة:

- بس إنت ليه عملت ف نفسك وف مرة عمى اللى عملته فى الهجرة.
- أنا ما عملتش حاجة، اليأس هو اللى عمل، شوف يا هاشم أنا ما ليش ف الفلوس والأملاك والأراضى زى الناس اللى حواليك دول، أنا متعتى هى الشغل والكرامة وإن حياتك يبقالها معنى، وإنت عارف حالتنا وحالة البلد كانت إزاى فى الهجرة، إتكسرنا يا هاشم، عارف لما تشوف جبل عالى ويتهد قدام عينك وفوق راسك، وعلى غفلة (فجأة) تلاقى نفسك مالكش لازمة وكل اللى بتسند عليه بيتهد، ما لقيتش قدامى غير الخمرة، أنا ندمان يا ولدى ونفسى أصلح اللى اتكسر وإن شاء الله هاصلحه.

- بس إنت يا عمى كان عندك عيالك وشغلك ف الجزارة.
- ولادى عمرى ما هملتهم يا هاشم، بس كنت محمل على مرة عمك فى الفترة دى وكنت عارف إنها هتصونهم، صح أنا ماهملتهاش ف حالها وأذيتها كتير بس متأكد أنها هتسامحنى، والجزارة كانت غصب مش مهنتى اللى بلاقى نفسى فيها.
- بس لازم اللى بتقوله ده يوصل لمرة عمى.
- هيوصل، يا الله روح نام ورانا شغل كتير الصبح.

تحدث عبد الله مع أبو بكر كثيرا ليحاول إقناعه بالموافقة على زواج هاشم من الفتاة التى أحبها، بعد طول جدال حدس عبد الله أن موقف أخيه لا ينبع من قناعته الشخصية فرغم صرامة أبو بكر وتشبعه بأفكار أمه حول الأصول والأنساب إلا أنه كان يعرفه جيدا، حنونا ولينا إذا تعلق الأمر بأولاده ما أكدته نظرة عينيه وهو يحدثه عن حب الولد للفتاة وإصراره الشديد على الارتباط بها، تحدثا كرجلين يعرفان الدنيا ويحملان عبر سنين عمرهما خبرات الحياة التى علمتهما أنه لا أحد يستطيع الوقوف أمام الموج الهادر لبحر الحياة وأن الأبناء هم أبناء زمنهم القادم وليسوا ملكا للأباء والأمهات أو أسرى لزمنهم الذى يولى، أحس بتعاطف أبو بكر مع ولده ورغبته فى إنهاء الموضوع المعلق منذ فترة لكنه فهم أن المشكلة تتعلق بغالية فى الأساس ثم فى أمه الحاجة آمنة التى تساندها وتعزز مقاومتها بشكل غير معلن حتى أن الرجل بات يشعر أن زوجته الهادئة اللينة الصامتة العاقلة مستعدة للطلاق إذا هو حاول إجبارها على الموافقة. أخبر عبد الله ابن أخيه بما دار بينه وبين أبيه منهيا كلامه:

- العقدة مش ف أبوك، عليك وعلى أمك وستك وأنا معاك.

خلال شهور طويلة كانت رغبة "ود بيت هاشم أبو زيد" فى الزواج من "البت الفلاحة" هى محور الأحاديث التى لم تخل من النميمة، فى زيارات عائلات الأشراف لبعضهم البعض وعلى هامش مناسبات الزواج أو العزاء وفى جلسات الرجال منهم فى أبو رديس بعد أيام العمل وفى جلسات النساء فى سقائف بيوت المخادمة والرجال فى الدواوين وأمام الدكاكين وتحت اللبخة، كانوا يرونه زلزالا سيجعل الأرض تميد تحتهم ورياحا عاتية ستخلع أوتادهم الراسخة عبر قرون، لم تكن مجرد مسألة زواج شاب من فتاة لكنها كانت عقيدة وكرامة وشرف وطريقة حياة ونظر للعالم، كانت قضيتهم "نحن" فى مقابل "الآخرين" فإذا تهاونوا صار تهاونهم بداية انفراط العقد واختلال الكون، كانوا يفكرون أنه إذا كانت ظروف الحياة وكسب الرزق قد أجبرتهم على تلك الهجرات بين البلاد والعيش وسط الناس ومبادلتهم الود وما تمليه أصول الجيرة والتعامل فإنهم أشراف لهم تقاليدهم وعاداتهم أينما حلوا، كان ذلك ما يملأ نفس غالية وما تصل إليها إشاراته الواضحة، هددها أخوها الأكبر الذى كان بمثابة أب لها أنها لو وافقت فسوف يحرم على نفسه وعلى زوجته وأبنائه وإخوته وزوجاتهم وأبنائهم دخول بيتها، كانت تفكر أنها إذا سمحت لذلك أن يكون فكيف ترى وجهها لأقاربها وقريباتها وماذا ستقول للرجال الذين يلزمون أولادهم بالزواج من "الشريفات" وكيف تنظر فى عيون النسوة اللاتى ينتظرن العرسان "الأشراف" ليدقوا أبواب بيوتهن طلبا لخطبة البنات، ويتسائلن فى جلساتهن التى تأتيها أخبار ما يدور فيها بالتفصيل أنه إذا سمح بذلك

لشبابنا فماذا يكون مصير البنات سوى البوار أو عار الزواج من الفلاحين.

لف الصمت بيتها بعد صدمتها فى ولدها الأكبر، فى مساءاتها الكئيبة التى كانت تقضيها بغرفتها كانت تعيد ترتيب أفكارها وتستعيد مسار حياة ولدها محاولة أن تضع يدها على مكمن الخطأ الذى ارتكبته فى تربيته حتى يفكر فى الخروج عن التقاليد الراسخة التى تربى عليها فيزلزل حياتها ويحول نهر حياتها الهادئ المطمئن إلى بحر تضطرب هى الآن بين أمواجه العاتية. كان هاشم منذ مولده قرة عينها ومثالا للابن الذى يفخر به أهله، عاقلا رزينا متفوقا فى دراسته لا يشارك أقرانه عبث المراهقة وسخافاتها، يتسم منذ صغره بسمات الرجولة ويطرح أفكارا تسبق سنه، تذكرت يوم جاءها قبل يومين من الهجرة مضطربة أنفاسه من طلوع السلم قفزا ليحكى لها كيف ترك له عمه عبد الرحيم مسئولية الدكان ليبيع للزبائن وكيف أثنى عليه عمه عند عودته عندما سلمه هاشم ورقة سجل فيها البضاعة التى باعها وأمام كل صنف المبلغ الخاص به، وأخبره عمه أنه سيفعل ذلك من الآن فصاعدا ليضبط حسابات الدكان التى "تخرف" معه كل أسبوع، وتذكرت فترة إقامته عند عمه محمود فى قنا أثناء دراسته الثانوية التى خلت مما كان يفعله أنداده من البلد الذين استغلوا بعدهم عن أهلهم فصاروا يدخنون ويصاحبون البنات السيئات ولا يكفيهم مصروف الأسبوع سوى يومين حتى أرهقوا أهاليهم وفشل أغلبهم فى إكمال الدراسة أو حصلوا على مجموع لم يؤهلهم للجامعة فكيف للذى لا يترك فرضا حتى كان أعمامه وجدته يطلقون عليه "الشيخ هاشم" أن

يتمرد على عائلته ويحط من شأنها أمام الناس ويجعلها تقرأ فى عيونهم نظرات اللوم وكأنها "ما عرفتش تربى"، ويردد أقوالا لا تدرى من أين جاء بها عن أن شرف الإنسان بعمله وأخلاقه وليس بنسبه وأن ما يفعلونه حرام لا ينص عليه شرع أو دين، كانت تقول لنفسها "آه .. هى الكتب والقعدة فى مصر اللى خسرته" وتشحذ عزيمتها أنها لن تستسلم وسوف تزيل الغشاوة التى على عينيه.

لم يتذكر أحد القصة القديمة، لكن غالية كانت تعيشها عبر السنين يوما بعد يوم فكيف تنساها، كانت توجعها ذكرى الليالى التى كانت تقضيها فوق السرير البارد وهى ما زالت عروسا فى شهورها الأولى من الزواج ونفور زوجها منها عندما كانت تسرع إليه عند عودته فى الليل مكتملة الزينة لتساعده فى تغيير ثيابه وتجهز حمامه وعشاءه دون أن تلقى منه سوى التجهم والكلمات المضغمة ثم الخلود للنوم، صبت لعناتها حينئذ على "الفلاحة بنت الحرام" التى تسعى لخطف زوجها وهو مازال عريسا وتشكلت عقدتها من خطافات الرجال البيضاوات اللاتى يزججن حواجبهن ويغرين "ولاد الناس"، فإذا كانت قد نجحت فى الاحتفاظ بزوجها بفضل حسم حماتها ثم بفضل طريقتها هى فى التعامل مع الأمور بعد ذلك فقد عاد شبحهن ثانية لخطف وليدها بكريها ورجلها الصغير الذى صار "يا شمهندس قد الدنيا .. طول بعرض وجمال وهيبة" الذى تضحى من أجله بحياتها وهى راضية، لكنه شاب غر تغلبه شهواته ولا يعرف ألاعيب النساء وسوف تصارعه من أجل مصلحته أولا ولن تسمح لتلك الغريبة أن

تأخذه من حضن أهله ولن تسمح أن يكون هاشم زينة شباب الأشراف سببا لمعايرة الناس لبيت أبو زيد "أسياد الناس".

تمترست غالية خلف تلال صمتها ولم تتزحزح وعاش بيت الهويس أجواء حرب باردة.

قرر هاشم أن يبدأ بنساء العائلة المحيطات بأمه، عمته وزوجات أعمامه، عسى أن يتمكن من شق شرخ فى الجدار الصلد، كان يعرف حساسية موقف أعمامه وزوجاتهم فلكل منهم بنات فى سن الزواج وكان هو قبل أن يلقى كرة النار مرشحا للزواج من أى منهن، لكن عمه عبد الرحيم وزوجته زينب كانا استثناء فبناتهن مازلن صغيرات وأصغر أعمامه كان بحكم سنه وطبيعة عمله فى التجارة منفتحا وفاهما ومتعاطفا وزوجته سلفة أمه وصديقتها كانت أمها "فلاحة" تزوجها أبوها الذى كانت أسرته من ربع أولاد مرعى حين كان موظفا صغيرا فى تفتيش الرى فى "إسنا" قبل انتقاله إلى تفتيش قنا حيث ربى أبناءه وزوجهم فكانت زينب من نصيب عبد الرحيم، فى بداية زواجها كانت زينب تتحفظ فى الحديث عندما يتطرق لموضوع النسب والأصل إذ كانت تلمح فى العيون نظرة تقول أنها أقل من الجميع، لكنها مع العشرة واستتباب مكانتها فى العائلة تجرأت فصارت تعلق "ومالهم الفلاحين .. كفرة يعنى"، وعدته زينب بالتوسط لدى غالية لتلين موقفها ووعده عبد الرحيم أن يحدث آمنة وأبو بكر فانضم الزوجان لفريقه الذى ضم قبلهما عمه عبد الله وزوجته فاطمة التى أرسلت له مع عمه رسالة تضامن وأوصته ألا يتخلى عمن يحبها وأن يصبر.

خطوته التالية كانت عمته خديجة، كانت خديجة رغم شبهها بطباع أمها وتشربها كل ما ربتها عليه إلا أنها كانت تحبه وتخصه بحنان دافق فقد كانت عندما ولد مطلقة لم يرزقها الله بالأطفال تقيم مع أمها وأخيها أبو بكر وزوجته غالية وتنتظر فرصة تأخرت لزواج آخر، حملته رضيعا وقضت شهورا تساعد أمه فى رعايته وقد جربت فيه مشاعر الأمومة التى تشتهيها فاعتبرت نفسها أما ثانية له وكانت هى طوال عمره حاميته والمدافع عنه إذا تعقدت الأمور بينه وبين أحد والديه أو جدته، ذكرها بذلك وطلب منها أن تكون كما كانت دائما، ردت عليه:

- يا هاشم المرة دى الموضوع كبير مش لعب عيال زى زمان.
- يا عمة ما تتخليش عنى.
- يعنى يا واد خلاص ما فيش بنات غيرها عشان تخسر أمك وناسك؟

لكى يقنعها أخبرها أنه يريد أن ترى أمل وسوف تعذره عندما تراها، ألح عليها فوافقت على مضض وطلبت منه أن يرتب الأمر كأنه مصادفة ففعل، عندما رأتها قالت فى سرها "اللهم صل ع النبى .. والنبى الواد معذور"، بهرها جمال الفتاة ورقتها وتوسمت فيها الأخلاق الحميدة فعادت وقد تحمست لمساعدة ابن أخيها فى شرخ جدار الرفض الذى تعتليه غالية ومن ورائها حماتها، أمها آمنة.

فى لحظة انفعال، أخبر هاشم عمه عبد الله أنه يفكر فى استئجار شقة فى القاهرة ليتزوج فيها أمل ليضع الجميع أمام الأمر الواقع، كان

هذا مجرد تهديد يعلم أنه سوف يصل لأذن أبيه وأمه وجدته فقد اقترح ذلك على حبيبته لكنها رفضته رفضا قاطعا وأبلغته أن أهلها يعرفون الأصول ولن يوافقوا مهما فعل وأنها مستعدة للصبر عليه مهما طال الوقت فقد حكت لأمها عنه وعن اعتراض أهله ومحاولاته لإقناعهم وطلبت منها أن تفعل ما فى وسعها كى لا يتقدم إليها أحد، أصاب التهديد هدفه وبدأ جدار غالية فى التصدع عندما شعرت أنها ربما تفقد ولدها للأبد وأنها إذا كانت على مشارف الهزيمة فى معركة فإنها لا يجب أن تخسر الحرب، تحت ضغط زينب وخديجة وفاطمة وعبد الله وعبد الرحيم وصدى التهديد الذى جعل أبو بكر يعلن موافقته للجميع، استسلمت غالية لكنها اشترطت ألا تحضر خطبة أو زفافا أو تدخل لولدها بيتا.

تحدد وقت الذهاب لبيت العروسة لطلب يدها واشترى هاشم دبلتين بعد أن تم الاتفاق أن يذهب مع أبيه وعمه عبد الله وعمته خديجة على أن يعتذروا لأهل العروسة بمرض والدة العريس الذى منعها من الحضور، قالت خديجة أنها كذبة بيضاء وأن غالية ستوافق وترضى إذا رأت العروس وسوف تراها.

تزوج هاشم وأمل، إنتصر الحب، وجرى نهر الحياة الدافق - رغم كل شيء - فى مساره المحتوم.

لم يكذبوا فقد مرضت غالية مرضا ألزمها الفراش دون حركة لمدة تزيد على شهر ولم تخط قدماها البراجيلى لمدة سنة ولم تدخل بيت ولدها طوالها لكنه حرص على زياراته لها والبقاء لديها ساعات طويلة

محاولا استرضاءها وإقناعها بطريقة غير مباشرة بالرضى عن زواجه، كان يحدثها عن حمل زوجته وانتظاره الملهوف لولادتها ويخيرها بين الأسماء المقترحة للمولود القادم، كان قلبها يكاد أحيانا أن يخونها لكن وجهها ولسانها ظلا محايدين فلم تبد منهما أية إشارة لما يخفق به قلبها، حتى جاءها صوته فى التليفون باكيا:

- أمل تعبانة قوى يا أمى ومش عارف فيها إيه.
- بتقول إيه يا هاشم إيه اللى حصل، هى جالها الطلق؟
- مش عارف، بس نزلت منها مية كتير، قولى لجبر يجيلى بسرعة ننقلها المستشفى.

كسر قلبها بكاء ولدها، خارت مقاومتها وانداح حنانها المكبوت تجاهه كشلال، حتى تمنت لو أنها لم تقف كل تلك المدة أمام رغبته فى الزواج من أمل ولم تقاطعه منذ زواجه، لعنت التقاليد وكلام الناس اللذين منعاها من الفرح بأول فرحتها وانتظار حفيدها الأول منه، أفاقت آمنة من غفوة آلامها على ولولة غالية، هتفت من غرفتها بصوت لم يفلح الوهن فى مداراة فزعه:

- ماله هاشم يا بت؟
- مرته تعبانة، يا حبيبى يا ولدى.
- روحى البسى جلابيتك ونروح له.
- خليكى انتي تعبانة أنا رايحة له.

لم يكن جبر ومختار موجودين، نادت على مصطفى الذى كان يذاكر فى غرفته كى يصطحبها ويريها طريق بيت أخيه، عندما هبطا

السلالم جاءهما صوت آمنة عبر بئر السلم يأمرهما بانتظارها وفى لحظات كانت بجوارهم بحبرتها السوداء وعلى وجهها ملامح الجد كأنها مقبلة على مهمة وبدت كأنها صغرت عشرين عاما.

لم يمنع القلق هاشم من الفرح بأول مرة تدخل أمه وجدته بيته، رحب بهما لكن المرأتين تعجلتا فى رؤية الزوجة التى عرفا من النظرة الأولى أنها على وشك الوضع، سألاها عن الطلق فأجابت بصوت واهن أنه ضعيف ويأتى على فترات متباعدة، إقترح هاشم أن يأخذوها لتلد فى المستشفى، زامت آمنة:

- ما ليكش صالح بالمسائل دى، روح هات مية سخنة وفوط واستنى مع خيك بره.

تطلعت غالية لوجه أمل، كانت جميلة رغم علامات الألم، نظرت المرأة الشابة لحماتها وجدة زوجها فأنارت الابتسامة وجهها الجميل، إنفتح قلب غالية لزوجة ابنها وقررت أن تعوض ما فاتها من الفرح بها، إنتبهت على زجر آمنة لها:

- مالك يا بت؟ ده وقت سرحان؟

شرعت المرأتان فى مساعدة الوالدة وتشجيعها أن تدفع بالجنين بكل قوة واستعدت آمنة لاستقباله وهى تشعر أن تلك اللحظات هى أهم ما مر بها طوال عمرها المديد.

مع صرخة الوليد اندفع هاشم وخلفه مصطفى لداخل الغرفة، كانت آمنة ترفع الوليد من قدميه بيد وتتحسس ملمس جسده الزلق باليد الأخرى وقد تطلعت إليهما غالية بينما تملأ عينيها الدموع.

أشرفت آمنة على ترتيبات احتفال "السبوع" وجاء الجميع من السويس والقاهرة والبحر الأحمر حتى امتلأ بيت الهويس، إرتدت أمل فستانا أبيض كأنها عروس ووضعت الوليد على حجرها بعد أن كحلته زوجات أعمام زوجها ورشت غالية الملح والسبع حبات على الجميع بينما آمنة تتمتم بالمعوذتين والتف الجميع فى حلقات ليتناولوا لحم الذبيحة التى ذبحها عبد الله فوق السطح، وقفت آمنة فى وسط البيت، هتفت:

- الفاتحة لأبوكم وجدكم هاشم أبو زيد.

إنتهوا من قراءة الفاتحة فأطلقت آمنة زغرودة طويلة حملتها كل أشواقها وأحلامها طوال سنوات عمرها المديد، زغرودة سوف يتردد صداها طويلا عبر الزمن.

خاتمة:

فى وقفتى أمام شواهد القبور الماثلة أمام عينى بجبانة الأشراف فى صحراء السويس وبينما تلوح لعين خيالى شواهد أخرى لقبور فى جبانات الأشراف بقنا والقاهرة والبحر الأحمر وغيرها من المناطق التى استقروا فيها وهم يطاردون صيدهم المراوغ، كانت شذرات من حياتهم تدور فى مخيلتى مشاهد متداخلة وكنت أعيد اكتشاف ذاتى وأغوص حتى أبلغ طبقات سحيقة فى عمق تكوينى فتتجلى على صفحة عقلى وفى تلافيف روحى حقيقتى.

تعجبت وقتها كيف لم أفكر قبل الآن أن أبحث فى تاريخهم، كيف لم أفكر أن أنأى قليلا عن انشغالى فى تفاصيل حياتى وحياتهم حتى أرى مجرى نهرها وهو يتشكل من منابعه ثم يجاهد أن يستمر فى سريانه نحو مصبه المحتوم.

أنا أمجد عبد الله هاشم أبو زيد، إبن المخدمى والبطيخية.

أنا إبن فاطمة، إبن آمنة وهاشم، إبن عبد الله ومحمد ومحمود وأبى بكر وحسين وعبد الرحيم وخديجة ونصرة ونعمة وغالية وكاملة وزينب، إبن سرية وعبد المطلب ونزيهة وعاشور، إبن المخادمة والبطاطخة، إبن السويس وقنا والصعيد، واحد من أبناء قبيلة آمنة الذين يكدحون كغيرهم من الناس كى يجدوا مكانا لهم تحت شمس الله.

بموت أمى الحاجة فاطمة عبد المطلب عاشور، كان الزمن قد أتم دورة من دوراته الجليلة وودعت الأرض شجرة من شجراتها السامقات،

وكانت حياتى تفقد رافدا من روافدها الباذخة وتلقى بى إلى فلوات الجدب حيث أتلمس بالكاد أثرا لخضرة تبيد أو عين ماء تغيض.

بزغت الفكرة كشعاع نور باهر أشرق داخل كهف أحزانى على غياب أمى الفادح، قررت أن أكتبها وأكتبهم، علنى أستطيع أن أقبض على بعض من ملامح روحها وأرواحهم أخبئها فى غور روحى، ولعل الكلمات تبعثهم أحياء من جديد فتهزم سطوة صمت الموت الذى يلفهم، ولعلنى أتعلم منهم - فوق ما تعلمت- مهارة الانفلات من الفخاخ التى تنصبها الحياة وهى سادرة فى طريقها المتعرج فأقوى على إكمال ما تبقى لى منها فى سلام .. حتى يأتى يوم يرى فيه الذين سوف يقفون مثل وقفتى تلك قطعة رخام جديد.ة وفوقها كتب اسمى وتاريخ انتهاء ألمى.

القاهرة

أكتوبر 2013 – مايو 2015

أخبره السائق أنهم سوف يأخذون طريق البحر الأحمر مرورًا بالعين السخنة والزعفرانة ورأس غارب والغردقة وصولا إلى سفاجا ومنها إلى الطريق الواصل إلى قنا.

مضت السيارة على الطريق الضيق، كانت الجبال على يمينهم والبحر على يسارهم وخلفهم السويس، مدينة الحلم التي تتحول الآن إلى ذكرى، تذكّر عبد الله يوم جاء إليها محشورًا بجوار السائق في سيارة العفش ولكنه منتش بالأمل العريض، وها هو يرحل عنها مهاجرًا أو مُهجرًا ومحشورًا أيضًا بجوار سائق آخر في سيارة عفش أخرى بين حطام أحلامه وطريقه إلى الجنوب مرسوم كالقدر، محاصرًا، بين الجبال والبحر وخلفه الحرب والدمار وأمامه المجهول.

